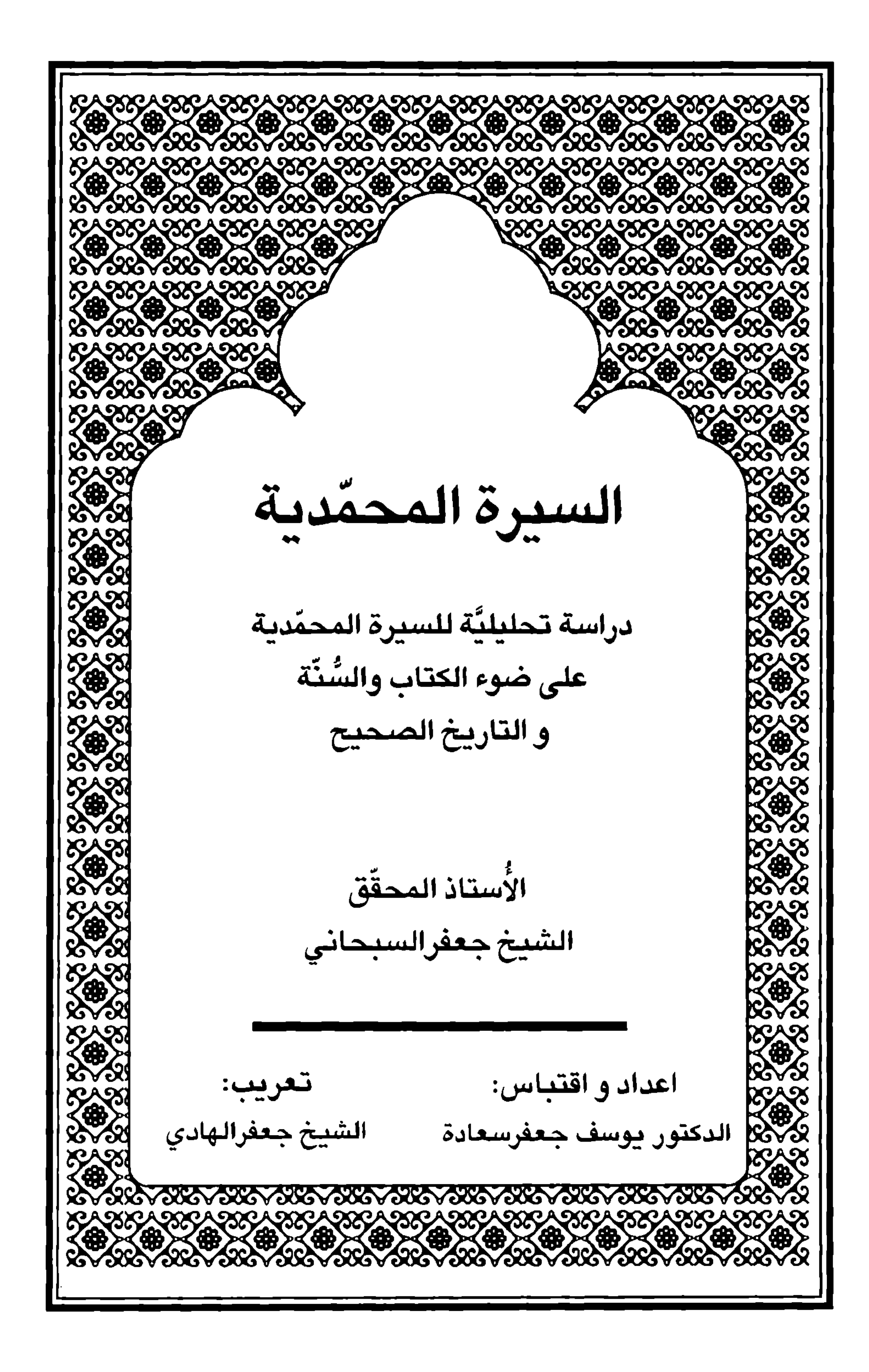


دراسة تحليلية للسيرة المحمدية
على ضوء الكتاب والسنة والتاريخ الصحيح

الأستاذ المحقق
الشيخ جعفر السبحاني دام ظله



الناشر: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام



السيرة المحمّدية

دراسة تحليليَّة للسيرة المحمّدية
على ضوء الكتاب والسُنّة
و التاريخ الصحيح

الأُستاذ المحقّق
الشيخ جعفر السبحاني

اعداد و اقتباس:
الدكتور يوسف جعفر سعادة

تعريب:
الشيخ جعفر الهادي

فهرست‌نويسى پيش از انتشار توسط: مؤسسهٔ تعليماتى و تحقيقاتى امام صادق عليه السلام

السبحاني التبريزي، جعفر، ۱۳۴۷هـ.ق ـ
السيرة المحمدية صلى الله عليه وآله/ تأليف جعفر السبحاني؛ تعريب جعفر الهادي؛ مخلّص يوسف جعفر سعادة. ـ
قم: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، ۱٤۲٥ ق. = ۱۳۸۳ش.
۲۸۲ص. ISBN : 964-357-147-5
كتابنامه به صورت زيرنويس.
چاپ دوم
محمد(ص)، پيامبر اسلام، ۵۳قبل از هجرت ـ ۱۱ق. ـ ـ سرگذشتنامه. الف. هادي، جعفر، مترجم.
ب. سعادة، يوسف جعفر، خلاصه كننده ج. مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام. د. عنوان.
BP ۲۲/ ۹/ ۹۰۱س ۲س/ ۲۹۷/۹۳

اسم الكتاب:	السيرة المحمّدية
الموضوع:	سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله
المؤلف:	العلاّمة المحقّق جعفر السبحاني
تعريب	جعفر الهادي
المخلّص:	يوسف جعفر سعادة
الطبعة:	الثانية/ ۱٤۲٥ هـ.ق
المطبعة:	مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام
عدد النسخ:	۳۰۰۰ نسخة
الناشر:	مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام
السعر:	۱٤۰۰ تومان
الصفّ والإخراج باللاينوترون:	مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

توزيع: مكتبة التوحيد
قم ـ ساحة الشهداء ـ ☎ ۷۷٤٥٤٥۷و۰۹۱۲۱٥۱۹۲۷۱
FAX : ۰۰۹۸ ۲٥۱ ۲۹۲۲۳۳۱
E-mail:pub@imamsadeq.org
http://www.imamsadeq.org



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلّف

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ أعظـم صفحات التـاريخ قيمـة، هي تلـك التي تعكـس لنا حيـاة العظماء، وسيرةالرجـال الخالديـن، والتي تبحـث عنهم بصدق وأمـانة ومـوضوعيـة، ذلك إنّهم معجـزة الخليقـة بلا ريـب، وحيـاتهم في الحقيقـة ملحمـة التـاريخ الكبرى، وسـاحـة البطولات الخالدة، ومسرح الحماسات العظمى الحيّة النابضة على مر العصور.

لقد كان أُولئك العظماء يعيشـون على خط الثوارات و التغييرات الاجتماعية، تجد مصداقيّتها في حيـاتهم، وتتجسّد في مواقفهم،ولهذا كانوا يشكّلـون حلقة الاتّصال بين مظاهرالـدنيا المختلفة المتناقضة، فكانـت حياتهم الحافلة بالأحداث، شاهـدةً للألوان والمشاهد المثيرة المتنوعة.

ويأتي على رأس أُولئـك الرجـال التاريخيين والعظماء الخالـدين، رسـولُ الإسلام العظيم محمّد ﷺ، إد أنّه لم تتسم حياة أحد ـ من حيث وفرة الأحداث وعظمة الأمواج ـ كما اتّسمت حياته ﷺ ، ولا اتّصفت شخصيةً بمثل ما اتّصـف به ذلك النبيُّ العظيم. فلم يستطـع أحدٌ سـواه، أن يؤثّـر في بيئته،ثـمّ في جميع أنحـاء العالم، وينفـذ إلى أعماق الأعماق بمثل السرعة والسعة التي حصلت له ﷺ.

إنّ مطالعة عميقة لسيرة وحياة هذا الإنسان العظيم، قادرة على أن تعلمنا الكثيرَ الكثيرَ وأن توقفنا على مشاهد متنوعة في غاية النفع ومنتهى الفائدة.

وقد أُلّفت حـول حياة رسول الإسلام كتبٌ ورسائل ودراسـات كثيرةٌ، بحيث لو

أُتيح لنا أن نجمعها في مكان واحد، لشكّلت مكتبةً ضخمة وعظيمة.

ويمكن القول بأنّه ليس ثمّة من عظيم استقطب اهتمام التاريخ والمؤرّخين والمفكّرين، كما أنّه ليس ثمّة شخصيةً عالمية كتب حولَها المؤلّفون والباحثون، هذا القدرَ الهائلَ من المؤلّفات والمصنّفات والرسائل والكتب، مثل ما حصل للرسول الكريم ﷺ.

إلاّ أنّ أكثر هذه الكتب والمؤلّفات تعاني من أحد إشكالين:

إمّا أنّه جاء على نَسَق التسجيل المجرّد للحوادث، أو النصوص التاريخية دون أن يقوم مؤلّفُه بتحليلها ودراسة خلفيّاتها ونتائجها وإصدار الحكم اللازم بشأنها.

أو عَمَدَ إلى طائفة من الآراء الحدسية والاجتهادات الباطلة العارية عن الدليل، وإثباتها في مؤلّفه على أنّها الحكمُ الحقّ، وخلط هذه الأحكام مع الأحداث، ليخرج كتابه إلى الجمهور المتعطّش إلى تاريخ الإسلام، على أنّه التاريخ المحقَّق.

ويمكن الردُّ على هؤلاء، بأنّ الهدف من التاريخ ليس مجرّد تسجيل للحوادث وضبطها وتدوينها، بل هو تناول أحداثه من المصادر الصحيحة الموثوق بها، وإبراز عللها، وأسبابها وثمارها ونتائجها، وهو بهذا الشكل يصبح أعظم كنز تركه الأقدمون

ا:ا

لقد تجنّب أكثر كُتّاب السيرة النبوية عن إظهار الرأي في الحوادث، أو القيام بأيّ تحليل للوقائع، بحجّة الحفاظ على أُصول الحوادث ونصوصها، بل إنّ أكثر الحوادث التاريخية في العصر الإسلامي أُدرجت في الكتب من دون دراسة موضوعية وتقييم دقيق.

أمّا هذا الكتاب فإنّه يتميّز بميزتين هامتين:

أوّلها: إنّنا عمدنا فيه إلى تناول الحوادث والوقائع المهمة، ذات الفائدة الكبرى

والعبر ، بالبحث والتحليل مع إبعاد الأحداث الجزئية الصغرىٰ، و قد اتّخذنا تلك الأحداث من المصادر الأصلية و الأوّلية التي دوّنت في القرون الإسلامية المشرقة الأُولى.

وثانيتهما: إنّنا أشرنا خلال الدراسة، إلى الاعتراضات والإشكالات، وإلى مواطن الإساءة التي قدّمها المستشرقون المغرضون، وتناولناها بالإجابة على كلّ تلك الانتقادات غير الصحيحة بأجوبة مقنعة وقاطعة.

ولهذا بادرنا إلى ذكر رأى المؤلّفين الشيعة في المسائل التي اختلف عليها مؤرّخو السنّة والشيعة، مع ذكر المصادر والشواهد التاريخية الواضحة المبرهنة.

وإنّنا إذ نقدّم هذه الدراسة التحليلية لشخصية وحياة خاتم الأنبياء محمّد ﷺ إلى القرّاء الكرام، نأمل أن يهتم بها عامّةُ المسلمين وخاصةً المثقفون والشباب منهم، ليتناولوا هذه السيرة العطرة بالمطالعة المتأنيَّة و التأمّل والتدبّر، حتى يمكنهم أن يرسموا خريطة حياتهم وحياة مجتمعهم في ضوء ما يستلهمونه ويتعلّمونه من سيرة وحياة رسول الإسلام ﷺ في هذه الحقبة البالغة الخطورة.

والله وليُّ التوفيق

جعفر السبحاني

قم المقدّسة ـ مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام

الأربعاء ٢٧ محرم ١٤٢٠ هـ

١٢/ ٥/ ١٩٩٩م

مقدمة الملخّص

كان لي الشرف العظيم والافتخار أن أتقابل مع الأُستاذ المحقّق و العلاّمة الشيخ جعفر السبحاني في مكتبه بقم المقدسة، حينما جمعتني به الظروفُ والصّدفُ الحسنة الطيبة والمباركة، أدام الله ظلّه وأطال في عمره الشريف، فقد كنتُ في قم المقدّسة بهدف تقييم كتابي:«أهل البيت ﷺ وآثارهم في المجتمع الإنساني» الّذي كان يستدعي أن أعرضه على عدد من علمائنا الأفاضل ـ أطال الله في أعمارهم وجعلهم أنواراً في الأرض ـ ليقدّموا ما لديهم من مقترحات حول ما جاء فيه من أفكار وآراء قد لا تتناسب مع جزئيات الدين أو المذهب أو المعتقدات الخاصة بالمسلمين عامة و الشيعة خاصة.

وكان الشيخُ الفاضل ممن أُوصيت بالاتّصال به للمساعدة في هذا الجانب، فتشرَّفت بلقائه وتقبّل ما عرضت عليه، فله الشكرُ و التقديرُ والاحترام، إلاّ أنّه في نفس الوقت تقدّم هو الآخر بعرضٍ مماثل، وهو أن أقوم بتلخيص كتابه الكبير : «**سيد المرسلين**» الذي يتناول فيه سيرة الرسول الكريم محمّد ﷺ، وذلك ليسهل تداوله في الأيدي، فيطّلع عليه شبابنا المثقف في هذا الزمن الذي امتنع فيه عن قراءة الكتب المطوّلة ذات الأجزاء المتعدّدة، بل بالكاد يطلع على أقلّ الكتب صفحات وموضوعات وأفكار. وكان عرضه في الحقيقة شرفاً كبيراً لي، وتقديراً منه لي أيضاً، في الوقت الذي اندهشت لعرضه، إذ انّني في كتابي« **أهل البيت**» تناولت ما يتعلّق من أحداث عن الأئمّة الاثني عشرﷺ وأولادهم وأحفادهم، دون التعرّض للنبي ﷺ والسيدة فاطمة الزهراءﷺ إلاّ نادراً، فأصبح هذا الكتاب وكأنّه يكمل ولا شكّ ما جاء من وقائع

وأحداث في كتابي أهل البيت ﷺ.

وقد نهج الكاتب العظيم في تأليفه، بأن قسمّ كتابه إلى جزءين: تناول في الأوّل منهما أحداث الإسلام والمسلمين في مكة إلى زمن الهجرة إلى يثرب. وفي الجزء الثاني، قدم شرحاً مفصلاً لأحداث المدينة المنورة سنةً بعد سنةً، إلاّ أنّه لم يتخذ منهج التنظيم، شكلَ الأبواب والفصول، بل نهج في تنظيمه بالأعداد والأرقام.

ولما كنت أميل نحو تنظيم الكتب في مؤلفاتي إلى الأقسام والأبواب والفصول، فإنّي قمت بتقسيمه أوّلاً إلى قسمين: اختص الأوّل بأحداث مكّة المكرّمة.

والثاني: ارتبط بوقائع ومجريات الأُمور في المدينة المنورة.

ثمّ إنّ كلّ قسم اتّخذ عدة فصول بحسب الأحداث و الوقائع وأهميتها. كما أنّي أضفت عدّة فقرات كانت بحاجة إلى تفسير بعض الأحداث أو المواقع أو الشخصيات. ثمّ أعددت قائمة منظمة للمراجع والمصادر التي استفاد منها المؤلّف كما أعددت فصلاً خاصاً تناولت فيه ما جاء من قصص وروايات في كتاب العلاّمة الشيخ تثري المعلومات المقدمة.

وأرجو من الله العلي القدير أن يكون قد وفّقني في عملي المتواضع هذا، وأن يتقبّله الرسول الكريم ﷺ، وأهل بيته الكرام، فيكون شفيعاً لي ولأهلي يوم القيامة، وأن يُرضِيَ به أُستاذنا وشيخنا المحقّق العلاّمة جعفر السبحاني، أطال الله عمره بالصحّة الموفورة، ووفّقه لما فيه الخير والمصلحة للإسلام والمسلمين.

د/ يوسف جعفر سعادة

الكويت

٢١ ربيع الأوّل ١٤٢٠هـ

٤/ ٧ (يوليو)/ ١٩٩٩م

القسم الأوّل

مكّة المكرمة

و فيه فصول:

١. العرب قبل الإسلام
٢. الرسول الأكرم محمّد ﷺ
٣. البعثة النبوية
٤. مواجهة المسلمين للكفّار

الفصل الأوّل

العرب قبل الإسلام

الأحوال الداخلية في شبه الجزيرة العربية

الأحوال السياسية في المنطقة المجاورة

التعريف بأسلاف الرسول ﷺ

١ . الأحوال في جزيرة العرب

لم تكن القبائل العربية الجاهلية المتناحرة، تعيش أيّة حضارة، ولم تكن تمتلك أيّة تعاليم وقوانين وأنظمة وآداب قبل مجيء الإسلام، فقد كانت محرومةً من جميع المقوّمات الاجتماعية التي توجب التقدّمَ والرقي، ولذا فلم يكن من المتوقع أن تصل إلى تلك الذرى الرفيعة من المجد والعظمة، ولا أن تنتقل من نمط الحياة القبلية الضيقة إلى عالم الإنسانية الواسع و أُفق الحضارة الرحيب، بمثل هذه السرعة التي وصلت إليه، والزمن القصير الذي انتقلت فيه.

ويمكننا أن نقف على وصف دقيق لحالة العرب قبل الإسلام، من خلال مصدرين إسلاميين أساسيّين، وهما:

١ . القرآن الكريم، وهو خير مرآة تعكس أحوال العرب وأوضاعهم بالدقّة والشمولية.

٢ . ما صدر عن الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة في وصف الحالة قبل الإسلام.

فقد ورد فيهما تصريحاتٌ ونصوصٌ صريحة تكشف عمّا كان عليه العرب في الجاهلية من سوء أحوال، وأوضاع، وأخلاق في جميع الأبعاد والأصعدة. وبالرغم

من أنّ العرب من ولد عدنان قد اتّصفوا بصفات حسنة، إذ كانوا يكرمون الضيف، وقلّما يخونون الأمانة، ويضحّون في سبيل المعتقد، ويتحلّون بالصراحة الكاملة، إضافة إلى براعتهم في فن الشعر والخطابة، وكونهم يضربُ بهم المثل في الشجاعة والجرأة، إلاّ أنّهم إلى جانب كلّ ذلك، كانوا يعانون من مفاسد أخلاقية تطغى على ما لديهم من كمال وفضيلة.

فالمجتمع العربي وخاصة منطقة الحجاز لم تقم فيها حضارة،أو أنّه لم يبق أي أثر من هذه الحضارات فيها إلى ما قبل بزوغ الإسلام، وقد شاعت فيه أخلاق وعادات كان أبرزها:

ـ الشرك في العبادة، حيث عبدوا الأصنام والأوثان والنجوم.

ـ إنكار المعاد، أي عودة الإنسان إلى الحياة في العالم الآخر.

ـ هيمنة الخرافات، التي كانت تكبّل عقول الناس في المجتمع، حيث تركزت فيها، فكانت سبباً قوياً في تخلّفهم، وسداً منيعاً في طريق تقدّم الدعوة الإسلامية، فيما بعد، ممّا جعل النبي ﷺ يعمل بكلّ طاقاته وجهده في محو وإزالة تلك الآثار الجاهلية، والأفكار والمعتقدات الخرافية.

ـ الفساد الأخلاقي، مثل انتشار القمار ـ الميسر ـ والخمر و الزنا واللواط والبغاء.

ـ وأد البنات، وهي العادة القبيحة التي اعتبرها القرآن الكريم جريمة نكراء لا تمر في الآخرة بدون حساب شديد.

ولذا فإنّ المرأة كانت محرومة من جميع الحقوق الاجتماعية حتى حقّ الإرث، كما عدّها المثقفون من الحيوانات تباع وتشترى، وجزء من أثاث البيت. وكان

الرجل يتزوج بـزوجة أبيه متى طلقها أو بعد وفاتـه، و ربما تناوب الأبناء على امرأة أبيهم واحد بعد واحـد، كما كان الرجل يرث امرأة من قـرابته إذا مات عنها، مثلما يرث أمتعة المنزل، إضافة إلى أنّهم كانوا يورثون البنين دون البنات.

ـ تناول الدم والميتة والخنزير، وأكل الحيوانات التي يقتلونها بقسوة.

ـ النسيء، وهـو تأخير الأشهر الحرم، كان يقـوم به سدنة الكعبـة أو رؤساء العرب، عندما كانوا يقررون استمرار الحرب و الغارات في الأشهر الحُرم.

ـ الربا، الذي شكّل العمود الفقرى في اقتصادهم.

ـ النهب والسلب، فقد كان انتهـاب ما في أيدي الناس، والإغارة والقتال، من العادات المستحكمة عندهم، حتى إنّ بعض حروبهم كانت تمتدّ إلى مائة سنة أو أكثر، حيـث كانـت الأجيال تتـوارث تلك الحروب، وقـد بلغ ولعهـم بالقتـال وسفك الدماء أن جعلوها من مفاخر الرجال.

ـ أمّا عن الجانب العلمي والثقافي، فـإنّ أهل الحجاز وُصِفوا بالأُمّيين، فلم يتجاوز عـددُ الّذين عرفـوا القراءة والكتابة في قـريش ما قبل الإسـلام عن(١٧) شخصاً في مكة ، و (١١) نفراً في المدينة المنورة.

ومن ذلك يمكــن القول أنّ تاريخ العرب قبل الإسـلام وبعده،تاريخان على طرَفي نقيض: الأوّل جـاهلي ووثني وإجـراميّ، والثـاني تـاريخ علـم ووحدانيـة وإنسانية وإيمان.

ومـن التخلّف والانحطـاط في الأوّل، يمكـن معرفـة مـدى تأثير الإسـلام وعظمة التعاليم الإسلامية في جميع المجالات والحقول المعيشية. فكيف تحقق ذلك

التطور العظيم لهؤلاء العرب الجاهليّين في الجزيرة العربية، في حين لم يستطع عربُ اليمن الذين امتلكوا الشيء الكثير من الثقافة والحضارة، وعاشوا حياة حضارية متطورة، أن يصلوا إلى هذه النهضة الشاملة، أو تقيم مثل هذه الحضارة العريضة، أو عرب الغساسنة الذين جاوروا بلاد الشام المتحضرّة، والذين عاشوا تحت ظلّ حضارة الروم، أن يصلوا إلى تلك الدرجة من الثقافة، أو عرب الحيرة الذين عاشوا تحت ظل إمبراطورية الفرس أن ينالوا مثل ذلك الرقيّ والتقدّم، في الوقت الذي تمكّن فيه عرب الحجاز من تحقيق تلك النهضة الجبارة، وورثوا الحضارة الإسلامية العظمى، في حين لم يكن لهم عهدٌ بأيّ تاريخ حضاريّ مشرق، بل كانوا يرزحون تحت أغلال الأوهام والخرافات والأساطير والعادات السيّئة.

وخيرُمن يوضّح تلك الأوضاع والأحوال، هو الإمام علي عليه السلام في الخطبة الثانية من «نهج البلاغة»:

« والناسُ في فِتَن انجذم[١] فيها حبلُ الدين، وتزعزعت سواري[٢] اليقين، واختلف النجرُ[٣]، و تشتُّت الأمرُ، وضاق المخرجُ،وعمي المصدرُ، فالهدى خامل، والعمى شامل، عصي الرحمن ونُصر الشيطان، وخُذِلَ الإيمانُ فانهارت دعائمهُ، وتنكّرت معالمُه،ودرست[٤] سبلُه،وعفت شركه[٥]، ... فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون في خير دارٍ وشرّ جيرانٍ، نومُهم سُهود، وكُحلهم دموع، بأرض عالمها مُلجَم وجاهلها مُكرَم».

١. إنقطع.
٢. الدعائم.
٣. الأصل.
٤. إنطمست.
٥. الطرق.

وفي الخطبة ٢٦ قال عليه السلام:

«إنّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شرّ دين وفي شرّ دار منيخون[١]، بين حجارة خُشن[٢]، وحيّات صُمّ[٣]، تشربون الكَدر، وتأكلون الجشِب[٤]، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبةٌ، والآثام بكم معصوبة [٥]».

و قال عليه السلام في الخطبة ٩٥:

«بعثه صلى الله عليه وآله ، والناس ضُلاّل في حيرة، وحاطبون في فتنةٍ،قد استهوتهم الأهواءُ،واستزلّتهم الكبرياءُ، واستخفّتهم[٦] الجاهلية الجهلاءُ، حَيارىٰ في زلزالٍ من الأمر، وبلاءٍ من الجَهل، فبالَغَ صلى الله عليه وآله في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحَسَنة».

وأيضاً في الخطبة١٥١: قال عليه السلام:

«أضاءت به صلى الله عليه وآله البلاد بعد الضلالة المظلمة، والجهالة الغالبة، والجفوة الجافية، والناس يستحلون الحريمَ،ويستذلون الحكيمَ، يحيون على فترة[٧]، ويموتون على كفرة».

وقد أكد تلك الأحوال والحياة، أيضاً، جعفرُبن أبي طالب، عندما خطب

١. مقيمون
٢. جمع خشناء من الخشونة.
٣. التي لا تسمع لعدم إنزجارها بالأصوات.
٤ الطعام الغليظ. ٥. مشدودة
٦. طيّشتهم.
٧. على خلوّ من الشرائع.

أمام النجاشي في الحبشة، يشرح أحوال المسلمين والمشركين، فقال:

«أيّها الملك، كُنّا قوماً أهل جاهلية نعبدُ الأصنام، ونأكلُ الميتة،ونأتي الفواحش،ونقطعُ الأرحام،ونسيء الجوار، ويأكلُ القويُّ منّا الضعيف، فكنّا على ذلك، حتّى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نَسَبَه وصدقَه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده،ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان،وأمرَنا بصدق الحديث،وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار،والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكلِ مال اليتيم، وقذف المحصَنات. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام».[1]

٢. الأحوال السياسية في المنطقة

لقد جاروت البيئة الّتي ظهر فيها الإسلام أعظم امبراطوريتين في ذلك الوقت هما: إمبراطوريةالروم والفرس، وهذا ممّا يجعلنا ندرس أحوالها لنقف على قيمة الحضارة التي قدّمها الإسلام.

فامبراطورية الروم تميّزت الأحوال فيها بالحروب الداخلية والخارجية، وخاصّة في صراعها مع دولة فارس، كما كان للمنازعات الطائفية والمذهبية نصيبها في توسيع رقعة الاختلاف فيها، كالحرب بين المسيحيين والوثنيين، حينما مارس رجال الكنيسة أشدّ أنواع الضغط والاضطهاد بحقّ الآخرين، الأمر الذي ساعد على إيجاد أقلية ناقمة، كما ساعد على ظهور حالة مهدت لتقبّل الشعب الروماني للدعوة الإسلامية فيما بعد. هذا مضافاً إلى أنّ اختلاف رجال الدين فيما بينهم،

١. السيرة النبوية ١/ ٣٣٥ والحديث عن أمّ سلمة.

وتعدّد المذاهب من جهة، عملا على التقليل مـن هيبة الإمبراطورية واتجاهها نحو الضعف و الانحـلال. وقد أدّى كلّ ذلـك إلى انقسام الإمبراطـورية الرومـانية إلى قسمين: شرقـي و غربي. وقـد استغـل اليهود ذلـك الضعـف و الانهيار الـداخلي فخطّطوا لإسقاط النظام، ممّا جرّ إلى ازديـاد جرائم المذابح الانتقامية بين الطرفين، ولم تهدأ الأحوال إلاّ بعد ظهور الإسلام وانتشاره في تلك الجهات.

أمّا إمبراطورية فارس، فقد سيطرت على معظم مناطـق العالم بالاشتراك مع إمبراطـورية الـروم، وتميّـزت الفترة بالنـزاع الـدائم بين إيران السـاسـانية والـروم للسيطرة على مناطق نفوذ جديدة، فقد بدأت الحروب بينهما منذ عهد «أنوشيروان» (٥٣١ـ٥٨٩م) حتى زمن «خسرو برويز» لمدة ٢٤ عاماً، ممّا أضعف الدولتين.

وقد اشتهـر «برويـز» بالميل نحـو الترف وحياة البـذخ، حتى بلغـت أعداد نسـائه وجواريـه الآلاف منهن، كما كـان أرغب النـاس في جمع الأموال والجواهـر والأواني.

وفي الجانب الاجتماعي، ظهر التمييز بين الطبقات، فالنبلاء والكهنة كانوا على رأسها تملكوا المناصب الاجتماعية العليـا، بينما حرم الكسبة والمزارعون وبقية أبنـاء الشعـب من كـافـة الحقـوق الاجتماعيـة، سوى دفعهـم للضرائب الثقيلـة والمشاركة في الحروب. وقد أدّى هذا الـوضع المتردّي إلى أن تمتلك أقلية صغيرة كلّ شيء وهي نسبـة (٥/ ١١٪) من مجموع الشعـب، بينما حرم أكثر مـن (٨٩٪) من حقّ الحياة تمامـاً. كما أنّ الأغنياء فقط هم الـذين تلقّوا التعليم، بينما حُـرِمَ الباقون منه، واتخذ الحكّام الساسانيون سياسة الخشـونة القاسية مع النـاس، وأخضعوهم بـالسيف والعنـف، وفرضـوا الضرائب الثقيلة، ممّـا جعل الشعـب غير راضٍ على حكمهم وسيرتهم، الأمر الذي جعل الصراع والتنـافس يدب بين الأمراء والأعيان

وقادة الجيش، فاختار كلّ فريق أميراً من أبناء العائلة المالكة، وتفرغ لتصفية الطوائف الأُخرى، ممّا أصبح كلّ ذلك أسباباً قويّة لضعف الدولة وانقسامها وانحلالها أيّام الفتح الإسلامي.

على أنّ الفساد الذي ظهر في أوساط رجال الدين الزرادشت،وتطرّق الخرافات والأساطير إلى المعتقدات الزرادشتية، تسبب في حدوث مزيد من التشتّت والاختلاف في آراء الشعب الإيراني وعقيدته، ممّا أفقده الثقة والإيمان بتلك المعتقدات.

وقد أدّى تردّي الأوضاع الاجتماعية، والصراع الطويل بين فارس والروم في خلال عشرين عاماً، إلى عقد الصلح بينهما على أساس أن يدفع الروم إلى فارس ما يعادل (٢٠ ألف دينار)، إلاّ أنّ الروم عادوا إلى الحرب والمعارك الطاحنة مرّة أُخرى لفترة سبع سنوات، تمكن فيها الملك الفارسي خسرو برويز في ٦١٤م من الاستيلاء على بلاد الشام وفلسطين وأفريقية، ونهب أورشليم، وحرق كنيسة القيامة ومزار السيد المسيح عليه السلام، وقتل ٩٠ ألف نصراني. وقد حدث ذلك في زمن بعثة الرسول ﷺ و قد حزن المسلمون على هزيمة الرّوم الّذين كانوا أصحاب كتاب، و لم يتخذ الرسول ﷺ موقفاً خاصّاً اتّجاه هذه الأحداث حتى نزل الوحي عليه مبشّراً بانتصار الروم في المستقبل القريب، وقد تحقّقت هذه البشارة في سنة ٦٢٧ م.[1]

وقد وضع الجيش الإسلامي بحملاته الناجحة، حداً لتلك الأوضاع المضطربة، ونهايةً لذلك الصراع السياسي الدامي الذي استمر خمسين عاماً، وفسح المجال لأن يختار الشعبُ الفارسي دينه ومعتقداته بحرية في منأى عن القهر والقسر.

١. راجع سورة الروم: ١ ـ ٦.

٣. التعريف بأسلاف الرسول ﷺ

كان من الواجب التحدّث عن أحوال أجداد النبي ﷺ لما كان لهم من نصيب هام في تاريخ العرب والمسلمين . ولما كان نسب النبيُ ﷺ ينتهي إلى النبي إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام فإنّه من المستحب أن نتناول أسلاف النبي ﷺ بالعرض والدراسة بدءاً منه عليه السلام .

١. النبي إبراهيم عليه السلام هو بطل التوحيد، جاهد في سبيل إرساء قواعد التوحيد، واقتلاع جذور الوثنية. ولد في بابل ـ التي تعد إحدى عجائب الدنيا السبع ـ التي حكمها «نمرود بن كنعان» الذي أمر الناس بعبادته إضافة إلى عبادة الأصنام، ولمّا ذكر له أنّ عرشه سينهار على يد رجل يولد في بيئته، أمر بعزل الرجال عن النساء، في نفس الليلة التي انعقدت فيها نطفة النبي إبراهيم عليه السلام ، وهي الليلة التي تكهَّن بها المنجمون والكهنة من أنصار نمرود، ممّا دفع جلاوزته إلى قتل كلّ وليد ذكر. وقد حملت به أُمّه ـ أُمّ إبراهيم ـ مثلما حملت أُمّ موسى عليه السلام به، فأمضت فترة حملها في خفاء وتستر، ثمّ وضعته في غار بجبل قريب من المدينة للحفاظ عليه، وقضى في هذا الغار فترة ثلاث عشرة سنة، ثمّ انخرط في المجتمع الذي استغرب وجوده فأنكروه. ورأى في مجتمعه ظواهر التعبد لغير الله، من نجوم وكواكب وأصنام وعبادة الإنسان، ممّا دعاه إلى أن يحارب في هذه الجبهات، التي أوضحها القرآن الكريم في سوره وآياته الشريفة. وقد بدأ عمَلَه بمكافحة ما كان عليه أقرباؤه، وعلى رأسهم عمه آزر، وهو عبادة الأصنام والأوثان، ثمّ اتّجه إلى جبهة أُخرى أكثر ثقافة وعلم، وهي التي عبدت الكواكب والنجوم والأجرام السماوية.

وقد أعطى النبي إبراهيم عليه السلام سلسلة من الحقائق الفلسفية والعلمية، لم

يصل إليها الفكر البشري يومذاك، في حواره العقائدي مع عبّاد الأجرام السماوية، مدعمة بأدلّة لا تزال إلى اليوم،موضع إعجاب كبار العلماء وروّاد الفلسفةوالكلام. وقد نقل القرآن الكريم في هذا المجال أدلّة النبي إبراهيم عليه السلام باهتمام خاصّ وعناية بالغة.[١] فقد اتّخذ إبراهيم عليه السلام هيئة الباحث عن الحقيقة بدون أن يصدم تلك الفرق المشركة ويجرح مشاعرها. وركّز في عمله على التوحيد في الربوبية، والتدبير و إدارة الكون، وأنّه لا مدبّر ولا مربّي للموجودات الأرضية إلاّ الله سبحانه و تعالى، فأبطل ربوبية الأجرام السماوية بقوله: ﴿**وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذي فَطَرَ السَّمواتِ وَالأَرض حَنيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكين**﴾ [٢]. أمّا بالنسبة إلى عمّه آزر الذي كان ذا مكانة اجتماعية عالية بين قومه، وصانعاً ماهراً ومنجماً، له رأيه وأفكاره في الأُمور الفلكية في بلاط نمرود، فإنّه ليس أبوه بل عمّه، وذلك أنّ علماء الشيعة قد اتّفقوا على أنّ آباء الأنبياء كانوا مؤمنين بالله موحّدين به، وأكّد الشيخ المفيد ذلك في كتابه: «أوائل المقالات»[٣] بل إنّ كثيراً من علماء السنّة قد وافقهم في ذلك أيضاً،ولعلّ مناداته بالأب، نظراً لكونه الكافل لإبراهيم عليه السلام ردحاً من الزمن، فنظر إليه بمنزلة الأب.

وأمّا بخصوص عقابه، و إلقائه في النار، وعدم تأثّره بها وخروجه سالماً منها، فإنّ السلطات الحاكمة قررت نفيه من البلاد فغادرها إلى الشام، ثمّ إلى الحجاز مع زوجته هاجر وابنه إسماعيل، حينما أسكنهما في مكّة، وظهرت بفضلهما عين زمزم، ووفدت جماعات من القبائل لتسكن في تلك البقعة، وأشهرها قبيلة «جرهم» التي

١. ترتبط آية ٧٤ من سورة الأنعام بحواره مع الوثنيّين، بينما ترتبط الآيات اللاحقة لها بعبادة الأجرام السماوية.

٢. الأنعام:٧٩.

٣. اوائل المقالات:١٢، باب القول في آباء رسول الله صلى الله عليه وآله.

تـزوّج منها إسماعيـل وصاهـرهم، ومنـذ ذلك الـوقت أصبحـت مكة مـن المدن العامرة، بعد أن كانت صحراء قاحلة وواد غير ذي زرع.

٢. **قصيّ بن كلاب**: هو الجدّ الرابع للرسول ﷺ وأُمّه فاطمة التي تزوّجت برجل من بني كـلاب ورزقت منه بولدين: زهرة وقصيّ. و قد تـوفّي أبوه فربّاه زوجُ أُمّـه ربيعــة، إلاّ أنّ خـلافـاً وقـع بين قصيّ وقــوم ربيعـة، أدى إلى طــرده مـن قبيلتهم،ولكــن أُمّه تمكنـت من إرجـاعه إلى مكـة، فعاش فيهـا متفوقـاً في أعماله ومراكـزه، فشغل المناصب الـرفيعة، مثل حكـومة مكة، وزعـامة قريش، وسـدانة الكعبة المعظمة، فأصبح رئيس تلك الديار دون منازع. ومن أهمّ أعماله:

أ: تشجيع الناس على البناء حول الكعبة.

ب: تأسيـس مجلس شورى يجتمع فيـه رؤساء القبائل في حـلّ مشكلاتهم، وهو دار الندوة.

وأمّا من الأولاد فقد ترك: عبد الدار وعبد مناف.

٣. **عبد مناف**: هوالجدّ الثالـث للنبي الأكرم ﷺ واسمه: «المغيرة»، ولقبـه قمر البطحاء. و مـع أنّه كان أصغر من أخيـه، إلاّ أنّه حظي بمكانة خـاصة عند النـاس، فقد اتخذ التقـوى شعاراً، ودعـا إلى حســن السيرة وصلة الـرحم، ولكــن الزعامة والقيادة كانت لأخيه عبـد الدار، حسب وصية أبيهما. إلاّ أنّ الوضع تبدّل بعد وفاتهما، فقد وقع الخصام والتنازع بين أبنـائهما على المناصب، فانتهى الأمر إلى اقتسامهـا بينهم، حيث تقرّر أن يتـولّى أبناء عبد الـدار سدانة الكعبة وزعـامة دار الندوة، ويتولّى أبناء عبد مناف سقاية الحجيج وضيافتهم ووفادتهم.

٤. **هاشم**: وهوالجدّ الثاني للرسول الأعظم ﷺ واسمه: عمرو و لقبه العُلاء، ولد مع عبد شمس توأماً له، وله أخوان آخران هما: المطلب ونوفل.

ومن الأُمور المميزة لأبنـاء عبد مناف، إنّهم تُوفُّوا في مناطـق مختلفة، فهاشم تُوفّي في غزّة، وعبد شمس في مكّة، ونَوفَل في العراق،والمطلب في اليمن.

كان يدعو الناس إلى الترحيب بضيوف الله وزوّاره وتكريمهم بالمال والحلال في غرّة كلّ شهر ذي الحجة:«وأسألُكُم بحـرمة هذا البيت ألاّ يُخرج رجلٌ منكم من ماله لكرامـة زوّار بيت الله وتقويتهـم إلاّ طيباً لم يؤخـذ ظلماً، ولم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ غصباً».[١]

ومن أهمّ آثاره: أنّ زعامته لمكّة كانت لمنفعة أهلها وتحسين أوضاعهم، فقد ساهم كرمُه في عدم انتشار القحـط والجدب، كما أنّه حسّن من الحالة الاقتصادية في البلاد عندما عقد معاهدة مع أمير الغسـاسنة، ممّا دفع أخاه عبد شمس إلى أن يعاهـد أمير الحبشة، وأخـويه نوفـل والمطلب أيضاً أن يعقـدا معاهـدات مع أمير اليمـن وملـك فارس، وذلـك لتجنـب الأخطـار وتـأمين الطرق و سير القـوافـل التجارية. وقد عُرِفَ عنه أنّه المؤسس لرِحلتي الشتاء والصيف إلى الشام واليمن.

إلاّ أنّ كلّ تلك الإسهامـات من جانب هاشم، كـانت دافعاً إلى أن يحسده أُميّة بـن عبد شمس ابن أخيـه، وذلك لما حظي بـه من مكانة وعظمـة وتقرّب إلى قلوب النـاس، الأمر الـذي أجبرهم على الحضـور عند كـاهن مـن كهنة العـرب، فقضى لهاشـم بالغلبـة، فأخـذ منه الإبـل وأخرج أُميـة إلى الشام نـافياً لمدّة عشرة سنين، حسب الشروط التـي تمت بينهما.وتبيّن هذه القصة جذورَ العـداء بين بني هاشـم وبني أُميّـة من نـاحية، وعـلاقات الأمـويين بالشـام وارتباطهـم بها حين اتخذوها عاصمة لدولتهم بعد ذلك من ناحية أُخرى.

ومن أشهر أولاده : شيبة، الذي عُرِفَ بـ«عبد المطلب» لأنّه تربى وترعرَعَ في

---

١. السيرة الحلبية :١/ ٦.

حجر عمّه المطلب، حيث كان العرب يسمّون من تَرعرَعَ في حجر أحد، وينشأ تحت رعايته، عبداً لذلك الشخص.

٥. **عبد المطلب**: وهو الجدّ الأوّل للنبي العظيم ﷺ ورئيس قريش وزعيمها. وأودعت يدُ المشيئة الربانية بين حنايا شخصيته نورَ النبي الأكرم ﷺ ولذا كان إنساناً طاهر السلوك، نقيّ الجيب، منزّهاً عن أيّ نوع من أنواع الانحطاط والفساد، وأحد المعدودين الذين كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

وقد اشتهر موقفه الإيماني في عام الفيل، حينما أمر جماعته بالخروج من مكة إلى الجبال والشعاب، ونزل إلى الكعبة يدعو الله ويستنصره على أبرهة وجنوده مناجياً: «اللّهمّ أنت أنيسُ المستوحشين، ولا وحشة معك، فالبيت بيتُك والحرمُ حرمُك والدار دارُك، ونحن جيرانُك، تمنع عنه ما تشاء، وربّ الدار أولى بالدار».

وفي الصباح خرجت أسرابٌ من الطيور من جهة البحر يحمل كل واحد منها ثلاثة أحجار، حجر في منقاره،وحجر في كلّ من رجليه وحلّقت فوق رؤوس الجند، ورجمتهم بالأحجار بأمر من الله محطمة رؤوسهم وممزقة لحومهم، وقد أصاب حجر منها رأس أبرهة القائد، فأمر جنوده بالتراجع والعودة إلى اليمن، إلاّ أنّهم أُهلكوا في الطريق، حتى أبرهة نفسه مات قبل وصوله صنعاء.[1]

وقد نتج من هذه العملية، أن تحطّم جيش أبرهة، وانهزم أعداء قريش، وعظم شأن المكيّين،وشأن الكعبة المشرفة في نظر العرب وغيرهم، فلم يجرأ أحد بعد ذلك على غزو مكة، أو الإغارة على قريش، أو التطاول على الكعبة. كما أنّها من جانب آخر، أحدثت في نفوس القرشيين حالات جديدة خاصة، فقد زادت من غرورهم وعنجهيتهم واعتزازهم بعنصرهم، فقرروا تحديد شؤون الآخرين

١. السيرة الحلبية: ١/ ٤٣؛ الكامل في التاريخ:١/ ٢٦٠؛ بحار الأنوار:٥/ ١٣٠.

والتقليل من وزنهم، على أساس أنّهم فقط الطبقة الممتازة من العرب. كما دفعتهم إلى التصور بأنّهم موضع عناية الأصنام (الـ ٣٦٠) إذ أنّهم فقط الذين تحبهم تلك الأصنام وتحميهم وتدافع عنهم!!

وقد دفعهم كلّ ذلك إلى التمادي في لهوهم ولعبهم، والتوسع في ممارسة الترف واللّذات، وإظهار الولع بشرب الخمر، حتى أنّهم مدّوا موائد الخمر في فناء الكعبة، وأقاموا مجالس أنسهم إلى جانب تلك الأصنام، متصورين أنّ حياتهم الجميلة هذه هي من بركة تلك الأصنام والأوثان!!

كما أنّ هذه الحالة جعلت قريش تقوم بإلغاء أيّ احترام وتقدير للغير فقالوا: إنّ جميع العرب محتاجون إلى معبدنا، فقد رأى العرب عامةً كيف اعتنى بنا آلهة الكعبة خاصةً، وكيف حَمَتنا من الأعداء.

ومن ذلك بدأت قريش تضيّق على كلّ من يدخل مكة للعمرة أو الحجّ، وتعاملهم بخشونة وأسلوب ديكتاتوري، وفرضت عليهم ألا يصطحب أحد منهم طعاماً معه من خارج الحرم ولا يأكل منه، بل عليه أن يقتني من طعام أهل الحرم ويأكل منه، وأن يلبس عند الطواف بالبيت من ثياب أهل مكّة التقليدية القومية، أو يطوف عرياناً بالكعبة إذا لم يكن في مقدوره شراؤها. و من رفض الخضوع للأمر من رؤساء القبائل وزعمائها، كان عليه أن ينزع ثيابه بعد الانتهاء من الطواف ويلقيها جانباً، دون أن يكون لأحد الحقّ في مسّها حتى صاحبها.[١]

أمّا النساء فكان عليهن إذا أردن الطواف أن يطفُن عراة، ويضعن خرقة على رؤوسهن. كما أنّه لم يكن يحق لأي يهوديّ أو مسيحيّ أن يدخل مكة، إلاّ أن يكون أجيراً لمكيّ، وعليه ألاّ يتحدث في شيء من أمر دينه وكتابه.

١. كانت تسمّى عندهم «اللقى».

بالإضافة إلى ذلـك، فإنّهم أنفوا منذ ذلك اليوم أن يأتوا بمنـاسك عرفة، كما يفعل بقية الناس، حيث تركوا الوقوف بها والإفاضة منها، بالرغم من أنّ آباءهم ـ من ولد إسماعيل ـ كانوا يقرّون أنّها من المشاعر والحج.[١]

إنّ كـلّ ذلك الانفـلات الأخـلاقي والترف والانحـراف، قـد هيّأ الأرضيـة وأعدها لظهور مصلح عالميّ.

أمّا بالنسبة لابن عبد المطلب، عبد الله، فقد سعى إلى أن يزوّجه، فاختار له: «آمنة بنت وهب بن عبد مناف» التي عُرِفت بالعفّة والطهر والنجابة والكمال. كما اختار لنفسه «دلالة» ابنة عم آمنة، فرزق منها حمزة، عمّ الرسول ﷺ الذي كان في نفس عمر النبي ﷺ[٢] و قد تـمّ حفل الزفاف في منـزل السيدة آمنة طبقـاً لما كان عليه المتعارف في قريش، ثمّ بقي «عبدالله» مع زوجتـه ردحاً من الزمن حتى سافر في تجارة إلى الشام، وتوفّي في أثناء الطريق.

ويرتبـط بموضوع أسـلاف النبي ﷺ، طهارته ﷺ من دَنَـس الآباء وعهـر الأُمّهـات، إذ لم يكـن في أجـداده وجـدّاتـه، سفاح وزنـا، وهـو مـا اتّفـق عليـه المسلمون، وصرّح به الرسول ﷺ في أحاديث رواها السنة والشيعـة. فقد جاء عنه ﷺ إنّـه قال: «نُقلـتُ مـن الأصـلاب الطاهـرة إلى الأرحـام الطـاهرة نكـاحـاً لا سِفاحاً».[٣]

وقال الإمـام علي عليه السلام: «وأشهد أنّ محمّـداً عبده ورسـوله وسيـد عباده كلّما نسخ الله الخلق فِرقتين، جعله في خيرهما، لم يسهِم فيه عاهرٌ ولا ضربَ فيه فاجر».[٤]

١. الكامل في التاريخ:١/ ٢٦٦.
٢. تاريخ الطبري:٢/ ٧ وهو يذكر أنّه «هاله».
٣. كنز الفوائد:١/ ١٦٤.
٤. نهج البلاغة، الخطبة ٢١٥، شرح محمد عبده.

كما ذكر الإمام الصادق عليه السلام ذلك مفسراً الآية: ﴿**وتقلّبك في الساجدين**﴾: «أي في أصلاب النبيّين، نبي بعـد نبي، حتى أخرجـه من صلبِ أبيه عـن نكاحٍ غير سفاح من لدن آدم».[١]

١. تفسير مجمع البيان.

الفصل الثاني

الرسول الأكرم
محمد بن عبد الله ﷺ

- مولده
- فترة طفولته
- فترة شبابه
- فترة عمله
- زواجه
- أولاده

١ . مولده ﷺ

ولد النبي ﷺ في عام الفيل (٥٧٠م) بإتّفاق كتّاب السيرة، ورحل عن الدنيا في (٦٣٢م) عن ٦٢ أو ٦٣ عاماً، كما اتّفقوا على أنّه ولد في شهر ربيع الأوّل، يوم الجمعة السابع عشر منه، عند الشيعة، أمّا السنّة فقد عيّنوا يوم الإثنين الثاني عشر من الشهر نفسه.[١]

ولمّا كان الشيعة ينقلون أخبار أهل البيت عنهم، فلابدّ من الإقرار بأنّ ما ينقله هؤلاء ويكتبونه من تفاصيل تتعلّق بحياة الرسول ﷺ هي أقرب من غيرها إلى الحقيقة، لأنّها مأخوذة عن أقربائه وأبنائه.

وقد حملت به أُمّه «السيدة آمنة بنت وهب» في أيّام التشريق من شهر رجب، فإذا اعتبرنا يوم ولادته، ١٧ من ربيع الأوّل، فتكون مدّة حملها به ثمانية أشهر وأيّاماً.

وقد وقعت يوم ولادته أحداث عجيبة، فقد وُلِد مختوناً مقطوع السرة، وهو

---

١ . إمتاع الأسماع: ص ٣، وقد ذكر جميع الأقوال التي وردت في ميلاد النبي ﷺ .

يقـول: «الله أكبر والحمـد لله كثيراً، سبحـان الله بكـرةً وأصيـلاً»[١]. كما تساقطـت الأصنام في الكعبة على وجوهها، وخرج نورٌ معـه أضاء مساحة واسعة من الجزيرة العربيـة، وانكسر إيوان كسرىٰ، وسقطـت أربعة عشر شرفـة منه، وانخمـدت نار فارس التي كانت تعبد،وجفت بحيرة ساوة.

وهدفت هذه الأحداث الخارقة والعجيبة إلى أمرين مؤثرين:

١. فهـي تـدفـع الجبـابـرة والـوثنيين إلى التفكير فيما هـم فيـه مـن أحوال،فيتسـاءلون عن الأسبـاب التي دعـت إلى كلّ ذلك لعلهـم يعقلون. إذ أنّ تلك الأحداث كانـت في الواقع تبشر بعصر جديد هو عصر انتهـاء الوثنيةوزوال مظاهر السلطة الشيطانية واندحارها.

٢. ومن جهـة أُخرى، تبرهـن على الشأن العظيم للـوليد الجديـد، على أنّه ليس عاديـاً، بل هو كغيره من الأنبيـاء العظام الذين رافقـت ولادتُهم أمثالَ تلك الحوادث العجيبة والوقائع الغريبة.

وفي اليوم السابع لمولده المبـارك، عقّ عبد المطلب عنه ﷺ بكبش شكراً لله تعالى، واحتفل به مع عامة قريش.

وقال عن تسميته النبي الكريم ﷺ محمّداً ﷺ وعن سببه: أردت أن يُحمَد في السماء والأرض[٢]. وكانت أُمّه عليها السلام قد سمّته أحمد قبـل أن يسمّيه جدّه[٣]. وكان هذا الاسم نادراً بين العـرب فلم يسم به منهم سـوى ١٦ شخصاً، ولذا فإنّـه كان من إحدى العلامات الخاصّة به.

١. تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٥؛ بحار الأنوار:١٥/ ٢٤٨؛ السيرة الحلبية:١/ ٦٧.

٢.السيرة الحلبية: ١/ ٧٨.

٣. السيرة الحلبية:١/ ٨٢.

أمّا عن رضاعته ﷺ فقد ارتضع من أُمّه ثلاثة أيّام ثمّ أرضعته امرأتان هما:

ـ ثويبة: مولاة أبي لهب، إذ أرضعته لمدّة أربعة أشهر فقط، وقد قدّر النبي ﷺ وزوجته خديجة عليها السلام هذا العمل لها حتى آخر حياتها، فأكرّمها وأراد أن يعتقها فأبى أبو لهب، وكان يبعث إليها بالصلة حتّى وفاتها.

كما أنّها أرضعت من قبل حمزة، وأبا سلمة بن عبد الله المخزومي، فكانوا إخوة في الرضاعة.

ـ حليمة السعدية، بنت أبي ذؤيب. وكان لها من الأولاد: عبد الله ، أنيسة، شيماء. وقامت «شيماء» بحضانة النبي ﷺ أيضاً.

وقد استلمت حليمة السعديةُ النبيّ ﷺ في عمر لم يتجاوز أربعة أشهر، في عام قحط وجدب، فأصابها الرخاء وازدهرت حياتها بعد ذلك. ومن المعروف أنّ النبي ﷺ لم يقبل في ذلك الزمان أي ثدي من المرضعات إلاّ ثدي حليمة.[1]

وفي هذه المناسبة، أودُّ القول والتذكير، أنّه ينبغي أن يحتفل المسلمون جميعاً بمولد النبي ﷺ بإقامة المهرجانات الكبرى والاحتفالات، تكريماً له ﷺ، فهو أمر مطلوب ومحبّب في الشريعة المقدسة لقوله تعالى: ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[2] . وعزّر بمعنى كرّم وبجّل.

فالاحتفال بمولده ﷺ يعني ذكر أخلاقه العظيمة، وسجاياه النبيلة، والإشادة بشرفه وفضله، وهي أُمور مدحه بها القرآن الكريم: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيم**﴾[3] ﴿**وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾[4].

---

١. البحار:١٥/ ٣٤٢.
٢. الأعراف:١٥٧.
٣. القلم:٤.
٤. الإنشراح:٤.

فالاحتفال بمولـده الكريم هو احتفالٌ بالقيم السـامية، وشكرٌ لله على منّه، و إظهار للحبّ الكـامن في النفوس له،وتكريـم لمن كرمه الله تعالى وأمـر بتكريمه واحترامه وحبّه ومودّته.وهو ردّ على من يزعـم بأنّ ذلك محرم لكونه بدعة، لا يخلو من منكرات ومحرمات كالرقص والغنـاء. فالمسلمون درِجوا في العصور الإسلامية الأُولى على الاحتفال بذكـرى مولده ﷺ بإنشاد القصائد الرائعـة في مدحه، وذكر خصاله ومكـارم أخلاقه و إظهار السرور والفرح،والشكر لله تعـالى بلطفه وتفضّله به ﷺ على البشرية.[١]

ولذا كـان لابدّ من أداء هـذا الاحتفال في كلّ وقـت وزمان،في حياتـه وبعد مماته ﷺ

٢. فترة طفولته ﷺ

استقر النبي ﷺ في قبيلة«بنـي سعد» خمسة أعـوام زارته أُمّه خـلالها ثلاث مرّات، وقامت حليمة برعاية شؤونـه خير قيام،وبالغت في كفالته والعناية به، كما حافظ فيها ﷺ على فصاحته و بـلاغته، وعندما رجـع إلى أُمّه عليها السلام فكّرت بـزيارة المدينة وقبر زوجهـا عبدالله، ورافقتهم «أُمّ أيمـن» حيث أمضوا هنـاك شهراً، رأى فيه النبيّ ﷺ بيت أبيـه الذي توفّي فيـه ودفن. إلاّ أنّ أُمّه العـزيزة توفّيـت أيضاً في الطريق إلى مكة بمنطقة الأبواء[٢] ممّا دفع الجميـع إلى إظهار المحبة له والعنـاية به، خاصةً جدّه «عبد المطلب» الذي أحبه أكثر من أولاده.

---

٤. للتوسع في هذا الموضوع، يرجع إلى: معالم التوحيد في القرآن الكريم.

٢. السيرة الحلبية: ١/ ١٠٥.

وربما كان يُتم النبي ﷺ في صالحه، فقد أراد الله تعالى منه أن يهيّئه لمواجهة المستقبل بشدائده و مصاعبه ومتاعبه،أو أراد ألا يكون في عنقه طاعة لأحد، فنشأ حراً من كلّ قيد، يصنع نفسه بنفسه، وليتضح أنّ نبوغه ليس نبوغاً بشرياً عادياً ومألوفاً، وأنّه لم يكن لوالديه أيّ دخل فيه وفي مصيره، فتكون بالتالي عظمته الباهرة نابعة من مصدر الوحي وليس من العوامل العادية المتعارفة.

وقد فاجأت الحياةُ نفس النبي ﷺ الحزينة بوفاة جدّه العظيم «عبد المطلب» وهو في الثامنة من عمره، فبكى عليه ﷺ كثيراً وظلّت دموعه تجري حتى وُري في لحده.[1]

كفالة أبي طالب

كان أبو طالب أخاً لوالد النبي ﷺ من أُمّ واحدة، وقد تقبّل كفالة النبي ﷺ وتحمّل المسؤولية بفخر واعتزاز.

وفي العاشرة من عمره، شارك النبيّ ﷺ عمّه في إحدى الحروب التي وقعت في الأشهر الحرم فسمّيت بحرب الفجار، إلاّ أنّ «اليعقوبي» ينفي في تاريخه اشتراك النبي ﷺ وأبي طالب فيها.[2]

ورافق عمّه في سفره إلى الشام وهو في ربيعه الثاني عشر، شاهد فيها «مدين، ووادي القرى، وديار ثمود»، واطّلع على مشاهد الشام وطبيعتها الجميلة. إلاّ أنّ

---

١. تاريخ اليعقوبي :٢/ ١٠ حول سيرة عبد المطلب، أنّه كان موحداً لا وثنياً، وإنّ الإسلام قد أخذ الكثير من سننه.

٢. تاريخ اليعقوبي:٢/ ١٥.

أحداث «بصرى» غيّرت برنامج رحلة أبي طالب، ودفعته إلى العودة إلى مكّة، وهي الأحداث المرتبطة بمقابلة الراهب «بحيرا» بالنبي ﷺ وما تنبّأ عنه بقوله: «إنّه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا، هذا سيّد العالمين، هذا رسول ربّ العالمين يبعثه رحمةً للعالمين. احذر عليه اليهود لئن رأوه وعرفوا ما أعرف ليقصدُنّ قتله».[1]

أمّا ما قيل عن تلك المقابلة من آراء متطرفة، وبأنّ الراهب بحيرا علّم النبي ﷺ أُمور دينه التي درسها من كتب الإنجيل والتوراة، فهو فرية المستشرقين والكارهين للإسلام، إذ أنّ النبي ﷺ لم يمكث هناك أكثر من أربعة أشهر هي فترة رحلة الشام عند العرب، ثمّ إذا كان هذا الراهب يمتلك هذه الكمية من المعلومات الدينية والعلمية التي عرضها الرسول ﷺ فلماذا لم يقم هو بنشرها، فيأخذ شهرته منها؟ ثمّ لماذا اختار محمّداً ﷺ دون غيره ليعرض عليه تلك المعلومات بالرغم من توافد القبائل عليه دوماً؟

إنّ الآيات القرآنية تصرح بأنّ الأخبار الغيبية وصلت إلى النبي ﷺ عن طريق الوحي فقط، فلم يكن على عِلمٍ بها مطلقاً. كما أنّ كُتب التوراة والإنجيل لا تذكر أُموراً طيّبة عن الأنبياء، في حين أنّ القرآن الكريم يجلّهم ويعظمهم ويكرمهم، على عكس ما جاء عنهم في كتب هؤلاء.

ولذا لم يعقل أن يقتبس القرآن الكريم من تلك الكتب وبينهما بُعد المشرقين. كما أنّ النبي ﷺ لم يشرح تلك القصص والقضايا للناس قبل الوحي والرسالة: ﴿**قُلْ لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلوتُهُ عَلَيْكُمْ ولاٰ أَدراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ**

١. تاريخ الطبري: ٢/ ٣٢؛ السيرة الحلبية: ١/ ١٨٠.

قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.[١]

فالآية تؤكد على أنّ النبيّ ﷺ لبث في قومه فترة طويلة لم يتلو فيها سورة من القرآن ولا آية من آياته، فكلّ ما أخبر به هو ممّا أوحى به الله تعالى إليه بعد أن بعثه بالرسالة.[٢]

٣. فترة شبابه

كانت آثار الشجاعة والقوة باديةً على جبينه ﷺ منذ طفولته وصباه، ففي الخامسة عشرة من عمره قيل انّه شارك في حرب الفجّار بين قريش و هوازن، وهي حرب الفجّار الرابعة التي استمرّت أربع سنوات، كان يناول فيها أعمامه النبال. وتكشف مشاركته في تلك العمليات العسكرية وهو في تلك السن، عن شجاعته وقدرته الروحية الكبرى، ولهذا كان المسلمون ــ فيما بعد ـ يحتمون بالنبي ﷺ عند اشتداد المعركة.

وفي مقابل هذا روى المؤرخ اليعقوبي (المتوفّى ٢٩٠هـ) في تاريخه:

وقد روي أنّ أبا طالب منع أن يكون فيها أحدٌ من بني هاشم. وقال هذا ظلم وعدوان وقطيعة واستحلال للشهر الحرام ولا أحضره ولا أحدٌ من أهلي. فأخرج الزبير بن عبد المطلب متكرهاً وقال عبد الله بن جدعان التيمي وحرب ابن أُميّة: لا نحضر أمراً تغيب عنه بنوهاشم فخرج الزبير.[٣]

---

١. يونس:١٦.

٢. للتوسع في الموضوع، راجع مفاهيم القرآن للشيخ جعفر السبحاني:٣/ ٣٢١.

٣. تاريخ اليعقوبي:٢/ ١٢، طبع النجف.

كما أنّ النبي ﷺ كان أحد المشاركين في حلف الفضـول، الذي اعتبر ميثاقاً بين الجرهميين يهدف إلى الدفاع عن حقوق الضعفاء والمظلومين. وقد أسّسه جماعة اشتُقّت أسماؤهم جميعـاً من لفظة «الفضل»، مثـل: فضل بن فضالـة، وفضل بن الحارث، وفضـل بن وداعـة. وقد نُقلـت عبـارات كثيرة عن النبـي ﷺ أشاد فيها بالحِلف،واعتـز بمشاركته فيه: «لقد شهـدتُ في دار عبد الله بن جدعـان حِلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت».

كما أشاد به الإمام الحسين ﷺ أيضاً، فضرب به المثـل في أخذ الحقّ وردّه لصاحبه، مثلما طلب هو حقّه من «الوليد بن عتبة» أمير المدينة.

٤ . فترة عمله

أمضى الـرسول ﷺ شطـراً مـن حيـاتـه قبـل البعثـة، في رعـي الغنـم في الصحارى، لعلّه ليصبـح بذلك صبوراً في تـربية الناس الذيـن سيُكلف بقيادتهم وهدايتهم، ويستسهل كلّ صعب في هـذا المجال. إذ كان لابدّ أن يتسلّح بسلاح الصبر، ويتجهّز بأداة التحمّل، ويتزوّد بقدرة الاستقـامة على طريق الهدف، وذلك حتى يمكنه إدارة البشر في المستقبـل. إذ أنّ ذلك لا يكون إلاّ بتعويـد النفس على هـذه الصفات وحملهـا على مشـاق الإعمال. كما أنّ عملـه في الصحراء والجبـال، ساعـده في التخلّص بعض الشيء مـن آلامه الروحية النـاشئة من رؤيـة الأوضاع المزرية والأحوال المشينة التـي كان عليها أهل مكة وما كانوا فيـه من عادات سيئة وظلم وانحراف وطغيان. كما أنّ عمله في تلك البقـاع، أعطاه فرصة طيبةللنظر في خلق السمـوات والتطلع في النجـوم والكواكـب وأحـوالها، ثمّ الإمعـان في الآيات

الدالة على وجود الله سبحانه و تعالى، وقدرته و حكمته وعلمه و إرادته.

فبالرغم من أنّ قلوب الأنبياء تكون منورة بمصابيح المعرفة، ومضاءة بأنوار الإيمان والتوحيد، إلاّ أنّهم لا يرون أنفسهم في غنى عن النظر في عالم الخلق والتفكّر في الآيات الإلهية، إذ أنّه من خلال هذا الطريق يصلون إلى أعلى مراتب الإيمان،ويبلغون أسمى درجات اليقين،وبالتالي يتمكّنون من الوقوف على ملكوت السماوات والأرضين.

وبعد هذا العمل الصحراويّ الجبلي، تعاطى ﷺ العمل التجاري، باقتراح من عمّه أبي طالب، الذي أرشده بالتوجه للعمل في تجارة السيدة «خديجة بنت خويلد» التي كانت تعمل بالتجارة الواسعة، فأصبحت غنيةً ذات مال كثير وذات شرف عظيم، استخدمت الرجال في إدارة أعمالها الكثيرة. فقال أبو طالب للنبي ﷺ: «يابن أخي، هذه خديجة بنت خويلد قد انتفع بمالها أكثر الناس، وهي تبحث عن رجل أمين،فلو جئتها فعرضتَ نفسك عليها لأسرعتْ إليك،وفضّلتك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك».

إلاّ أنّ إباء الرسول ﷺ وعلوّ طبعه منعاه من الإقدام بنفسه على ذلك فردَّ عليه :«فلعلّها أن ترسل إليّ في ذلك» لأنّها تعرف أنّه المعروف بالأمين بين الناس. وقد حدث ماأراده النبي ﷺ فقد بعثت إليه قائلةً:«إنّي دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك،وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك، وأبعث معك غلامين يأتمران بأمرك في السفر».[1]

ولمّا علم عمّه أبو طالب بذلك قال له: «إنّ هذا رزق ساقه الله إليك».

---

١. البحار:١٦/ ٢٢؛السيرة الحلبية: ١/ ١٣٢؛ الكامل في التاريخ:٢/ ٢٤.

وهكذا تمّ الاتفـاق على أن يقوم النبي ﷺ بالعمـل في أموالها وتجارتها على نحو المضاربة لا الإجارة، فقـد ذكر «اليعقوبي»: إنّ النبي ﷺ ما كان أجيراً لأحد قط.[١]

ولذا فإنّ النبي ﷺ حصل على أرباح وفيرَة من أوّل تجارته إلى الشام. ولما مرّ في الطريق على ديار عاد وثمود، تذكر سفره الأوّل مع عمّه إلى تلك المناطق. وعند وصولهم إلى مكّة، قـال «ميسرة» غلام السيدة خديجة: يا محمّد لقـد ربحنا في هذه السفرة ببركتـك ما لم نـربح في أربعين سنـة، فاستقبـلْ بخديجة وأبشرهـا بربحنـا. فأسرع النبي ﷺ وسبق القافلـة متوجهاً نحو بيت خديجة، التـي استقبلته بحفاوة كبيرة، وسرّت بحـديثه وأخبـاره عن رحلتـه ومكـاسبه التجـارية. ثـمّ إنّ «ميسرة» أخبرها بكـلّ ما حدث وحصل لهم في السفـر، منذ خروجهم ودخـولهم إلى البلاد، وخاصةً ما جرى، بين النبي ﷺ وأحد التجّار الـذي جادله في البيع طـالباً منه أن يحلف باللات والعزّى، فرد عليه ﷺ: ماحلفت بهما قط، وإنّي لأمرُّ فأعرض عنهما. كما أخبرها عـن النبي ﷺ حينما استراح في ظـلّ شجرة عنـدمـا كانـوا في بصرى، فشاهده راهب فقـال: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلاّ نبـي. ولما سأل عن اسمه من ميسرة فقال: هو نبيّ وهو آخر الأنبياء، إنّـه هو هو ومنزِّلُ الإنجيل، وقد قرأتُ عنهُ بشائر كثيرة.[٢]

وقد سلّم النبي ﷺ كلّ مـا ربحه واستلمـه من مـال إلى عمّه أبي طـالـب، ليوسّع به على أهله، ممّا جعله فرِحاً مسروراً بما قام به ابن أخيه تجاهه.

---

١. تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢١.

٢. البحار: ١٦/ ١٨؛ طبقات ابن سعد: ١/ ١٣٠.

٥. زواجه ﷺ

في هذا الوقت، فكّر ﷺ جدياً في أن يتّخذ شريكة لحياته ويكوّن أُسرة، فكيف وقع اختياره على السيدة خديجة التي رفضت كلّ مَن تقدّم إليها من كبار الشخصيات القرشية، أمثال: عقبة بن أبي معيط، وأبي جهل، وأبي سفيان؟ وكيف أدّى الارتباط بينهما والعلاقة العميقة و الأُلفة والمحبة، إلى درجة أنّها وهبت كلّ ثروتها للنبي ﷺ حتى ينفقها في نشر الإسلام؟

كانت السيدة خديجة من خيرة نساء قريش شرفاً وأقواهن عقلاً وأكثرهن فهماً، وقد قيل لها: سيدة قريش، وسمّيت الطاهرة لشدة عفافها، وذلك في أيّام الجاهلية.

وحين رفضت الزواج من سادة القوم قَبِلت بسيد البشر لما عرفت عنه من كرم الأخلاق، وشرف النفس، والسجايا الكريمة، والصفات العالية. وهي المرأة الثرية التي و إن عاشت في الترف وأفضل العيش، إلاّ أنّها أصبحت في بيت زوجها الرسول ﷺ الزوجة المطيعة الخاضعة الوفية المخلصة، و سارعت إلى قبول دعوته واعتناق دينه بوعي وبصيرةٍ، مع علمها بما ينطوي ذلك على مخاطر ومتاعب. ثمّ جعلت كلّ ثروتها ومالها في خدمة العقيدة والمبدأ، مشاطرة زوجها بذلك آلامَه ومتاعبَه ، وراضية بمرارة الحصار في شعب أبي طالب ثلاث سنوات، وهي في سن الرابعة والستين.[١]

وقد بلغ من خضوعها للرسول ﷺ وحبها له، أنّها بعد أن تم الزواج بينهما قالت له: إلى بيتك، فبيتي بيتك وأنا جاريتك.[٢]

---

١. شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٥٩.

٢. بحارالأنوار: ١٦/ ٤.

ويؤكد المؤرّخون أنّها هي التي اقترحت على النبي ﷺ الزواج، وكما يعتقد أكثر المؤرّخين، أنّ «نفيسة بنت عليّة» بلّغت رسالتها إلى النبي ﷺ الذي تقبّل عرضها، فأخبرت السيدة خديجة بذلك، فأرسلت بوكيلها «عمرو بن أسد» لتحديد ساعة مراسم الخطبة في محضر الأقارب.[1]

فشاور النبي ﷺ أعمامه وعلى رأسهم «أبو طالب» الذي خطب في القوم يمدح النبي ﷺ ويطلب الزواج له من السيدة خديجة قائلاً: «وله في خديجة رغبة ولها فيه رغبة، والصداق ما سألتم عاجله وآجله من مالي، ومحمّد من قد عرفتم قرابتَه».

ثمّ أجرى عقد النكاح، ومهرها النبي ﷺ ٤٠٠ دينار، وقيل أصدقها عشرين بكرة.[2]

وكان عمرها في هذا الوقت أربعين عاماً، إذ أنّها وُلدت قبل عام الفيل بخمسة عشر عاماً، كما جاء عنها أنّها تزوجت قبل النبي ﷺ برجلين، أوّلهما: «عتيق ابن عائذ»، ثمّ بعده: «أبو هالة التميمي». وقد توفي كلٌّ منهما بعد زواجه منها.[3]

وقد تميّزت السيدة خديجة من نساء النبي ﷺ بأنّه لم يتزوّج عليها مدّة حياتها، وبلغت لديه مالم تبلغه امرأة قطّ من زوجاته.[4] وممّا يدل على سموّ مقامها وعلوّ منزلتها، أنّ أهل البيت عليهم السلام طالماً افتخروا بأنّ خديجة منهم، وإنّهم من خديجة، فكانوا يعتزون بها ويشيدون بمكانتها. فالسيدة خديجة عليها السلام هي مثال الشرف والعقل، والحبّ العميق للرسول ﷺ والوفاء والإخلاص، والتضحية بالغالي

١. تاريخ الخميس: ١/ ٢٦٤.

٢. السيرة الحلبية: ١/ ١٣٩.

٣. الاستغاثة: ١/ ٧٠.

٤. السيرة الحلبيّة: ١/ ١٦٩.

والنفيس في سبيل الإسلام الحنيف، فهي أوّل من آمنت بالله ورسوله،وصدقت محمّداً ﷺ وآزرته، فكان ﷺ لا يسمع من المشركين شيئاً يكرهه، من إيذاء وتكذيب، إلاّ وفرّج الله عنه بخديجة التي خفّفت عنه، بلطفها وعطفها وعنايتها به في غاية الإخلاص والود.[١]

لقد اكتسبت السيدة خديجة بفضل إيمانها العميق بالرسالة المحمّدية، وتفانيها في سبيل الإسلام، وحرصها العجيب على حياة صاحب الرسالة، مكانةً ساميةً في الإسلام، حتى أنّ النبي ﷺ ذَكَرَها في أحاديثه الكثيرة، وأشاد بفضلها ومكانتها وشرفها، وذلك لإلفات نظر المرأة المسلمة إلى القدوة التي ينبغي أن تقتدي بها في حياتها وسلوكها في جميع المجالات والحالات، بالإضافة إلى ما يمكن أن تقدمه المرأة ــ و هي نصف المجتمع ـ من دعم جدّيّ للرسالة، مادياً كان أم معنوياً.

ومن أشهر الأحاديث التي نُقلت عن النبي ﷺ أنّه قال عنها:«أتاني جبرائيل عليه السلام فقال يا رسول الله، إذا أتتك خديجة فاقرأ عليها السلام من ربها ومنّي، وبشّرها ببيت في الجنّة من قصب لا صخب فيه ولا نصب».[٢]

وقال عنها ﷺ: «لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنَت بي إذ كفر الناس، وصدّقتني إذ كذبني الناس، وواسَتْني في مالها إذ حَرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرَمَني أولاد النساء».[٣]

كما روى أنس بن مالك، أنّ النبي ﷺ إذا أتى بهدية قال:« اذهبوا بها إلى

١. أعلام النساء:١/ ٣٢٨.

٢. صحيح مسلم:٧/ ١٣٣؛ مستدرك الحاكم:٣/ ١٨٤.

٣. أُسد الغابة:٥/ ٤٣٨؛ صحيح مسلم:٧/ ١٣٤؛ صحيح البخاري: ٥/ ٣٩.

بيت فلانة فإنّها كانت صديقة لخديجة، إنّها كانت تحبّ خديجة».[1]

كما قال عنها الإمام علي عليه السلام: «كنتُ أوّل من أسلم، فمكثنا بذلك ثلاث حِجَج وما على الأرض خلق يصلّي ويشهد لرسول الله صلى الله عليه وآله بما أتاه، غيري، وغير ابنة خويلد رحمها الله، وقد فَعَلَ».[2]

وقد تحدّث عنها أيضاً الكثير من الشخصيات الإسلامية المتقدمة والمتأخرة، فقد ذكر عنها «محمد بن إسحاق»: «إنّ خديجة بنت خويلد وأبا طالب، ماتا في عام واحد، فتتابع على رسول الله صلى الله عليه وآله هلاك خديجة وأبي طالب، وكانت خديجة وزيرة صدق على الإسلام، وكان رسول الله يسكُن إليها».[3]

ولكلّ ذلك، فإنّ وفاتها كانت من أعظم المصائب التي أحزنت الرسول صلى الله عليه وآله ممّا دفعه أن يسمّي العام الذي توفّي فيه ناصراه وحامياه ورفيقا آلامه ـ: زوجته خديجة، وعمّه المؤمن الصامد أبو طالب ـ بعام الحداد أو عام الحزن . فينزل عند دفنها في حفرتها، ويُدخلُها القبر بيده في الحجون، فيلزم بيته و يقل الخروج.[4]

٦ . أولاد الرسول صلى الله عليه وآله

لقد أنجبت خديجة لرسول الله صلى الله عليه وآله ستة من الأولاد، اثنين من الذكور، أكبرهما القاسم وعبدالله، وأربعة من الإناث. وذكر ابن هاشم، انّ أكبر بناته: رقية ثمّ زينب ثمّ أُم كلثوم ، ثمّ فاطمة، وكلّهن أدركنَ الإسلام، أمّا الذكور فقد ماتوا

١ . سفينة البحار: ١/ ٣٨٠.

٢ . شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٥٩ .

٣ . بحار الأنوار: ١٦/ ١٠ .

٤ . تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٥؛ تاريخ الخميس: ١/ ٣٠١؛ السيرة الحلبية: ١/ ٣٤٦.

قبل البعثة.

تبنّي النبي ﷺ لزيد بن حارثة

كان ممّن سباه العرب من حدود الشام وباعوه في أسواق مكة رقيقاً لأحد أقرباء السيدة خديجة ويدعى حكيم بن حزام. وقد أحبه النبي ﷺ لذكائه وطهره،فوهبته خديجة له، حينما تزوّجت به ﷺ إلاّ أنّ أباه حارثة الذي كان يبحث عنه لقيه عند النبي ﷺ فطلبه منه، الأمر الذي جعل النبي ﷺ يخيّره بين المقام معه ﷺ والرحيل إلى وطنه، فاختار المقام مع الرسول ﷺ الذي أخرجه إلى الحجر الأسود وأعتقه ثمّ تبناه أمام الملأ قائلاً: «يامن حضر اشهدوا أنّ زيداً ابني».[1]

١ . الإصابة في تمييز الصحابة:١/ ٥٤٥؛ الكامل في التاريخ:٢/ ٢٢٥ .

الفصل الثالث

البعثة النبوية

- الحالة الدينية في الجزيرة العربية عند البعثة النبوية
- إيمان النبي ﷺ وآباؤه وكفلاؤه قبل الإسلام
- الوحي
- المؤمنون بالنبي ﷺ والدين الإسلامي
- دعوة الأقربين
- الدعوة العامة
- الأساليب الفاشلة أمام نجاح الدعوة الجديدة

١ .الحالة الدينية في الجزيرة العربية

إلى جانب عبادة الأصنام والأوثان، ظهرت جماعة من العرب، أنكروا عقائدها الباطلة، واستاءوا من دينها، كما كان اليهود يتوعّدون أهل الأصنام بالنبي قائلين: ليخرجن نبي فليكسّرن أصنامكم. وجاء أيضاً أنّ الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهّان من العرب، قد تحدّثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه. وظهر كذلك من انتقد عبادتهم من فئة العقلاء وأصحاب الفكر الثاقب، فكان ذلك بمثابة جرس إنذار باقتراب سقوط دولة الوثنيّين وانقراضها واشتهر من هؤلاء بين العرب أربعة:

١ . ورقةبن نوفل، الذي اختار النصرانية.

٢ .عبيد الله بن جحش، الذي أسلم عند ظهور الإسلام.

٣ .عثمان بن الحويرث، الذي تنصّر عند ملك الروم.

٤ .زيد بن عمرو بن نفيل، الذي قال: أعبد رب إبراهيم.[١]

---

١ . السيرة النبوية:١/ ٢٢٥.

٢. مكانةالنبي ﷺ عند قريش

حينما كان ﷺ في عمر ٣٥ عاماً واجه اختلافاً كبيراً بين قريش، تمكن بحكمته من إزالة ذلك التخاصم، ممّا كشف عن مدى الاحترام الذي حظا به عند قريش. فعندما هُدمت الكعبة بسبب سيل عظيم، قام القوم بإعادة بنائها، إلاّ أنّهم اختلفوا في وضع الحجر الأسود في مكانه، فتنازع زعماء قريش فيمن يتولى وضعه، ممّا أخّر عملية البناء مدة خمسة أيّام، وكادت أن تنشب فيما بينهم بسببه حرب دامية، وربما طويلة، حتى قام فيهم شيخ منهم وقال: يامعشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوّل من يدخُل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه. فقَبِلُوا رأيه فكان أوّلَ داخل عليهم محمّد رسول الله ﷺ فقالوا: هذا محمّد الأمين، رضينا، هذا محمّد. فقال ﷺ: هلمَّ إليَّ ثوباً فأخذ الحجر ووضعه فيه و قال: لتأخذ كلّ قبيلة بناحية من الثوب ثمّ ارفعوه جميعاً. ثمّ وضعه ﷺ بيده في مكانه.[1]

٣. إيمان النبي ﷺ و آبائه وكفلائه قبل الإسلام

تدلّ الدلائل التاريخية والعقلية والمنطقية، على أنّ النبي الأكرم ﷺ لم يعبد غيرَ الله منذُ ولد حتى رحل إلى ربّه، وكذلك ما كان عليه آباؤه وكفلاؤه.

نجدّه عبدُ المطلب، طلب من الله وهو في الكعبة أن يرد هجوم أبرهة ويهزم جيشه، فقد كان الموحّد الذي لا يلتجئ في المصائب والمكاره إلى غير كهف الله. كما أنّه كان يستسقي بالتوسّل إلى الله تعالى. وقد اعترف المؤرّخون بذلك، فقد ذكر

١. السيرة النبوية: ١/ ١٩٢؛ فروع الكافي: ٤/ ٢١٧.

اليعقوبي: «ورفض عبد المطلب عبادة الأوثان والأصنام، ووحّد الله عزّ وجلّ، ووفى بالنذر، وسنّ سنناً نزل القرآن بأكثرها، وجاءت السنّة الشريفة من رسول الله ﷺ بها،وهي الوفاء بالنذر، ومائة من الإبل في الدية، وألا تنكح ذاتُ محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها، وقطع يد السارق،والنهي عن قتل المؤودة، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا والحدّ عليه، والقرعة، وألاّ يطوف أحد بالبيت عرياناً،وتكريم الضيف،وألا ينفقوا إذا حجّوا إلاّ من طيب أموالهم،وتعظيم الأشهر الحرم، ونفي ذات الرايات».[1]

كل ذلك يؤكد تماماً توحيده و إيمانه بالله واعترافه برسالة النبي ﷺ.

وكذلك كان عمّه أبو طالب، فله مواقف كثيرة بارزة قبل البعثة، تكشف عن عمق إيمانه وتوحيده، فقد اعتبر حامي الدين والمدافع عن المسلمين، آمن بالنبي ﷺ واعتبره في قمة الكمال الإنساني، بالإضافة إلى أنّه أحلّه من قلبه محلَ الابن والأخ، فكان يصحبه معه إلى المصلّى، ويستسقي به، حيث كانت دعوته تُستجاب دون تأخير، كما اصطحبه معه في سفره إلى الشام، كما أنّ دفاعه عن النبي ﷺ لم يكن مادياً، فلم يقصد من وراء ذلك كسباً مادياً من مال وثروة، كما لم يهدف للحصول على جاه ومقام وإحراز مكانة اجتماعية مرموقة، لأنّه كان يمتلك في المجتمع أعلى المناصب، فقد كان رئيساً لمكّة المكرّمة، بل إنّه فقد منصبه ومكانته بسبب موقفه الموالي للنبي ﷺ وعدم الاستجابة لقومه في تسليمه ﷺ لهم، ممّا استوجب سخط الزعماء عليه واستياءهم منه، وإظهار العداء له ولبني هاشم عامة.

١. تاريخ اليعقوبي:٢/ ٩.

فالقول بـأنّ تضحية أبي طالب في سبيـل النبي ﷺ بالنفس والنفيس كان بدافـع علاقـة القربى والعصبيـة القبلية، تصـوّر باطل، إذ أنّ ذلـك كان بـدافع اعتقاده الراسخ برسول الله ﷺ الذي اعتبره مظهراً كاملاً للفضيلة والإنسانية، وأنّ دينه أفضل بـرنامج للسعادة. ولما كان يحب الحقيقة والكمال والحقّ، فقـد كان من الطبيعي أن يدافع عن تلك الفضائل وينصرها بكلّ جهوده وقواه.[1]

كما أنّ هناك مواقف محددة تؤكد المعنى السابق:

فقد أصدر تهديداً بمحاربة رجال قريش بالسلاح، إذا أقدموا على أي سوء نحو النبي ﷺ فقد حافظ على حياته ﷺ لفترة ٤٢ عاماً، ودافع عنـه، وخاصةً في سنوات البعثة العشرة، فهو قد تولى مهمة كفالته والدفاع عنه والمحافظة على حياته بصدق وإخلاص، بـالنفس والمال، وإيثاره على نفسه وأولاده والإنفـاق عليه من ماله، منذ صِغَره ﷺ وحتى الخمسين مـن عمره. ولـذا كان لفقـده أكبرُ الأثر على سير الدعوة الإسلامية.

وهو ما دفع ابن أبي الحديد المعتزلي أن ينشد بيتين يوضح تضحيته هو وابنه علي عليه السلام:

و لـولا أبـو طـالب وابنـُه ... لما مثلُ الدّين شخصاً وقاما

فـذاك بمكـة آوىٰ وحامـىٰ ... وهذا بيثرب جسّ الحِمامـا[2]

ويمكن التعرّف على إيمانه و إخلاصه عن طـريق أشعاره وخدماته القيّمة

---

١. وقد أشـار إلى كلّ ذلـك في قصائده وأشعاره. ونقـل ابن هشـام في سيرته:١/ ٣٥٢ ، ١٥ بيتـاً من قصيدته.

٢. شرح نهج البلاغة:١٤/ ٨٤.

في السنوات العشر الأخيرة من عمره، فمن قصائده المطولة نختار البيتين التاليين:

ليعلم خيارُ النـاس أنّ محمـّداً   نبيٌّ كموسى والمسيحِ بن مريم
أتـى بهـدى مثلمـا أتيـا بـه   فكلّ بأمر الله يهدي و يعصم[١]

لقد كـان إيمانه قوياً لـدرجة أنّه رضى بـأن يتعرض كل أبنائه لخطـر القتل والاغتيال ليبقى محمد ﷺ دون أن يمسّه أعداؤه بأيّ سوء. كما أنّه أوصى أولاده عند وفاتـه قائلاً: أُوصيكـم بمحمّد خيراً فإنّـه الأمين في قريش، وهـو الجامع لكـلّ ما أوصيكم به. كونوا له ولاةً، ولحزبـه حماةً، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلاّ رَشَد، ولا يأخذ أحد بهديه إلاّ سعد.[٢]

وبينما كفّـره البعض مـن علماء السنة، إلاّ أنّ منهـم مـن حكموا بـإسلامـه وبإيمانه، مثـل: «زيني دحلان» مفتي مكة (المتوفّى ١٣٠٤هــ)، وقد تمادى بعض منهم في تـوسيع دائرة الكفـر فشملـت آباء النبـي ﷺ، و كـان ذلك مـن آثـار الحكومات الأمـوية والعباسية التـي عملت بكلّ جهدهـا لتأكيد كفر أبي طـالب والإعلام ضـدّ إيمانه، لأنّه كـان والد الإمـام علي عليه السلام الـذي اجتهدت الأجهـزة الإعلامية لتلـك الحكومات في الحط من شأنـه دوماً، وخاصةً إنّ إسلامـه مع أبيه كان يعد فضيلة بارزة من فضائله.

أمّا علماء الشيعة الإمامية والزيدية فقد اتّفقوا على أنّه كان من أبرز المؤمنين برسول الله ﷺ ولم يخرج من الـدنيا إلاّ بقلب يفيض إيمانـاً بالإسلام و إخـلاصاً لله تعالى وحباً للمسلمين.[٣]

---

١. مجمع البيان: ٧/ ٣٧؛ الحجة: ٥٧؛ مستدرك الحاكم: ٣/ ٦٢٣.
٢. السيرة الحلبية: ١/ ٣٥.
٣. يوضح هذا الجانب جيداً صاحب موسوعة الغدير، العلاّمة الأميني.

وأمّا أقاربه وما قدّموه من أفعال وأقوال تؤكد موقفه الإيجابي، فإنّ النبي ﷺ دفنه بنفسه. كما أنّ الإمام الحسين عليه السلام أجاب عندما سئل عن إيمانه قال: «واعجباً، إنّ الله تعالى نهى رسوله أن يقرّ مسلمة على نكاح كافرٍ، وقد كانت «فاطمة بنت أسد» من السابقات إلى الإسلام لم تزل تحت أبي طالب حتى مات».

وقال عليه السلام: «ألم تعلموا أنّ أمير المؤمنين علي عليه السلام كان يأمر أن يحجّ عن عبد الله وأبيه».

وقال الإمام الصادق عليه السلام : «إنّ مَثَل أبي طالب مَثَل أصحاب الكهف أسرّوا الإيمان وأظهروا الشرك، فآتاهم الله أجرهم مرّتين،وكذلك أبو طالب».[٢]

ومن المعروف، أنّه للتعرف على عقيدة فردٍ ونمط تفكيره،ينبغي الاعتماد على:

ـ دراسة آثاره العلمية والأدبية وما تركه من أقوال وكلمات.

ـ و أسلوب عمله وتصرفاته في المجتمع.

ـ و آراء أقربائه ومعارفه حوله.

وكلّ تلك الجوانب أكدت إسلام أبي طالب، حامي الرسول العظيم ﷺ، فتسقط كلّ الأقاويل والأحاديث التي بثّها أعداؤه للحط من شأنه و إلصاق الكفر به.

وكذلك كان أبو النبي ﷺ عبدالله، فقد ذكر النبي ﷺ إنّه انتقل في الأرحام المطهّرة ممّا يؤكّد طهارة آبائه وأُمّهاته من كلّ دنس وشرك.

وقد أشار الشيخ المفيد إلى أنّ الإماميّة تتفق على أنّ آباء رسول الله ﷺ من

٢. أُصول الكافي: ١ / ٤٤٨.

لدن آدم إلى عبد الله بـن عبد المطلب كانوا مـؤمنين بالله وموحّديـن إيّاه، واحتجّوا في ذلك بالقرآن و الأخبار.

النبي ﷺ قبل البعثة

تدلّ الشواهد التاريخية بالإضافة إلى البراهين العقلية، على أنّه ﷺكان مؤمناً بالله وموحّداً إيّـاه قبل البعثة، فلم يعبد وثناً قط، ولم يسجـد لصنم أبداً. وقد أجمع المؤرّخون على أنّه ﷺ كان يخلو بحراء أشهراً كلّ عـام يعبد الله تعالى فيه، فقد ذكر الإمام علي عليه السلام: «ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري».[١]

حتى وافاه جبرائيل عليه السلام بالـرسالـة في هذا المكـان وفي تلك الحال، وقـد صرح بهذا أيضـاً أصحاب الصحـاح الستـة، وجـاء في الأخبار أنّ الـرسـول ﷺ حجّ قبلِ البعثـة عدّة حجّات، وكان يـأتي بمناسكها على وجه صحيـح بعيداً عن أعين قريش، فقال الإمام الصادق عليه السلام: «حجّ رسول الله عشر حجّات مستتراً في كلّها».[٢]

وكلّ تلـك الوقـائع أصدق دليل على إيما نـه وتوحيـده، وهو النبـي الخاتم والأفضل مـن جميع الأنبياء والمرسلين بنـصّ القرآن الكريـم. وجاء عن «العـلاّمة المجلسي»، أنّـه قد وردت أخبـار كثيرة أنّـه ﷺ كان يطـوف ويعبد الله في حـراء، ويرعى الآداب المنقولة من التسمية والتحميد عند الأكل وغيره، فكيف يمكن لله تعالى أن يهمل أفضل أنبيـائه أربعين سنة بغير عبادة [٣] والنبي ﷺ كان مؤمناً

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.
٢. وسائل الشيعة:٨/ ٨٨.
٣. بحار الأنوار:١٨/ ٢٨٠.

موحّداً عابـداً لله ساجداً قائماً بالفرائض العقلية والشرعية، مجتنباً عن المحرمات، عا لماً بالكتاب ومـؤمناً به إجمالاً، وراجياً لنزوله إليـه، إلى أن بعثه الله لإنقاذ البشرية عن الجهل وسوقها إلى الكمال.

فكان ﷺ أفضـل الخلق وأكملهـم خلقـاً وخُلقاً وعقـلاً، وأنّـه كان يعمـل حسب ما يُلهَم سـواء كان مطابقاً لشرع ماقبله أم مخالفاً، وأنّ هـاديه وقائده، منذ صباه إلى أن بُعِث هو نفس هاديه بعد البعثة.[١]

٤. الوحي في غار حراء

ويقع جبل حراء في شمال مكّة، ويستغرق الصعود إليه مدّة نصف ساعة، ويتكوّن من قطع صخرية لا أثر للحياة فيها. أمّا الغار فيقع في شمال الجبل، وهو يحكي ذكريات رجل طالما تردّد عليه وقضـى الساعات والأيام والأشهر في رحابه، يتعبد الله ويتأمّل في الكون وفي آثار قدرة الله وعظمته. إذ أنّ النبي ﷺ كان يفكّر في أمرين، قبل أن يبلغ مقام النبوة:

١ ملكـوت السماوات والأرض، فيرى في ملامـح كلّ مـن الكـائنات نـور الخالق العظيم وقدرته وعظمته، فتفتح عليه نوافذ من الغيب تحمل إلى قلبه وعقله النور الإلهي المقدّس.

٢. المسؤولية الثقيلـة التي ستوضع على كـاهله، فكان يفكر في فسـاد حياة المجتمع المكي، وكيفية رفع كلّ ذلك و إصلاحه.

وأمّا الرسالة الإلهية إليه ﷺ فقد أمر الله تعـالى جبرائيل عليه السلام بأن ينـزل على

١. للتوسع في ذلك يراجع مفاهيم القرآن للمؤلف:٥/ ١٣٥.

أمين قريش في الغار ويتلو على مسامعه بضع آيات كبداية لكتاب الهداية والسعادة، معلناً بذلك تتويجه بالنبوة ونصبه لمقام الرسالة، وطلب منه أن يقرأ، أو قال: يا محمّد اقرأ، قال: وما أقرأ؟ قال يا محمّد﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ ٱلإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ* ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلأَكْرَمُ* ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ* عَلَّمَ ٱلإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] ثمّ أوحى إليه ربّه عزّ وجلّ ما أمره به ثمّ صعد إلى العلوّ ونزل محمّد ﷺ من الجبل، وقد غشيه من تعظيم جلال الله وورد عليه من كبير شأنه ما ركبه الحمى والنافض.

وقد أوضحت هذه الآيات برنامج النبي ﷺ وبيّنت بشكل واضح أنّ أساس الدين يقوم على القراءة والكتابة والعلم والمعرفة باستخدام القلم. ثمّ خاطبه الملك: «يا محمّد، أنت رسول الله، وأنا جبرائيل».

و قد اضطرب الرسول ﷺ لهذين الحدثين، لعظمة المسؤولية التي أُلقيت على كاهله، فترك غار حراء متوجّهاً إلى بيت السيدة خديجة عليها السلام، التي لاحظت الاضطراب و التعب على ملامحه فسألت عنه، فأجابها وحدّثها بكلّ ما سمع وجرى، فعظمت خديجة عليها السلام أمره ودعت له وقالت: «أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً». ثمّ دثرته فنام بعض الشيء. ثمّ انطلقت إلى بيت ورقة تخبره بما سمعته من زوجها الكريم، فأجابها: إنّ ابن عمّك لصادق وإنّ هذا لبدء النبوة، وإنّه ليأتيه الناموس الأكبر ـ أي الرسالة والنبوة ـ.[2]

وقد اختلقت قصص كثيرة عن تخوّف النبي ﷺ واضطرابه ممّا حدث له في

---

١. العلق:١ـ٥.

٢. طبقات ابن سعد:١/ ١٩٥.

الغار، ودسّـت تلك الروايـات في التاريـخ والتفسير عن قصد وهـدف أو دخلت فيها عـن غير ذلك. فـالنبي الكـريم ﷺ كانـت روحه مهيّـأة من جميـع الجهات وبصورة كـاملة لتلقّـي السرّ الإلهي ـ النبوة ـــ وما لم تكن نفسيتـه كذلـك، فإنّ الله تعالى لم يكن ليمن عليه بمنصب النبوة ويختاره لمقام الرسالة، لأنّ الهدف الجوهري من انبعاث الرسـل و الأنبياء هو هداية الناس وإرشادهـم. وتدل تلك القصص على أنّ ثمة يداً إسرائيليـة وراءها فصاغتها، ولهذا فـإنّ أئمّة الشيعة حاربـوا هذه الأساطير بكلّ قوّة وأبطلوها برمّتها. فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله إذا اتّخذ عبداً رسولاً، أنزل عليه السكينة والوقار، فكان يأتيه من قِبَل الله عزّوجلّ مثل الذي يراه بعينه».[1]

وفسر العلاّمة الكبير الطبرسي ذلك، بأنّ الله لا يوحي إلى رسوله إلاّ بالبراهين النيّرة والآيات البيّنة الدالة على أنّ ما يوحىٰ إليه إنّما هو من الله تعالى فلا يحتاج إلى شيء سواها ولا يفزع ولا يفرق.[2]

أمّا بالنسبة إلى يوم مبعثه، فإنّ هناك اختلافاً فيه مثلما اختلف في يوم ولادته، فاتّفـق علماء الشيعة على أنّه بُعـث بالرسـالة يـوم ٢٧ من شهر رجـب، وأنّ نزول الوحي بدأ من هذا اليوم، بينما اشتهر عند السنّة أنّه حدث في شهر رمضان. فهناك فرق في نزول القرآن جميعه على الرسول ﷺ ونزول الآيات الأُولى عليه يوم المبعث. فالآيات التي تصرح بنـزول القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر المبـاركة، لا تدل على أنّ يوم المبعث ـ الذي نزلت فيه بضع آيات ـ كان ذلك في الشهر نفسه، لأنّ

١. بحار الأنوار:١٨/ ٢٦٢؛ الكافي:١/ ٢٧١.
٢. مجمع البيان:١٠/ ٣٨٤.

الآيات المذكـورة الدالّـة على أنّ القرآن نزل في شهـر رمضان تـدل على أنّ مجموع القرآن لا بعضـه قد نزل في ذلك الشهـر، في حين أنّه لم ينزل في يوم المبعـث سوى آيات معـدودة. كما أنّ تفسيراً آخر يـؤكّد أنّ للقـرآن الكريـم وجوداً جمعيـاً علمياً واقعياً،وهو الذي نزل على الرسول الكريم ﷺ مرةً واحدةً في شهر رمضان، وآخر وجوداً تدريجياً كان بـدء نزوله على النبي ﷺ في يوم المبعث،واستمر نـزوله إلى آخر حياته الشريفة على نحو التدريج. وهو مـا قدّمه العلاّمة الطباطبائي من تفسير[١]. كما أنّ ثمة قولاً آخر ذهـب إلى أنّ ابتعاث الرسول ﷺ بالرسالة في شهر رجب، لا يلازم نزول القرآن في ذلك الشهر حتماً.[٢]

وأبرز مـا في هذا الموضـوع، أنّ الرسـالة المحمّـدية المبـاركة، بشّر بها جميـع الأنبياء المتقـدّمين زمنياً على خاتـم الأنبيـاء والمرسلين محمّد ﷺ وأشار القـرآن إلى ذلك في آيات كثيرة.

والأمر الهامّ الآخـر، إنّه كـان خاتـم الأنبياء والمرسلين، فـلا نبي بعـده و لا رسالة، حيث قال ﷺ: «أرسلت إلى الناس كافةً،وبي خُتِم النبيّون».[٣]

٥. أوائل المؤمنين بالنبي ﷺ والدين الإسلامي

بدأ انتشار الإسلام تدريجياً، وكان هناك سابقون كما كان هناك لاحقون،وعُدَّ السبق إلى الإيمان برسول الله ﷺ في صدر الإسلام،معياراً للفضـل، ولذا كان لابدّ من التعـرف على هؤلاء السابقين. ومن المسلّمات، أنّ السيـدة خديجة عليها السلام كانت

---

١. تفسير الميزان: ٢/ ١٤.

٢. للمزيد من التوضيح و التوسع راجع البحار:١٨/ ١٨٤، ٢٥٣؛ الكافي:٢/ ٤٦٠.

٣.طبقات ابن سعد:١/ ١٢٨.

أوّل امرأة آمنت به ﷺ فلم يختلف في هذا أحد.[١] وخاصّة أنّ النبي ﷺ أكّد بنفسه ذلك في قوله: «آمنت بي إذ كفر النـاس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس».[٢] فهي أوّل من التقته بعد نزول الوحي عليه في الغار، فآمنت به وصدقته.

كما أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام كان أوّل من آمن به من الرجال، حيث اتّفق العلماء كلّهم على ذلك، إذ أنّ الإمام عليه السلام كان قد عاش في كنف النبي ﷺ حتى بعثه الله تعالى نبياً فاتّبعه وآمن به وصدّقه.[٣] فكان ممّا أنعم الله به على الإمام عليه السلام أنّه كان في حجـر النبي ﷺ قبل الإسلام وهـو دون الثامنة. فحينما أجدبـت مكة وضواحيها وأصاب الناس أزمة شديـدة، وكان أبو طالب كثير العيال، رأى النبي ﷺ أن يخفّف عنـه، فطلب مـن عمّه العباس أن يـأخذ منه بعـض عيالـه، فكفل العباس جعفراً، وكفـل رسول الله ﷺ علياً، وقيـل أنّ حمزة أخذ جعفـراً، والعباسُ طالباً، وأبو طالب عقيلاً، وقال رسول الله ﷺ: «إخترت من اختار الله لي عليكم، علياً».[٤]

ويظهر أنّ الهدف من ذلك كـان هو أن يتربّى علي عليه السلام في حجر النبي ﷺ ويتغذّى من مكارم أخلاقه ويتبعه في كريم أفعاله.

ويؤكد الإمام عليه السلام موقفه بقـوله: «اللّهمّ إنّي أوّل من أنـاب وسمع وأجاب، ولم يسبقني إلاّ رسول الله بالصلاة».[٥]

---

١. السيرة النبوية: ١/ ٢٤٠.
٢. صحيح مسلم: ٧/ ١٣٤؛ صحيح البخاري: ٥/ ٣٩؛ أُسد الغابة: ٥/ ٤٢٨؛ البحار: ١٦/ ٨.
٣. السيرة النبوية: ١/ ٢٤٦؛ البداية والنهاية: ٢/ ٢٥.
٤. مقاتل الطالبيين: ٢٦؛ الكامل: ١/ ٣٧؛ السيرة النبوية: ١/ ٢٤٥.
٥. نهج البلاغة: ٢/ ١٨٢.

كما جاء عن «عفيف الكندي» إنّه شاهد النبي ﷺو زوجته و عليّاً عليه السلام يؤدّون الصلاة أمام الكعبة.[١]

وجاء في خطبة له عليه السلام قوله: «أنا الصديق الأكبر، لقد صليت مع رسول الله قبل الناس سبع سنين، وأنا أوّل من صلّى معه».[٢]

كما أنّ النبي ﷺ أكّد ذلك أيضاً في أحاديثه المتكررة: «أوّلكم إسلاماً علي بن أبي طالب».[٣]

ومن أقوال الإمام علي عليه السلام في ذلك، يذكر حكيم مولى زاذان،إنّه قال، سمعت علياً يقول: «صلّيت قبل الناس سبع سنين، وكنّا نسجد ولا نركع،وأوّل صلاة ركعنا فيها صلاة العصر». [٤]

و قال أيضاً: «بُعث رسول الله ﷺيوم الإثنين وأسلمت يوم الثلاثاء».[٥]

و قد أكّد هذا الموقف أكثر من ستين صحابياً وتابعياً أيّدوا القول الذي يذكر أنّ الإمام علياً عليه السلام كان أوّل القوم إسلاماً.

و أشهر هؤلاء:

ـ أنس بن مالك : بُعث النبي ﷺيوم الإثنين وأسلم عليٌّ يوم الثلاثاء.

ـ بريدة الأسلمي: ذكر نفس القول.

ـ زيد بن أرقم: أوّل من أسلم مع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، وأوّل من

١. الإصابة:٢/ ٤٨٠.

٢. خصائص النسائي: ٣؛ سنن ابن ماجة:١/ ٥٧؛ مستدرك الحاكم:١/ ١١٢.

٣. الغدير:٣/ ٢٢٠.

٤. شرح نهج البلاغة :٣/ ٢٥٨.

٥. مجمع الزوائد: ٩/ ١٠٢.

صلّى مع الرسول ﷺ عليّ، وأوّل من آمن بالله بعد النبي ﷺ عليّ عليه السلام.

ـ عبد الله بن عباس: أوّل من صلّى عليّ.

لعليّ أربع خصال ليست لأحد هو أوّلُ عربيّ وأعجميّ صلّىٰ مع رسول الله ﷺ، كان عليّ أوّل من آمن من الناس بعد خديجة عليها السلام.

ـ سلمان الفارسي: أوّل هذه الأُمّة وروداً على نبيّها الحوض أوّلها إسلاماً، علي بن أبي طالب عليه السلام.

ـ أبو رافع: مكث عليّ يصلّي متخفياً سبع سنين وأشهراً قبل أن يصلّي أحد.

ـ كما نقل نفس الأقوال والأعمال التي قام بها الإمام عليه السلام كلّ من:

أبو ذر الغفاري، خباب بن الأرت، المقداد بن عمرو الكندي، جابر بن عبد الله الأنصاري، أبو سعيد الخدري، حذيفة بن اليمان، عمر بن الخطاب، عبد الله بن مسعود، أبو أيّوب الأنصاري، هاشم بن عتبة المرقال، مالك بن الحارث الأشتر، عدي بن حاتم، محمد بن الحنفية، محمّد بن أبي بكر، عبد الله بن أبي سفيان، الحسن البصري، الإمام محمّد الباقر عليه السلام.[١]

٦. دعوة الأقربين

استمر النبي ﷺ يدعو إلى دينه سرّاً مدّة ثلاثة أعوام، عمد فيها إلى بناء الكوادر وإعدادها من أفراد محدّدين، كانوا السبب في أن ينجذب إلى الدين الجديد جماعة آخرون تقبّلت دعوته.

١. الصواعق المحرقة: ٧٢؛ تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١١٢.

واشتهر من بين السابقين إلى الإيمان برسول الله ﷺ :[1]

ـ السيدة خديجة بنت خويلد عليها السلام	ـ علي بن أبي طالب عليه السلام
ـ زيد بن حارثة	ـ الزبير بن العوام
ـ عبد الرحمن بن عوف	ـ سعد بن أبي وقاص
ـ طلحة بن عبيد الله	ـ أبو عبيدة الجراح
ـ أبو سلمة	ـ الأرقم بن أبي الأرقم
ـ عثمان بن مظعون	ـ قدامة بن مظعون
ـ عبد الله بن مظعون	ـ عبيدة بن الحارث
ـ سعيد بن زيد	ـ خباب بن الأرت
ـ أبو بكر بن أبي قحافة	ـ عثمان بن عفان

وكان النبي ﷺ يخرج مع بعض أتباعه إلى شعاب مكّة للصلاة فيها بعيداً عن أنظار قريش، إلاّ أنّ البعض منهم رأوهم يصلُّون، فحدث نزاعٌ قصيرٌ بين الطرفين،حين استنكروا فعلهم، وهو ما جعلَ النبي ﷺ يقرر اتّخاذ بيت «الأرقم بن أبي الأرقم» مكاناً للعبادة[2]، حيث آمن في هذا البيت عددٌ آخر من المشركين، كان أبرزهم : عمار بن ياسر، وصهيب بن سنان الرومي.

وقد ركّز الرسول ﷺ جهده في الدعوة السريّة، دون عجلة أو تسرّع، يعرض فيها دينه على كلّ من وجده أهلاً لتقبل المبادئ السامية، من الناحية الفكرية،

١. السيرة النبوية:١/ ٢٤٥.

٢. وكان البيت عند جبل الصفا عرف إلى فترة بدار الخيزران. أُسد الغابة:٤/ ٤٤؛ السيرة الحلبية:١/ ٢٨٣.

ففي خــلال ثلاثة أعــوام اكتفى بالاتّصال الشخصيّ بمــن وَجَدَه مؤهـلاً وصالحاً للدعوة ومستعداً لقبول الدين الجديد، ممّـا ساعده في أن يكسب فريقاً من الأتباع الذين اهتدوا إلى دينه بقبول دعوته.

أمّا زعماء قريش فـإنّهم لم يعتنوا بالدعوة الجديدة، كما لم يتعـرضوا بأي عمل عدائي للرسول ﷺ بل ظلوا ينظرون إليه باحترام، مراعين قواعد الآداب والسلوك، في الوقت الذي لم يتعرض فيه النبي ﷺ أيضاً لأصنامهم وآلهتهم بسوء، ولا تناولها بالنقـد والاعتراض بصورة علنيـة، وذلك أنّ زعماء قريـش كانوا متـأكديـن من أنّ دعوتـه ستنتهي في العاجـل بقولهم: إنّها أيّام وتنطفـئ بعدهـا شعلة الدعـوة هذه فوراً، كما انطفأت من قبل دعوة «ورقة وأُميّة» اللّـذين دعيا إلى نبذ الوثنية واعتناق المسيحية، ثمّ نسي الأمر.

وقد جمع النبي ﷺ في السنوات الثلاث الأُولى، أربعين شخصاً، لم يكن فيهم كفاية لأن يصبحوا قوة دفاعية لحماية النبي ﷺ ورسالته، ممّا جعله يسعى إلى دعوة أقـربائه، فكسر بـذلـك جدار الصمـت، بالشروع في دعـوة الأقـربين ثمّ النـاس أجمعين، فالنبي ﷺ كـان يؤمـن ويعتقـد أنّ أي إصـلاح وتغيير لابدّ أن يبـدأ مـن إصلاح الداخل وتغييره، ومن هنا أمره الله تعالى بأن يدعو عشيرته الأقربين، الذين تمنّى أن يكـوّنَ منهم سياجـاً قوياً يحفظـه ويحفظ رسـالته من الأخطـار المحتَملة: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبين**﴾[1] كما خاطبه بصدد دعوة الناس عامة ﴿**فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكينَ* إِنّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئين**﴾.[2]

---

١. الشعراء: ٢١٤.

٢. الحجر: ٩٤ـ٩٥.

وقد اتّخذ النبي ﷺ أسلوباً مميزاً في دعوة أقربائه، إذ أنّه أعدّ لهم مائدةً كبرى، لـ٤٥ فرداً من سراة بني هاشم ووجهائهم، ليكشف لهم أمر رسالته خلال تلك الضيافة، إلاّ أنّ الجو لم يناسب الحدث، فانفضّ المجلس دون تحقيق الغرض، ممّا اضطرّه إلى إعادتها في اليوم التالي. فقام النبي ﷺ بعد تناول الطعام، خطيباً فيهم وقال: «إنّ الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلاّ هو، إنّي رسول الله إليكم خاصةً وإلى الناس عامةً، والله لتموتنّ كما تنامون، ولتبعَثُنّ كما تستيقظون، ولتحاسبنّ بما تعملون، وإنّها الجنة أبداً والنار أبداً. يا بني عبدالمطلب، إنّي والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله عزّ وجلّ أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤمن بي ويؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟» فقام علي عليه السلام وهو في الثالثة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره قائلاً: «أنا يا رسول الله أكونُ وزيرُك على ما بعثك الله». وبعدما تكرّر هذا الموقف ثلاث مرّات، أخذ النبي ﷺ بيد عليّ عليه السلام والتفت إلى القوم قائلاً: «إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا».

فضحك الجميع مستهزئين، وقالوا لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيعه وجعله عليك أميراً.[1]

إنّ هذا الإعلان عن وصاية الإمام علي عليه السلام وخلافته في مطلع عهد الرسالة وبداية أمر النبوة، يفيد أنّ هذين المنصبين ليسا منفصلين، فقد أعلنهما الرسول ﷺ

---

١. هذا ملخّص لتفصيل ما رواه أكثر المفسرين والمؤرّخين دون أن يشكّك في صحته أحد، إلاّ ابن تيمية الذي اتخذ موقفاً فريداً من أهل البيت عليهم السلام راجع تاريخ الطبري: ٢/ ٦٢؛ الكامل: ٢/ ٤٠؛ مسند أحمد: ١/ ١١١؛ شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٢١٠.

في يوم إعلانه للدعـوة والنبوة، ممّا يؤكد أنّ النبوة والإمامة يشكّـلان قاعدة واحدة، و إنّهما حلقتـان متصلتـان لا يفصل بينهما شيء، كما أنّ مـوقـف الإمـام علي عليه السلام يكشف عـن مدى شجـاعته الروحيـة، حينما أعلن بكلّ جـرأة وشجاعـة، مؤازرة النبي صلى الله عليه وآله في حضور قـوم ضمّ شيـوخهم وسـادتهم،معلِناً استعـداده للتضحية في سبيل دينه،وهو غلام لم يتعد الخامسة عشرة.

وقد تناول «أبوجعفر الإسكافي» هذا الموقف موضحاً إذ كتب يقول:

هل يكلّف عمل الطعام،ودعاء القوم، صغيرٌ غير مميّز وغيرُ عاقل؟! و هل يؤتَمن على سرّ النبـوة طفل؟! و هل يُـدعىٰ في جملـة الشيوخ والكهول إلاّ عـاقل لبيبٌ وهل يضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده في يده، ويعطيه صفقة يمينه بالأخوة والوصية والخلافة، إلاّ وهو أهلٌ لـذلك، بالغُ التكليف، محتمل لـولاية الله، وعداوة أعدائه، ما بـالُ هذا الطفل لم يـأنس بـأقرانه ولم يلصـق بأشكالـه، ولم يُر مـع الصبيان في ملاعبهم بعد إسلامـه،ولم ينزَع إليهم في ساعة من ساعاته، بـل ما رأيناه إلاّ ماضياً على إسلامـه، مصمّماً في أمره، محقّقاً لقولـه بفعله، ولصق بـرسول الله صلى الله عليه وآله من بين جميع من حضره، فهو أمينه وأليفه في دنياه وآخرته.[١]

٧. الدعوة العامة وتطوّر ردود أفعال قريش تجاهها

بعد تلـك السنوات الثلاث، عمد الـرسول صلى الله عليه وآله إلى إعلان الدعـوة جهراً، حين وقف ذات يوم على صخرة عند جبل الصفا منادياً بصوت عالٍ: «أرأيتكم إن أخبرتكم إنّ العـدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصـدّقونني؟» قالـوا: بلى. قال:

١. شرح نهج البلاغة:١٣/ ٢٤٤ـ ٢٤٥.

«فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد».[1]

فرد عليه أحدهم: تبّاً لك ألهذا دعوتنا؟ فتفرّق الناس على أثر ذلك. إلاّ أنّه بعد فترة من الدعوة العامة، تشكلت جماعة قوية متعاطفة متحابّة، من السابقين واللاحقين، أو القدامى والجدد، كانت بمثابة إنذار لأوساط الكفر والشرك والوثنية، وهم المخالفون،وقد تألّفت تلك الجماعة من قبائل مختلفة منعوا الكفّار من التعرض لهم، إذ لم يكن اتّخاذ أي قرار حاسم بحقّهم، أمراً سهلاً ومريحاً. ولذا قرر سادة قريش مواجهة قائد تلك الجماعة ومحركهم، بوسائل الترغيب والترهيب، بالإغراء والتطميع، والإيذاء والتهديد، واستمرت برامج قريش و موقفها من الدعوة بهذه الأساليب طيلة عشر سنوات هي عمر الدعوة العامة في مكة، حتى اتّخذوا قرارهم النهائي بالتخلّص منه بقتله،في الوقت الذي تمكن ﷺ من إبطال مؤامرتهم و إفشالها بالهجرة إلى المدينة.

وقد بدأوا التحرك في مطالبة كفيله ﷺ أبي طالب بأن يبعد النبي ﷺعنهم قائلين له: يا أبا طالب إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا، فإمّا أن تكفّه عنّا، و إمّا أن تُخلّي بيننا و بينه. إلاّ أنّ أبا طالب ردّهم بقولٍ جميلٍ حكيمٍ.[2]

ولكن الدين الجديد انتشر بقوّة بين العرب، والقادمين إلى مكّة خلال الأشهر الحرم، فأدرك طغاة قريش أنّ محمّداً ﷺ بدأ يفتح له مكاناً في قلوب جميع القبائل، فكثّر أنصاره منها، الأمر الذي دفعهم إلى مقابلة أبي طالب مرةً أُخرى،

---

١. السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية: ١/ ١٩٤.

٢. السيرة النبوية: ١/ ٢٦٤.

ليذكّروه إشارة وتصريحاً، بالأخطار التي أحدقت بهم وبعقائدهم نتيجة نفوذ الإسلام وقوّته : إنّا والله لا نصبرُ على هذا من شتم آبائنا وعَيب آلهتنا حتى تكفّه عنّا أو ننازله وإيّاك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين. فسكّن غضبهم وأطفأ ثائرَتهم وهدّأ خواطرهم، ليتم معالجة هذه المشكلة بطريقةٍ أفضل.

فأتى النبي ﷺ وأخبره بأمرهم، فردّ عليه بالجواب التاريخي الخالد، والذي يعتبر من أسطع وألمع السطور في حياة قائد الإسلام الأكبر محمّد ﷺ:

«يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمرَ في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهِرَه الله، أو أهلك فيه، ماتركته». ممّا أثر في عمّه بتلك الكلمات العظيمة، فأظهر استعداده الكامل للوقوف إلى جانبه قائلاً: إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببتَ ،فوالله لا أُسْلِمَكَ لشيءٍ أَبداً».

وحاولت قريشٌ مساومة أبي طالب مرةً أُخرى، للتخلّص من النبي ﷺ ودعوته، إلاّ أنّه رفض أي نوع من المساومة في هذه القضية، محافظاً على محمّد ﷺ ودينه.

فسلكوا طريقاً آخر، ووسيلة أجدى لإثناء النبي ﷺ عن المضي في دعوته،وهي تطميعه بالمناصب والهدايا والأموال والفَتَيات الجميلات:فإن كنتَ إنّما جئتَ بهذا الحديث تطلبُ به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالاً، وإن كنتَ إنّما تطلب الشرفَ فينا فنحن نسوِّدُكَ ونشرِّفك علينا،وإن كان هذا الذي يأتيك تابعاً من الجنّ قد غلب عليك،بذلنا أموالنا في طِبّك.

إلاّ أنّ الرسول ﷺ قال لعمّه: «يا عمّ أريدهم على كلمةٍ واحدة يقولُونها،تدين لهم العرب، وتؤدّي إليهم بها العجم الجزية».

قالوا: ما هي؟ قال: «لاإله إلاّ الله». فقاموا فزعين قائلين: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنْ هذا لشيء عجابٌ﴾.[١]

٨. استخدام الأساليب المتعدّدة لمنع انتشار الدعوة الجديدة

بعد استخدام أُسلوب الأخذ والردّ مع النبي ﷺ عن طريق كفيله، وعدم جدواه، اضطرّت قريش إلى تغيير أُسلوبها ونهجها مع الرسول ﷺ في منع انتشار دينه، مهما كلّف الثمن. فقرّروا اتخاذ سلاح السخرية والاستهزاء، والإيذاء والتهديد.

وكان أبو طالب من جانب آخر، قد طلب من بني هاشم جميعاً القيام بحماية النبي ﷺ، فلبّوا نداءه سواء بدافع الإيمان أو الرحم، إلاّ أنّ ذلك لم يمنع من إيقاع الأذى بالرسول ﷺ كلّما وجدوا الفرصة السانحة، وخاصةً إذا وجدوه وحيداً بعيداً عن أعين حماته.

إنّ التاريخ يشهد بأنّ وجود رجال ذوي بأس شديد وقوة بين صفوف المسلمين، مثل «حمزة» الذي أصبح فيما بعد أحد كبار قادة الإسلام، كان لهم أثر كبير في حفظ الإسلام وحماية النبي ﷺ ودعم جماعته. فقد جاء عنه: لما أسلم حمزة عرفت قريش أنّ رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع، فكفّوا عمّا كانوا يتناولون منه.[٢]

أمّا أساليب قريش فتعددت في الإيذاء والإيقاع بالرسول ﷺ وجماعته، فقد كمن أبو جهل للرسول ﷺ حينما وقف للصلاة بين الركن اليماني والحجر الأسود، ليضربه بحجر، إلاّ أنّه رجع عن عزمه دون أن ينفّذ خطته، مجيباً أصحابه في ذلك:

---

١. السيرة الحلبية:١/ ٣٠٣؛ تاريخ الطبري:٢/ ٦٥.

٢. الكامل: ٢/ ٥٦.

قمت إليـه لأفعل به مـا قلت لكم البـارحة، فلمّا دنـوتُ منه عرض لي دونـه ما لا رأيت مثله في حياتي، فتركته.[١]

ولا شكّ أنّ قـوةً غيبيةً أدركت الـرسول ﷺ في تلك اللحظـة وحفظته، كما وعده الله تعـالى قائلاً: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [٢]. فالنبي ﷺ كان يـواجهُ في كلّ يوم نـوعاً خاصاً من الأذى والمضـايقة من هؤلاء الأشرار، وأشهرهـم: عقبة بن أبي معيط الذي شتمـه وضربه، فكان أشدّ خصومـه بغضاً له ﷺ. وعمّه أبو لهب الذي تعـرض النبي ﷺ لأذاه مـع زوجته أُمّ جميـل، فقـد كان النبـي ﷺ يجاورهم فقاموا بإيذائه وإزعاجه، بـإلقاء الرماد والتراب على رأسه الشريف، ونشر الشوك على طريقه أو عند باب بيته. والأسود بن عبد يغوث، أحد المستهزئين، والوليد بن المغيرة، شيـخ قريـش وحكيمها وأكبر الملاّك فيهـا، وأُمية وأُبيّ، ابنـا خلف، وأبـو جهل (أبـو الحكم بن هشـام)، و العاص بن وائل، والـد عمرو بن العـاص الذي وصف النبي ﷺ بالأبتر.

وعندما فشلت أسـاليب قريش وأسلحتها الصدئـة في القضاء على الدين الجديد وأهلـه، عمدوا إلى استخدام سـلاح جديد لعلّه يكـون أقوى من سـوابقه، للحيلولة دون انتشار الإسلام واتساع رقعته، وقطع علاقته بالمجتمع العربي، وهو سلاح الدعاية ضدّ رسول الله ﷺ . و من أساليبه :

الاتّهامـات الباطلة ، وقـد أقرّوا استخدامها فـي دار الندوة ، حين طـرحوا فكرتها على «الوليد بن المغيرة»[٣] الذي كان ذا مكـانة مميزة عندهـم ، فقال : يا معشر قريـش ، إنّه قد حضر هذا المـوسم و إنّ وفود العرب ستقـدم عليكم فيه ،

١. السيرة النبوية: ١ / ٢٩٨.
٢. الحجر: ٩٥.
٣. أبو خالد بن الوليد.

وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً، ورأى ألاّ يقولوا عنه كاهن أو مجنون أو ساحر. و هكذا تحيّروا في ما ينسبون إلى رسول اللّهﷺ حتّى اتّفقوا على أن يقولوا: **إنّه ساحر** جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وأخيه وزوجته وعشيرته، والدليل على ذلك ما أوجده من خلاف وانشقاق وتفرّق بين أهل مكّة الّذين عرفوا بالوحدة والإتفاق.[1]

كما أشاعوا عنه الجنون، وأنّ ما يقوله ويقرأه ما هو إلاّ من نسج الخيال ومن أثر الجنون الذي لا يتنافى مع الزهد والأمانة.

وقد ردّ القرآن الكريم على جميع تلك الاتهامات في آيات كثيرة وفنّدها.

وقد استمر أُسلوبهم في الاتهام والتشويش على شخصية النبي الأكرم ﷺ والرسالة المحمدية بكلّ الصور والمظاهر، فوصفوه بالكاهن، والساحر، والمجنون، وأنّه معلّم من قبل نصراني، وكذّاب و مفتر و شاعر، وما يقوله أضغاث أحلام.

ولما لم تأت كلّ تلك الاتهامات بالنتيجة المرجوّة، ولم تنفع في الإيقاع به، لمعرفة الناس بالنبي ﷺ وصفاته وأخلاقه منذ سنين بعدة، اتجهوا إلى أُسلوب آخر، وهو معارضة القرآن الكريم عن طريق «النضر بن الحارث» أحد أعداء الرسول ﷺ الذي تعلم في العراق شيئاً من أساطير الفرس وحكاياتهم، ليقصّ منها على الناس فيلهيهم عن السماع لرسول الله ﷺ والإصغاء للقرآن الكريم. إلاّ أنّ ذلك لم يدم طويلاً، فقد سأمت قريش أحاديثه فتفرقت عنه.

فاتجهوا إلى أُسلوب المجادلات الجاهلية والمآخذ السخيفة على الرسول ﷺ

---

١. السيرة النبوية: ١/ ٢٧٠.

ورسالته، وهي تبرز تكبّرهم وعنادهم وجهلهم التي طبعوا عليها. ومن أمثال هذه الوسيلة الاعتراض على النبيّ ﷺ للأُمور التالية :

١. عدم نزول القرآن على أحد أثريائهم.

٢. عدم إرسال الملائكة إليهم.

٣. تبديل الآلهة بإله واحد.

٤. جدّد الحياة يوم القيامة.

٥. عدم تملّكه لمعجزات متعدّدة كما كان لموسى عليه السلام.

وفي الوقت نفسه قدموا مقترحات لإصلاح الوضع بينهم وبين النبي الكريم ﷺ مثل:

ـ أن يقوم بعبادة أصنامهم سنة، على أن يعبدوا إلهه سنة أُخرى.

ـ تبديل القرآن على ألاّ يحتوي على شجب عبادة الأوثان.

ـ مطالب مادية عجيبة مستحيلة ومتناقضة، كأن يفجر لهم ينابيع، أو يأتي بالله سبحانه وتعالى.

وعندما قدم وفدٌ مسيحيٌ تكوّن من عشرين رجلاً من قبل أساقفة الحبشة لتقصّي الحقائق في مكة والتعرّف على الإسلام، وزيارة النبي الأكرم ﷺ في مكّة، فجالسوه في المسجد وكلّموه وسألوه بعض المسائل، حتى عرض عليهم دينه وقرأ عليهم آيات من القرآن الكريم، فتأثرت نفوسهم وآمنوا به وصدّقوه.

وكان أبو جهل قد شاهد ما حدث فوبّخهم على موقفهم وبما عملوا دون أن يؤدّوا عملهم كوفد من بلدهم، إلاّ أنّهم لم يردوا عليه إلاّ بخير. فكان لهذا الموقف أثره السيء في قريش دفعهم إلى تكوين وفد من «النضر بن الحارث وعقبة

ابن أبي معيط» للسير إلى أحبار يهود المدينة وسؤالهم عن دين الرسول ﷺ فأخبرهم اليهود أن يسألوه عن ثلاث، إذا عرفها فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فهو متقوّل.

١. عن فتيه ذهبوا في الدهر الأوّل.

٢. عن رجل طوّاف.

٣. عن الروح، ماهي؟

فأجابهم الرسول ﷺ بالآيات القرآنية، عن الروح في الآية ٨٥ من سورة الإسراء، وأصحاب الكهف وذي القرنين في سورة الكهف.

فالنبي ﷺ قابل تلك الآراء الشاذة والمقترحات المؤذية بصبر عظيم وثبات هائل، حرصاً منه على إبلاغ رسالته.

وبعد هذه الخطة الفاشلة، نفذوا خطة أُخرى وهي: منع كلّ من رغب في الإسلام وقدم إلى مكّة للتعرف على النبي ﷺ والاتّصال به، وذلك بنشر الجواسيس في الطرقات للتعرض لهؤلاء ومنعهم من الوصول إلى النبي ﷺ، وممّن تعرضوا له في الطريق: الشاعر الأعشى، الذي قدم إلى مكّة ليهدي للرسول أبياتاً شعرية ويعلن إسلامه على يديه، فأقنعوه بالعودة إلى بلده بعد أن أخبروه أنّ النبي ﷺ يحرم الخمر، وكان الأعشى يحب الخمر والنساء. وقد مات في نفس العام فلم يفد على رسول الله ﷺ.[١] كما تعرّضوا للطفيل بن عمرو الدوسي الذي خشيت قريش أن يقوم بالاّتصال بالنبي ﷺ وهو شاعر حكيم، صاحب نفوذ وكلمة مسموعة في قبيلته، فخوّفوه من كلام النبي ﷺ وسحره. إلاّ أنّه عندما سمع شيئاً من أقوال الرسول ﷺ دون وعي منه، أحسن القولَ فأسلم وشهد شهادة الحقّ، ورجع إلى

---

١. السيرة النبوية:١/ ٣٨٦.

بلاده داعياً قومه إلى الإسلام، إلى أن تـمّ اتصاله بالنبي ﷺ بخيبر فبقي معه حتى قبض ﷺ ثمّ شارك المسلمين بعد ذلك في معارك اليمامة زمن الخلفاء الراشدين، وقتل فيها.[١]

وتطورت وسائل وأساليب قريش في التخلّص من دعوة النبي ﷺ وإيقاف زحف تلك الدعـوة الإسلامية واتّساعها في مدّة غير طـويلة، إلى فـرض حصار اقتصادي قويّ على النبي ﷺ والمسلمين، تُقطع به كلّ الشرايين الحيوية لهم، فتحدّ بذلك من سرعة انتشار الدين،وتخنـق مؤسسه وأنصاره. ولهذا وقّع زعماء قريش في دار الندوة ميثاقـاً كتبه: «منصور بن عكـرمة» و علّقوه في جوف الكعبـة، وتحالفوا على الالتزام ببنـوده حتى الموت، وذلـك في السنة السـابعة مـن البعثة. وقـد ضم الميثاق البنود التالية:

١. عدم التعامل التجاري مع النبي ﷺ وأنصاره.

٢. عدم التزاوج منهم.

٣. عدم التحدّث معهم أو تناول الطعام معهم.

٤. وأن يكونوا يداً واحداً على محمّد ﷺ وأنصاره.

فما كـان من «أبي طـالـب» إلاّ أن طلب مـن بني هـاشـم وبني المطلـب، الاستعداد للدفاع عن رسول الله ﷺ والحفاظ على حياته وسلامته، على أن يستقرّوا خارج مكّة في شعب بين جبال مكّة عُرِفَ بشعب أبي طالب، والذي شمل بعض البيوت البسيطة، كما عيَّن بعض الرجال في جوانـب مختلفة ومتفرقة، لمراقبة الطرق وحراسة المكان تحسباً لأي طارئ.[٢]

---

١. السيرة النبوية: ١/ ٣٨٢.

٢. السيرة النبوية: ١/ ٣٥٠؛ تاريخ الطبري: ٢/ ٧٨.

ويشهد التاريخ أنّ أقوى العوامل في ثبات أقلية وصمودها في وجه الأكثرية هو: قوة الإيمان و الاعتقاد، وهذا ما تجلّى في أبي طالب و بني هاشم في هذه المأساة.

فقد استمر الحصار ثلاثة أعوام، جاع فيها الأطفال والكبار متحمّلين قسوة الحال، فكان يعيشُ الفردُ منهم على تمرة واحدة طوال اليوم، وربما تقاسمها اثنان.

ولمّا كان لايُسمح لهم بالخروج من الشعب إلاّ في الأشهر الحرم حيث يسود الأمن في أنحاء الجزيرة العربية، فيخرج بنو هاشم للشراء والبيع ثمّ العودة إلى الملجأ، فإنّ النبي ﷺ كان يستغل هذا الموسم في نشر دينه ودعوته. إلاّ أنّ تجّار قريش كانوا يزيدون في سعر السلعة إذا أرادها مسلمٌ، على أن يقوم أبو لهب والوليد بن المغيرة بتعويض خسارة هؤلاء التجار. كما أنّهم عينوا الجواسيس على الطرق المؤدية للشعب حتى يمنعوا الاتّصال بالمسلمين. إلاّ أنّ بعضاً من أنصار النبي ﷺ كان يوصل الطعام إليهم سراً خلال الليل كما أنّ قريشاً كانوا يصادرون مال كلّ من أراد التعامل مع أصحاب الشعب، في الوقت الذي اشتدّ إيذاؤهم لمن أعلن إسلامه.

ولكنّهم تأكدوا بعد فترة ليست قليلة بأنّ حصارهم هذا لم يأت بنتيجة مرجوة، ولم يتحقّق هدفهم منه و من غيره من الوسائل والأساليب، ففكروا في نقض الميثاق بأيّ شكل. فقد صرّح «زهير بن أبي أُميّة» في مجلس قريش في المسجد الحرام بعدما اتّفق مع عدد آخر من المعارضين لمقاطعة بني هاشم:

يا أهل مكّة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكىٰ لا يُباع لهم ولا يُبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تُشَقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

وقام «المطعم بن عدي» إلى الصحيفة ليشقّها، فوجد أنّ الإرضة قد أكلتها

إلاّ عبارة :«باسمـك اللّهم» فأسرع « أبو طالب» إلى الشِّعـب يخبر الرسول ﷺ بما جرى، وانفك الحصار وعاد المحاصرون إلى منازلهم مرّة أُخرى. وكان النبي ﷺ قد عَلِم بـأمر تقطيـع الصحيفة والإرضةالتـي أكلتها إلاّ اسم الله، فـأخبر أبا طـالب بذلك، الـذي قام بإخبار زعماء قريـش بذلك، واتّفق معهم على: إن كـان حقّاً ما ذكر الرسول ﷺ فاتّقوا الله وارجعوا عما أنتم عليه من الظلم والجور وقطيعة الرحم، و إن كان باطلاً دفعتـه إليكم، فإن شئتم قتلتُموه و إن شئتم استحييتمـوه.وفقالوا: رَضينا ، وتعاقدوا على ذلـك. إلاّ أنّهم نقضوا اتّفاقهم و نكثوا عهدهـم لما شاهدوا وتأكدوا ما قاله النبي ﷺ بل ازدادوا شراً وعناداً، ورجـع بنو هاشم مـرّة أُخرى إلى الشِّعب محاصَرين فيه فترة أُخرى، حتى نقضها «هشـام بن عمرو» فانتهى الحصار الاقتصادي لبني هاشـم في منتصف شهر رجب من السنةِ العـاشرة للبعثة النبوية الشريفة.

و إلى جانب ذلك، فـإنّ أفراداً من المسلمين تعرّضوا لإيذاء قـريش وتحمّلوا أشدّ أنواع العذاب، واشتهر منهم:

١ . بلال الحبشي، الـذي كان غلامـاً لـ«أُميّة بـن خلف» و هو أشـدّ أعداء النبيﷺ فعمد إلى تعذيب هذا الغلام انتقاماً و تشفياً من الرسول ﷺإذ أنّه تردد ـ أي أُميّة ـ من إلحاق الأذى به ﷺ خوفاً من عشيرة النبي ﷺ الحامية له.[1]

٢ . وعمار بـن ياسر، الـذي كـان والده مـن السـابقين إلى الإسلام، فعمـد المشركون إلى إيـذائهم وتعـذيبهم بعـد ما انضمـوا إلى المسلمين، فكانـوا يُخرِجون «عماراً ويـاسر وسمية» في وقـت الظهيرة ويبقونهم طـويـلاً تحت أشعة الشمـس، حتى مـات ياسر، كما طعن أبـو جهل بالرمـح سُميّة في قلبها فماتـت، فاعتُبرا أوّل

١ . قتله بلال بالإضافة إلى ابنه بعد أن أُسر في معركة بدر.

شهيدين في الإسلام.[١]

أمّا عمّار فقد استخدم التقية للإبقاء على نفسه، حيث تظاهر بترك الدين الإسلامي حسب طلبهم، فانصرفوا عنه وتركوه. ولما ندم على فعله، طَمأنَه النبيُّ ﷺ فقال له: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئن بالإيمان. فقال ﷺ: «إن عادوا فَعُدْ».

٣. «عبد الله بن مسعود» الذي أبدى استعداداً للقيام بتلاوة القرآن جهراً على مسامع قريش في المسجد الحرام، فقرأ ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ* الرَّحْمٰنُ* عَلَّمَ القُرآنَ**﴾ فقام إليه الجميع يضربونه في وجهه وهو يقرأ حتى أُدمي جسمه ووجهه فتركوه، وهو مسرور بما عمله في تمكين قريش من الاستماع إلى كتاب الله تعالى وآياته المباركة.[٢]

٤. وأبو ذر، أيضاً جاهر بالدين حين كان المسلمون يدعون سراً، فقد نادى في المسجد: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله.[٣] ويؤكد التاريخ أنّ نداءه هذا كان أوّل نداء تحدّى جبروت قريش وظلمها، أطلقه رجل غريب عن مكّة وأهلها. فهجم عليه جماعة من قريش وضربوه بشدّة حتى أنقذه «العباس بن عبد المطلب» من الموت. بحجّة أنّه من غفار، وتمر تجارة قريش على بلده، فخافوا على تجارتهم فأمسكوا عنه.

ولما لم يحن الوقتُ بعد للدخول في مواجهات ساخنة مع المشركين، فإنّ الرسول ﷺ أمره بأن يلحق بقومه يدعوهم للإسلام: «إلحق بقومك فإذا بلغك

---

١. بحار الأنوار:١٨/ ٢٤١؛ السيرة الحلبية:١/ ٣٠٠.

٢. السيرة النبوية:١/ ٣١٤.

٣. حلية الأولياء: ١/ ١٥٨، طبقات ابن سعد:٤/ ٢٢٥؛ الاستيعاب:٤/ ٦٣.

ظهوري فأتني».

وقد تمكن من التـأثير في قومه، فأسلم أبواه، ونصف رجـال قبيلته ـ غفار ـ ثمّ أسلـم ا لباقي بعد هجـرة النبي ﷺ إلى المدينة، ثـمّ تبعتها قبيلة «أسلـم» التي وفدت على الرسول ﷺ واعتنقوا الإسلام.

وقد التحق «أبو ذر» بالرسول ﷺ في المدينة وأقام بها [1] و هو أوّل المجاهرين بالإسلام، ورابـع أو خامس من أسلـم، فكان من السابقين والأوّلين، الـذين لهم مكانة عظيمة عند الله تعالى ومقاماً لا يضاهىٰ.

---

١. الدرجات الرفيعة: ٢٢٥ـ ٢٣٠.

الفصل الرابع

موقف النبيّ ﷺ

من إيذاء الكفّار للمسلمين

- الهجرة إلى الحبشة
- الإسراء والمعراج
- سفره ﷺ إلى الطائف
- المرحلة الجديدة في الدعوة ونتائجها: بيعة العقبة
- الهجرة الكبرى
- الرسول ﷺ في المدينة

مواجهة المسلمين

أمام أفعال قريش

١ . الهجرة إلى الحبشة

تعتبر هجرة فريق من المسلمين إلى الحبشة دليلاً بارزاً على إيمانهم وإخلاصهم العميق لدينهم وربّهم، فقد قرّر فريق من الرجال والنساء، بهدف الحفاظ على عقيدتهم، والتخلّص من أذى قريش، والإقامة في مكان آمن يقيمون فيه شعائرهم بحرية ويعبدون الله الواحد، أن يغادروا مكة إلى جهة تحقّق أهدافهم، فنصحهم النبي ﷺ بالإتجاه إلى الحبشة قائلاً: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صِدقٍ حتّى يجعل الله لكم فَرَجاً ممّا أنتم فيه».

لماذا اختار الرسول ﷺ تلك الأرض؟ ويتضح السّر إذا درسنا أوضاع الجزيرة العربية والمناطق المجاورة لها. فالهجرة إلى المناطق العربية التي سكنها المشركون والوثنيون كانت تنطوي على خطر كبير على هؤلاء الأفراد من المسلمين، إذ أنّهم سيمتنعون عن قبولهم في أرضهم إرضاءً لقريش أو وفاءً وتعصّباً لدين الآباء. وكذلك لم تصلح المناطق التي عاش بها اليهود والنصارى لذلك إذ أنّ

الصراع المذهبي والطائفي كـان شائعاً بينهما، فلم تكن الأوضاع لتسمـح بدخول طرف ثالـث في حلبة الصراع، كما أنّ هؤلاء الفريقين ــ اليهود والنصارى ـ كـانوا يحتقرون العنصر العربي أساساً، ممّا يمنع التعايش معهم.

أمّا المناطق الخارجية، فإنّ اليمن كـانت تحت حكم الفرس، الذين لم يقبلوا بدعوة النبي ﷺ فيما بعد، حتى إنّ إمبراطـور فارس طلب من عـامله على اليمن، القيام بالقبـض على الرسول ﷺ وإرسالـه إليه. وكذلـك الحيرة فقد كـانت تحت النفوذ الإيـراني وسيطرتـه. أمّا الشـام فكانت بعيـدةً عن مكّـة المكرّمـة، لم تصلح للجوء المسلمين إليهـا، كما أنّها كانـت سوقـاً لقريـش تربـط سكانها بهم روابـط وعلاقات وثيقة، وهي علاقات اقتصادية قوية.

ولذا فـإنّ الفريق المؤمـن غادر مكة ليـلاً في غفلة من المشركين نحـو ميناء جدّة للسفر عبر مينائها إلى أرض الحبشة، حيث وصلوا في الوقت الذي كانت فيه سفينتان تجاريتان على أُهبة الإقلاع، فبادرا لمسلمـون إلى ركبوها لقاء نصف دينار عن كلّ راكب. وكان الفريق مكـوناً من عشرة أو خمسة عشر شخصاً، بينهم أربع من النسوة المسلمات، ولم يكـونوا من قبيلة واحـدة، بل انتمى كلّ واحـد منهم إلى قبيلة معينة. وقـد حدث ذلك في شهر رجـب في السنة الخامسة من مبعـث النبي ﷺ.[1]

و قـد حـاول المشركـون في مكّـة اللحاق بهم، فبعثـوا جماعـة مـن رجـالهم لإعادتهم إلى مكّـة، إلاّ أنّ السفينة كـانت قـد غادرت الميـناء. وكان رؤسـاء «دار الندوة» بمكة وأقطـابها، يعلمون جيدا أضرار هذه الهجرة وآثارهـا على أوضاعهم،

١. بحار الأنوار: ١٨/ ٤١٢.

ولذا اهتموا في إعادتهم فوراً إلى ديارهم.

وقد تبعت هذه الهجرة، خروج جماعة أُخرى بلغ عددها ٨٣ فرداً على رأسهم: «جعفر بن أبي طالب» ابن عمّ الرسول ﷺ حيث تمّت بحريّة، وقد اصطحبوا فيها نساءهم وأولادهم،إلى أرض الحبشة أيضاً. وقد وجد المسلمون أرضها كما وصفها النبي ﷺ: عامرةً، وبيئة آمنة حرة، تصلح لعبادة الله تعالى بحرّية وأمان. وبيّنت «السيدة أُمّ سلمة» الوضع بقولها: «لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار، النجاشي، أمننا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤذى، ولا نسمع شيئاًنكرهه».

وقد حدثت هذه الهجرة في رجب من السنة الخامسة من النبوة، وهي السنة الثانية من إظهار الدعوة، فأقاموا شعبان ورمضان، وقدموا في شوال، لما بلغهم أنّ قريشاً أسلمت فعاد منهم قوم وتخلف آخرون.[1] إلاّ أنّ ذلك كان كذباً، فلم يدخل منهم مكّة إلاّالقليل، وعادت الأكثرية إلى الحبشة ثانية. وكان ممّن دخل مكّة منهم: «عثمان بن مظعون» الذي دخل بجوار الوليد بن المغيرة، ولكنّه ردّ عليه جواره فاختار جوار الله ليواسي المسلمين ويشاركهم آلامهم ومتاعبهم، ممّا جعله يتلقّى فيما بعد شيئاً من تعذيب الكفّار وأذيتهم فأصابوا عينه.

وحينما علمت قريش ما أصبح فيه المسلمون المهاجرون من أمن وحرّية، ثار فيهم الحسد، وتوجّسوا خيفة من نفوذهم هناك في الحبشة، التي اعتبرت أرضها الآن قاعدة قوية لهم، كما أنّهم تخوفوا من اعتناق نجاشي الحبشة لدينهم، فيكسبوا تأييده، ممّا يدفعه إلى محاربة مكّة فيما بعد للقضاء على حكومة المشركين الوثنيين في

١. الكامل في التاريخ:٢/ ٥٢.

شبه الجزيرة العربية. ولذا فقد اجتمع الأقطاب في «دار الندوة» للتشاور في هذا الأمر الخطير، فاستقر رأيهم على إرسال وفد منهم إلى البلاط الحبشي لاستمالة القواد والوزراء بالهدايا القيمة، لإخراج المسلمين من أرضهم، فقد تحدّدت تعليماتهم إلى رئيس الوفد: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة: ادفعا إلى كلّ بطريقٍ هديته قبل أن تكلّما النجاشي فيهم، ثمّ قدّما إلى النجاشي هداياه، واسألاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلّمهم.

وحينما توجّها إلى الملك الذي تقبّل الهدايا، قالا له: أيّها الملك إنّه قد ضوى ـ أي لجأ ليلاً ـ إلى بلدك منّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك،وجاءوا بدينٍ ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم، فهم أبصر بهم وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

وقد شجعهم على قولهم هذا بطارقتُه الذين حصلوا على الهدايا من قبل، إلاّ أنّ النجاشي الحكيم العادل رفض إجابة مطالبهم دون أن يرجع إلى المسلمين فيرى رأيهم. وعندما حضروا أمامه بقيادة «جعفر بن أبي طالب» الناطق باسمهم، سأله الملك: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومَكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟

فقال جعفر بن أبي طالب بعد أن وصف حالهم قبل الإسلام وكيف أنّ الله هداهم بالنبي ﷺ: وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدّقناه وآمنا به واتّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا

قومنـا فعذبـونا وفتنـونا عـن ديننا ليردّونـا إلى عبادة الأوثـان، وأن نستحلّ مـا كنّا نستحلُّ من الخبـائث، فلمّا قهرونا وظلمونـا وضيّقوا علينا وحالـوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بـلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجـونا ألا نُظلَم عندك أيّها الملك.[1]

وقد أثّـرت كلمات «جعفر» البليغـة وحديثه العـذب تأثيراً عـجيباً في نفس النجاشي حتى أغـرورقت عيناه بالدموع،وخـاصة عندما قرأ عليـه بعض الآيات القرآنية التي تخص عيسى و مريم عليهما السلام فبكى النجاشي وبكى أساقفتُه معه، وقال: «إنّ هذا والـذي جاء بـه عيسى ليخـرج من مشكـاة واحدة»، ويقصـد أنّ القرآن والإنجيل كلام الله و أنهّما شيء واحد. ثمّ التفت نحو موفدي قريش قائلاً: انطلقا فلا والله لا أسلمَهم إليكما.

إلاّ أنّ «عمرو بـن العاص» فكّـر في حيلة جـديدة تخلّصهـم من مـوقفهم السّيء والمخزي، وهي: أن يخبر الملك بما يسيء إلى المسيح عليه السلام فقال في اليوم التالي للملك: إنّهم يقولون في عيسـى بن مريم قولاً عظيماً. ولكنَّ جعفـراً أجاب الملك في ذلك: نقول فيـه الذي جاءنا بـه نبيّنا صلى الله عليه وآله هو عبد الله ورسولـه وروحه وكلمته ألقاهـا إلى مريـم العذراء البتول. ممّـا سرّ النجاشي و رضي بـه وقال: هـذا والله هو الحقّ. وقال للمسلمين: اذهبوا فـأنتم آمنون في أرضي، من سَبّكُم غُـرِم، ما أحبّ أنّ لي دبراً مـن ذهب، وإنّي آذيـت رجلاً منكم. ثـمّ ردّ على وفد قريـش هدايـاهم قائلاً: فلا حاجـة لي بها، فوالله ما أخذ الله منّي الرشـوة حين ردّ عليّ ملكي فآخذ الـرشوة فيـه، وما أطـاع الناس فيّ فـأطيعهم فيـه.[2] فخـرجـوا من عنـده خـائبين

---

١. أوّل الخطاب في ص ٢٠ من الكتاب.

٢. السيرة النبوية: ١/ ٣٣٨؛ إمتاع الأسماع : ٢١؛ بحار الأنوار: ١٨/ ٤١٤.

مقبوحين.

٢. الإسراء والمعراج

بدأ النبي ﷺ رحلته الفضائية من بيت «أُمّ هانئ» أُخت الإمام علي عليه السلام[1] إلى بيت المقدس في فلسطين، والّذي يسمّى المسجد الأقصى، وتفقّد بيت لحم مسقط رأس السيّد المسيح عليه السلام ومنازل الأنبياء وآثارهم، وصلّى عند كلّ محراب ركعتين. ثمّ بدأ في القسم الثاني من رحلته، المعراج إلى السماوات العلى، فشاهد النجوم والكواكب، واطّلع على نظام العالم العلوي، وتحدّث مع أرواح الأنبياء والملائكة، واطلع على مراكز الرحمة والعذاب ـ الجنّة والنار ـ ورأى درجات أهل الجنّة، و تعرّف على أسرار الوجود و رموز الطبيعة، ووقف على سعة الكون وآثار القدرة الإلهية المطلقة، ثمّ واصل رحلته حتى بلغ سدرة المنتهى، فوجدها مسربلة بالعظمة المتناهية والجلال العظيم. وهنا كان قد انتهى برنامج الرحلة، فأُمر بالعودة من حيث أتى، فمرّ في طريق عودته، على بيت المقدس ثانية، ثمّ توجه نحو مكّة، مارّاً على قافلةٍ تجاريةٍ خاصّة بقريش. وبعيرٌ لهم قد ضلّ في البيداء يبحثون عنه، وشرب من مائهم، ثمّ ترجّل عن مركبته الفضائية ـ البراق ـ في بيت أُمّ هانئ، قبل طلوع الفجر. فأخبرها بما حدث، كما كشف عنه في أندية قريش صباح نفس تلك الليلة. إلاّ أنّ قريشاً كعادتها كذّبته وأنكرته، على أساس عدم استطاعة النبي ﷺ القيام بذلك في ليلة واحدة، وطلبوا منه أن يصف بيت المقدس، فوصفه النبي ﷺ وصفاً شاملاً، مع ما شاهده في الطريق، وخاصة عير

---

١. مجمع البيان: ٦/ ٣٩٥؛ السيرة النبوية: ١/ ٣٩٦.

قريش، التي أكد لهم بأنّها الآن في موقع التنعيم، فلم تمض لحظات حتى طلعت عليهم العير، فحدّثهم أبو سفيان بكلّ ما أخبرهم به الرسول من ضياع بعيرهم في الطريق والبحث عنه.[١]

وقد اختلفت الأقوال عن وقت حدوث الإسراء والمعراج، فادّعى «ابن هشام و ابن إسحاق» انّه وقع في السنة العاشرة من البعثة الشريفة، وذهب المؤرّخ «البيهقي» انّه حدث في السنة الثانية عشرة منها، بينما قال آخرون إنّه وقع في أوائل البعثة، في حين أنّ فريقاً رابعاً أكد وقوعه في أواسطها. وربما يقال في الجمع بين هذه الأقوال انّه كان لرسول الله ﷺ معارج متعدّدة.

وهناك اعتقاد أنّ المعراج الذي فرضت فيه الصلاة وقع بعد وفاة أبي طالب عليه السلام في السنة ١٠ من البعثة. والذين تصوّروا أنّ المعراج وقع قبل هذه السنة مخطئون، لأنّ النبي ﷺ كان محصوراً في شعب أبي طالب منذ عام ٨ وحتى ١٠، فلم يكن المسلمون مستعدّين لوضع التكاليف عليهم. و أمّا سنوات ما قبل الحصار، فعلاوة على ضغوط قريش على المسلمين، والتي كانت مانعاً من فرض الصلاة عليهم، فإنّ المسلمين كانوا قلّة، ولم يكن نور الإيمان وأُصول الإسلام قد ترسخت بعد في قلوب ذلك العدد القليل، ولذا يستبعد أن يكونوا قد كلّفوا بأمرٍ زائدٍ مثل الصلاة في مثل تلك الظروف.

أمّا ما ورد في بعض الأخبار والروايات، بأنّ الإمام عليّاً عليه السلام صلّى مع الرسول ﷺ قبل البعثة بثلاث سنوات، فليس المراد منها الصلاة المكتوبة، بل كانت عبارة عن عبادةٍ خاصةٍ غير محدّدة، أو كان المراد منها الصلوات المندوبة

١. بحار الأنوار: ١٨/ ٢٨٣و ٤١٠.

والعبادات غير الواجبة.[١]

وأمّا بالنسبة لما قيل وذكر عن معراج النبي ﷺ جسمانياً أو روحانياً، فقد قيل فيه الكثير، بالرغم من أنّ القرآن الكريم والأحاديث النبوية تؤكّد أنّ ذلك حدث جسمانياً، إلاّ أنّ بعض الآراء ترى أنّ ذلك وقع روحانياً، أي أنّ روح النبي ﷺ طافت في تلك العوالم ثمّ عادت إلى جسده ﷺ مرّة أُخرى، وذهب آخرون إلى أنّ كلّ ذلك حدث في عالم الرؤيا، ورؤيا الأنبياء صادقة.[٢] وربما دلّ تكذيب قريش وانزعاجها واستنكارها لحديث الرسول ﷺ على أنّ ذلك حدث جسمانياً. وإذا كان المراد من المعراج الروحاني هو التفكير في عظمة الحقّ وسعة الخلق والتدبير في مخلوقات الله ومصنوعاته ومشاهدة جماله وجلاله، فلا شكّ أنّ ذلك ليس من خصائص رسولنا الأكرم ﷺ بل إنّ كثيراً من الأنبياء والأولياء امتلكوا هذه المرتبة ، بينما أعتبره القرآن الكريمُ من خصائصه ﷺ ونوع من الامتياز الخاصّ به ﷺ. كما أنّ حالة التفكير في عظمة الخالق والاستغراق في التوجه إليه، كانت تتكرر للرسول ﷺ في كلّ لليلة، وليس ليلة بعينها كما جرى وحدث في المعراج.

أمّا في العلم الحديث، فإنّ القوانين الطبيعية والعلمية الحالية لا تتلاءم مع معراج النبي ﷺ وذلك للأسباب التالية:

١. إنّ الابتعاد عن الأرض يتطلب التخلّص من جاذبيتها، أي إبطال مفعولها، والنبي ﷺ كان قد خرج عن محيط الجاذبية وأصبح في حالة انعدام الوزن، فكيف تمكن أن يطوى هذه المسافات بدون الوسائل والأدوات اللازمة، وعدم

١. يراجع في ذلك الكافي:٣/ ٤٨٢.

٢. نقل العلاّمة الطبرسي في تفسير مجمع البيان إجماع علماء الشيعة على جسمانية المعراج:٦/ ٣٩٥.

توافر الغطاء الواقي، الذي يصون الجسم من التبعثر والذوبان بفعل السرعة الهائلة؟

٢. و كيف تمكن من العيش و الحياة في أعالي الجو بدون وجود أوكسجين؟

٣. و كيف تمكن أن يصون نفسه من الأشعة الفضائية والأحجار السماوية؟

٤. و إذا كان الإنسان يعيش تحت ضغط معين من الهواء لا يوجد في الطبقات العليا من الجو، فكيف حافظ على حياته هناك؟

٥. لا يستطيع أيّ جسم أن يتحرّك بسرعة تفوق سرعة النور، التي هي ٣٠ ألف كم في الثانية، فكيف استطاع النبي ﷺ السير بتلك السرعة الهائلة ويرجع إلى الأرض سالمَ الجسم؟!

و الجواب على ذلك سهل ويسير، فإنّ البشر استطاع بأدواته وآلاته العلمية والتكنولوجية أن يعالج مشكلات عديدة في مجال ارتياد الفضاء، مثل مشكلة الأشعة الفضائية وانعدام الغاز اللازم للتنفس، كما أنّ العلماء يخطّطون للعيش على سطح الكواكب كالقمر والمريخ، وبذا فإنّ العلم يؤكّد سهولة ارتياد الفضاء وعدم استحالته، فإذا كان البشر في إمكانه أن يقوم بذلك عن طريق الأدوات والآلات العلمية، فإنّ الأنبياء يمكنهم فعلَها بواسطة قدرة الله سبحانه و تعالى وفعله. فالنبي ﷺ عرج بعناية وقدرة الله الذي خلق الوجود كلّه، وأقام هذا النظام البديع. فجميع العلل الطبيعية والموانع الخارجية مسخَّرة لله تعالى وخاضعة لإرادته، ومطيعة لأمره. وكأنّ النبي ﷺ يخبر البشرية وحتى الّذين يعيشون في هذا القرن: إنّني فعلت هذا بدون أيّة وسيلة، وإنّ ربّي قد منّ عليّ وعرّفني على نظام السماوات والأرض، وأطلعني بقدرته وعنايته على أسرار الوجود و رموز الكون.

وقال الإمام موسى الكاظم عليه السلام في ذلك: «إنّ الله يوصَف بمكان ولا يجري عليه زمان، ولكنّه عزّ وجلّ أرادَ أن يشرف به مـلائكته وسكان سماواته، ويكرمهم بمشاهدته، ويريه من عجائب عظمته مـا يخبر به بعد هبوطه، وليس ذلك على ما يقوله المشبِّهون ، سبحان الله تعالى عمّا يصفون».[١]

٣. سفر النبي صلى الله عليه وآله إلى الطائف

توفيت السيدة خديجة عليها السلام بعد وفاة أبي طالب، بشهر وخمسة أيّام، في السنة العاشرة من البعثة.[٢] وهي التي سمّاها الرسول صلى الله عليه وآله عام الحداد أو الحزن. ومنذ هذا الوقت واجه صلى الله عليه وآله ظروفاً صعبة قاسية قلّما واجهها مـن قبل. فقد اصطدم منذ بداية السنة الحادية عشرة بأحـوال قاسية مفعَمة بالعداء والحقـد والأخطار التي هدّدت حياته الشريفة، بل افتقاد إمكانية نشر الدعوة.فلمّا هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وآله من الأذى ما لم تكن تطمع به في حيـاة أبي طالب، حتى اعترضه سفيهٌ مـن سفهاء قريـش فنثر على رأسه تـراباً. وفي البيـت عندما بكـت ابنته على وضعه هذا قال: «ما نالت منّي قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب».[٣]

وقد دفع هذا الأمـر المتردّي، أن يبحث الرسول صلى الله عليه وآله عن بيئة أُخرى أفضل مـن بيئته لنشر الـدعوة فيهـا، فـاختار الطـائف التي كـانـت تعتبر مركـزاً هامـاً آنذاك،فقرر السفر إليها وحيداً لمقابلـة زعماء ثقيف، لعلّه يكسب نجاحاً في مهمته

١. علل الشرائع:٥٥؛ البحار:١٨/ ٣٤٧؛ تفسير البرهان:٢/ ٤٠٠.
٢. تاريخ الخميس:١/ ٣٠١.
٣. السيرة النبوية:١/ ٤١٥؛ بحار الأنوار: ١٩/ ٥.

أو أنصاراً جدداً.

إلاّ أنّ عرضه لم يؤثر فيهم، بل إنهّم ردّوا عليه بصبيانية أوضحت تملّصهم من قبول الدعوة أو اعتناق الدين، بل أنّهم تمادوا في سلوكهم العدواني فأحاط به جمعٌ كبير منهم يسبّونه ويصيحون به، فالتجأ إلى بستان «عتبة وشيبة ابني ربيعة» للتخلّص من هؤلاء السفهاء، وعمد إلى ظل جلس فيه وهو يتصبب عرقاً، فقد ألحقوا الأذى بمواضع عديدة من بدنه الشريف، كما أنّ رجليه سالت منهما الدماء، ولما دعا الله سبحانه وتعالى أن يعينه على هؤلاء الأشرار، فقد تقدّم إليه ابنا ربيعة ـ اللّذان كانا ينظران إليه و يريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف ـ بطبق من عنب قدمه إليه ﷺ غلام لهما اسمه «عداس النصراني» من أهل نينوى، فلمّا رأى ما يعلمه الرسول ﷺ من علوم عن المسيح عليه السلام أسلم على يديه.

إلاّ أنّ النبي ﷺ لم يتمكن من الرجوع إلى مكّة بسهولة، حيث خاف أذى المشركين، ممّا جعله يترك «نخلة» وهي واد بين الطائف ومكة، إلى حراء، فالتقى رجلاً من بني خزاعة طلب منه أن يخبر «المطعم بن عدي» بحالته، ويسأله أن يجير رسول الله ﷺ حتى يدخل مكة في أمان.

ورغم أنّ «المطعم» كان وثنياً، إلاّ أنّه قبل أن يجيره ﷺ فدخل الرسول ﷺ مكة ليلاً، ونزل في بيت «مطعم» و بات فيه، ثمّ دخل في الصباح مع أهل بيته إلى المسجد الحرام ثمّ إلى منزله.[1]

ولم ينس الرسول ﷺ عمله الطيب هذا، بل تذكّره حتى بعد وفاة المطعم، إذ أنّه أعلن في معركة بدر عن استعداده للإفراج عن جميع الأسرى لو كان حيّاً،

---

١. السيرة النبوية:١/ ٣٨١؛ بحار الأنوار: ١٩/ ٧.

تقديراً لما قام به من إجارة وخدمة كبيرة له.

وكان النبي ﷺ يستخدم كلّ وسيلة وطريقة لنشر دعوته، فكان يقوم بالدعوة في كلّ وقت وكلّ مكان، منتهزاً الفرص المناسبة لذلك، مثل استغلاله لأسواق العرب الشهيرة: عكاظ والمجنة وذي المجاز، حيث كان الخطباء والشعراء يقفون فيها ليلقوا ما عندهم من شعر وخطب، وفكان النبي ﷺ يقف على مكان مرتفع خاطباً: «قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتذلّ لكم العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة».[1]

كما أنّه كان يلتقي في مواسم الحج برؤساء القبائل وأشرافها يعرض عليهم دينه، ويدعوهم إلى الله سبحانه، ويخبرهم بأنّه نبي مرسل، ويقول ابن هشام في ذلك: كان ﷺ لا يسمع بقادم من العرب إلى مكة له اسم وشرف إلاّ تصدّى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده.

١. طبقات ابن سعد: ١/ ٢١٦.

المرحلة الجديدة في الدعوة و نتائجها المؤثرة

٤ . بيعة العقبة

سكنت يثرب قبيلتا الأوس والخزرج في القرن الـرابع الميلادي بعد هجرتهم من اليمن، وهـم من القحطانيين . كما سكن بجانبهم اليهـود القادمين من شمال الجزيرة العربية. وكثيراً ما كان يحضر منهـم جماعة إلى مكّة، فكان النبي ﷺ يلتقي بهم ويتصل معهم عارضاً عليهم دينه، وقد كان لهذه اللقاءات والاتّصالات أثرها فيما بعد ودافعاً لهجرة الرسول ﷺ إلى يثرب، فقد كان حجاجهم ينقلون أخباره ﷺ إلى أهاليهم، ممّا مكنهم التعرف عليـه وعلى أهدافه. وقد تمّت تلك الاتّصالات فيما بين سنوات ١١، ١٢، ١٣ من البعثة.

ومن أشهـر من تشرّف بمقابلة الـرسول ﷺ «سويد بن الصـامت» الذي أسلم ونشر الإسلام بين قومه، إلاّ أنّ الخزرج قتلتـه قبل يوم بعاث.[١] و «إياس بن معاذ» الذي رأى في إسلام أهله تخلّصاً من النزاع والتناحر بينهم، ليصبحوا بفضل الدين الجديد إخوة تزول بينهم أسباب العداء والقتال.

وكذلك تمّت مبايعة ستة أفراد من الخزرج والإيمان به وبالإسلام: إنّا قد تركنا

---

١ . بعاث، موضع جرت فيه حرب بين الأوس والخزرج.

قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ مثـل ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهـم فندعـوهم إلى أمرك،ونعـرض عليهم الذي أجبنـاك إليه مـن هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعزّ منك.[١]

وكان لهؤلاء تأثيرهم الإيجابي في أهل يثرب، حيـث أسلم عددٌ منهم، وقدم في السنة التـالية ١٢ من البعثـة، اثنا عشر رجـلاً منهم، عقدوا مـع النبي ﷺ بيعة العقبـة، وهـي أوّل بيعـة في الإسـلام، وكـان أبـرزهـم: أسعـد بـن زرارة، وعبـادة الصامت.

وكان نصّ البيعـة، بعد الاعتراف بالإسلام والإيمان بـالله وبرسوله: «بـايعنا رسول الله ﷺ على ألاّ نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني،ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيـدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف» ويرد عليهـم الرسول ﷺ: «إن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عزّوجلّ، إن شاء عذّب وإن شاء غفر».

وطلبوا من النبي ﷺ أن يرسل إليهـم من يعلّمهم القرآن والـدين، إذ أنّهم نشطوا في نشر الإسلام بعـد عودتهم إلى يثرب، فبعث إليهـم: «مصعب بن عمير» الداعية النشـط الذي تمكن من أن يجمع المسلمين في غيـاب الرسول ﷺ ويؤمهم ويصلّي بهم.[٢]

وهكذا فقد أحـدث تقدُّم الإسلام في يثرب، هيجاناً كبيراً، وشـوقاً عجيباً في نفوس المسلمين من أهلهـا، فانتظروا حلول مـوسم الحجّ للإلتقاء بـالرسول ﷺ، فخـرجت قـافلة كبيرة منهـم ضمت ٥٠٠ نفـر، فيهم ٧٣ مسلماً بينهـم امرأتـان،

---

١. تاريخ الطبري:٢/ ٨٦؛ السيرة النبوية: ١/ ٤٢٧؛ بحار الأنوار: ١٩/ ٢٥.

٢. السيرة النبوية:١/ ٤٣٤؛ بحار الأنوار: ١٩/ ٢٥.

فالتقوا بالرسول ﷺ الذي واعدهم بالعقبة: «موعدكم العقبة في الليلة الوسطى من ليالي التشريق»، وهي الليلة ١٣ من شهر ذي الحجّة، فاجتمع بهم مع عمّه «العباس بن عبد المطلب» بعد أن مضى ثلث الليل ونام الناس، حتى لا يشعروا بخروجهم.

فتكلّم فيهم العباس قائلاً: إنّ محمّداً منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، فهو في عزّ من قومه ومنعة في بلده، وإنّه قد أبى إلاّ الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنّكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممّن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنّكم مسلّموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنّه في عزّ ومنعة من قومه وبلده.

ثمّ تكلّم الرسول ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغّب في الإسلام ثمّ قال: «أبايعكم على أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم». فبايعوه على ذلك و هم في حماس وسرور عظيم.

كما أنّ النبي ﷺ عاهدهم على أن يبقى معهم، ويكون بجانبهم في سلمهم وحربهم: «أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» ثمّ قال لهم: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم». فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، فقال ﷺ: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي ـ أي المسلمين ـ فأُبايعكم على أن تمنعوني ممّا تمنعون نساءكم وأولادكم». فقالوا: نعم. فبايعوه على ذلك».

وكان النقباء ، ٩ من الخزرج و٣ من الأوس، وقد انفضّ الجمع بعد ذلك، بعد أن وعدهم الرسول ﷺ أن يهاجر إليهم في الوقت المناسب.[1]

---

١. بحار الأنوار: ١٩/ ٢٥؛السيرة النبوية:١/ ٤٤١؛طبقات ابن سعد:١/ ٢٢١.

أمّا بخصوص قبول أهل يثرب الدين الإسلامي أسرعَ من أهل مكّة الذين رفضوه خلال ثلاثة عشر عاماً، فإنّ هناك عاملين هامين كان لهما التأثير المباشر القويّ في ذلك:

١ . وجود اليهود بالمدينة، وقيامهم بنشر الأخبار عن ظهور نبي جديد ودين جديد، ممّا هيّأ أهلها لقبول هذا الدين الذي كانوا ينتظرونه، الأمر الذي جعلهم أسرع في تقبلهم للدعوة خلال البيعة الأُولى، حين قال بعضهم لبعض: والله إنّه للنبيّ الذي توعّدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه.

٢ . كما أنّ الحروب الطويلة التي جرت بين أطراف أهل يثرب، والتي استمرت مائة وعشرين عاماً، قد أنهكتهم وكادت أن تذهب بما تبقّى من رمقهم، فملّوا الحياة، وفقدوا كلّ أمل في تحسن الأحوال والأوضاع، فبحثوا عن مخلّص لما هم فيه من حالة سيئة ومشكلات مزمنة. ولهذا تمنّوا أن يضع النبي ﷺ حداً لأوضاعهم المتردية فقالوا: «عسى أن يجمعهم الله بك، فإن جمعهم الله بك فلا رجل أعزّ منك».

وقد أحدث كلّ ذلك خوفاً عجيباً في قلوب قادة قريش وسادة مكة المشركين المتغطرسين، إذ أنّ ذلك يعني أنّ المسلمين وجدوا قاعدة قوية في قلب الجزيرة العربية، تجمع كلّ طاقات المسلمين المبعثرة، و تعمل معاً في نشر دينهم وعقيدتهم، ممّا سيشكل خطراً جديداً يهدّدهم في الصميم، ولهذا بادَرتْ قريشٌ في الاتّصال بالخزرجيّين للاستفسار عمّا حدث في العقبة. فحلف لهم المشركون من أهل يثرب أنّه لم يحدث ما يؤذيهم أو يهدد مصالحهم، ولم يعلموا عنه، وهم في قولهم صادقون، إذ أنّهم لم يعلموا بما حدث في العقبة.

وحاولوا إلقاء القبض عليهم قبل خروجهم من مكّة، إلاّ أنّهم كانوا قد

توجهوا قبل ذلك نحو المدينة، فظفروا بـ «سعد بن عبادة» الذي تولّوا ضربه بعد ربط يديه إلى عنقه، حتى خلّصه منهم: «المطعمُ بن عدي».[١]

وفي المدينة المنورة، كان قد أسلم فيها كلُّ قبيلة «بني عبد الأشهل» قبل أن يروا النبي ﷺ فأصبحوا من الدعاة إلى الإسلام والمدافِعين عن عقيدة التوحيد، بفضل نشاط الدعاة: مصعب بن عمير، وأسعد بن زرارة، اللّذين أثّرا في إسلام قادة القبيلة: أُسيد بن حضير وسعد بن معاذ، ثمّ إسلام الباقي.[٢]

وعندما اشتدّ إيذاء قريش للمسلمين بعد إسلام جماعة من أهل يثرب، طلب بعضُهم النجاة بنفسه والهجرة إلى أيّ مكان، فاستمهلهم الرسول ﷺ وقال: «لقد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها».[٣]

وبذا فقد ترك المسلمون مكّة وهاجروا إلى المدينة تدريجياً، حتّى لا تعلم بهم قريش، إلاّ أنّ زعماءها فطنوا لسرهم، فمنعوا السفر والتنقل لأيّ مسلم، وإعادة كلّ من وجدوه أثناء الطريق، وحبس زوجة كلّ مسلم أراد الهجرة. ولكن لحسن الحظ، لم يثمر كلّ ذلك، فإنّ معظم المسلمين تمكّنوا من الفرار والهجرة إلى يثرب، ما عدا النبي ﷺ والإمام علي عليه السلام و أبو بكر، وعدد قليل من المسجونين والمرضى من المسلمين. حتى حان الوقت الذي أقرّ فيه النبي ﷺ الهجرة من مكة في شهر ربيع الأوّل من السنة ١٣ من البعثة النبوية المباركة.

٥. الهجرة الكبرى

اجتمع رؤساء قريش في دار الندوة، للتشاور فيما حدث أخيراً، من تجمع

---

١. السيرة النبوية:١/ ٤٤٩.
٢. إعلام الورى :٥٩؛ بحار الأنوار:١٩/ ١٠.
٣. طبقات ابن سعد:١/ ٢٢٦.

القوى والعناصر الإسلامية وتمركزها في المدينة، فاتّخذوا قراراً قاطعاً وحاسماً وخطيراً، وهو القضاء على النبي ﷺ والتخلص منه بقتله، بواسطة اشتراك جميع القبائل في هذا العمل الإجرامي حيث قال المقترح: فتختاروا من كلّ قبيلة رجلاً قوياً ثمّ تسلحوه حساماً عضباً،وليهجموا عليه بالليل ويقطّعوه إرباً إرباً، فيتفرّق دمه في قبائل قريش جميعها، فلا يستطيع بنو هاشم و بنو المطلب مناهضة قبائل قريش كلّها في صاحبهم، فيرضون حينئذٍ بالدية منهم. فاستحسن الجميع هذا الرأي واتّفقوا عليه، ثمّ اختاروا القَتَلَة، على أن يؤدّوا مهمتهم بالليل أثناء الظلام.[1]

إلاّ أن جبرائيل عليه السلام نزل على الرسول ﷺ وأبلغه بمؤامرة المشركين فقرأ عليه قول الله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يخرجُوكَ وَيمكرونَ وَيَمْكرُ اللهُ واللهُ خيْر الماكِرين**﴾ .[2]

ثمّ إنّ النبي ﷺ قرر أن ينام شخص في فراشه ليتصوّر المشركون أنّه ﷺ موجود في منزله لم يبرحه، فيرتكز عملهم على محاصرة البيت دون الاهتمام بمراقبة الطرقات في نواحي مكة. فنام الإمام علي عليه السلام في فراش النبي ﷺ وحاصر المنزل أربعون فرداً من قريش، وخرج النبي ﷺ من الباب دون أن يشعر به أفراد قريش المكلّفون بقتله، حينما قرأ ﷺ سورة «يس» إلى قوله: ﴿**فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾ . وخروج النبي ﷺ بهذه الصورة والكيفية، فسرّه البعض بأنّ القوم المحاصرين كانوا نياماً لحظة خروجه، إلاّ أنّ آخرين يرون إنّه خرج من البيت عن طريق الإعجاز والكرامة دون أن يروه ويحسّنوا به.

وقبيل طلوع الفجر عند ساعة الصفر، هجم المتآمرون على فراش النبي ﷺ

---

١. طبقات ابن سعد: ١/ ٢٢٧؛ السيرة النبوية:١/ ٤٨٠.

٢. الأنفال:٣٠. ليثبتوك: ليسجنوك.

ففوجئوا بوجود الإمام علي عليه السلام يكشف عن نفسه، فغضبوا وندموا على انتظارهم الطويل حتّى الفجر، ولاموا أبا جهل الذي منعهم من دخول البيت فحمّلوه مسؤولية فشل الخطة، ولكنّهم أسرعوا في وضع خطه جديدة لترتيب أمر ملاحقته والقبض عليه.

وكان النبي صلى الله عليه وآله وأبو بكر قد أمضيا ليلة الهجرة وليلتين أُخريين في غار ثور الواقع في جنوب مكة، وذلك ليعمّي على قريش فلا يتبعوا أثره، إذ أنّ الطريق إلى المدينة يقع في شمال مكّة.

وبالنسبة إلى مصاحبة أبي بكر للنبي صلى الله عليه وآله فهي مسألة تاريخية غامضة، فيعتقد البعض أنّها كانت بالصدفة، أي أنّه تقابل معه في الطريق فاصطحبه معه إلى غار ثور، بينما يرى آخرون أنّ النبي صلى الله عليه وآله ذهب في نفس الليلة إلى منزل أبي بكر فخرجا في منتصف الليل إلى الغار.[١] في حين أنّ فريقاً ثالثاً يذهب إلى أنّ أبا بكر جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فأرشده الإمام علي عليه السلام إلى مخبأ النبي صلى الله عليه وآله.

أمّا قريش فقد بادرت إلى بثِّ العيون والجواسيس في طرقات مكّة، ومراقبة مداخلها ومخارجها، وبعثت القافلة تقتص أثره صلى الله عليه وآله في كلّ مكان وخاصة طريق مكة ـ المدينة، كما عيّنت مائة من الإبل جائزة لمن يقبض عليه صلى الله عليه وآله ويردّه إليهم، أو لمن يأتي عنه بخبر صحيح.

وقد تمكّن المتتبعون لأثر قدم الرسول صلى الله عليه وآله من الوصول إليه عند باب الغار، إلاّ أنّهم استبعدوا وجودهما فيه، نظراً لنسج العنكبوت وبيض الحمام. فاستمرّت محاولات البحث ثلاثة أيّام بلياليها دون جدوى.

---

١ . تاريخ الطبري:٢/ ١٠٠.

وقد تردّد على النبي ﷺ خلال تواجده في الغار: علي عليه السلام وهند بن أبي هالة (ابن خديجة) حسب رواية الشيخ الطوسي في أماليه، وعبد الله بن أبي بكر وعامر ابن فهيرة راعي أغنام أبي بكر، حسب رواية كثير من المؤرّخين.

والنقطة الهامة في هذه القضية هي مفاداة الإمام علي عليه السلام النبيّ بنفسه. وتعريض حياته لخطر الموت في سبيل الدين والإسلام وحياة النبي ﷺ، فهو نموذج رائع من الحبّ الحقيقي للحقّ، وقد مدحه الله تعالى في كتابه العظيم قائلاً: ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاء مَرْضاتِ اللهِ وَاللهُ رءُوفٌ بِالْعِبادِ﴾.[١]

وقد دفعت هذه العملية التضحوية الكبرى كبار علماء الإسلام إلى اعتبارها واحدة من أبرز وأكبر فضائل الإمام عليه السلام وإلى وصفه بالفداء والبذل والإيثار، واعتبار الآية المذكورة في شأنه من المسلمات قلّما بلغ الحديث في التفسير والتاريخ إليها.[٢]

وقد طلب النبي ﷺ من الإمام علي عليه السلام أن يبتاع بعيرين له ولصاحبه، فقال أبو بكر: قد كنت أعددتُ لي ولك يا نبي الله راحلتين نرتحلهما إلى يثرب، فدفع إليه الرسول ﷺ ثمنهما.[٣]

كما أوصى النبي ﷺ علياً عليه السلام بأن يؤدّي أمانته على أعين الناس، وأمره بترتيب رحلة الفواطم: فاطمة الزهراء عليها السلام، وفاطمة بنت أسد أُمّ الإمام علي عليه السلام وفاطمة بنت الزبير، ومن يريد الهجرة معه من بني هاشم إلى يثرب، وما يحتاجون له من زاد وراحلة.

---

١. البقرة:٢٠٧.
٢. مسند أحمد:١/ ٨٧؛ كنز العمال:٦/ ٤٠٧؛ الغدير:٢/ ٤٧.
٣. الكامل:٢/ ٧٣؛ السيرة الحلبية:٢/ ٥٣.

وقد هيّأ الإمام عليه السلام أوّلاً ثلاث رواحل ودليلاً أميناً يدعى «أريقط» للترحال إلى المدينة، فخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع صاحبه متوجهَين إلى يثرب سالكَين الخط الساحلي.

ومن هذه الليلة يبدأ تاريخ المسلمين، حيث بدأوا يقيسون كلّ ما يقع من الحوادث بذلك العام فيحددون تاريخه وزمان حدوثه.

ففي العام الأوّل للهجرة، حقق المسلمون انتصاراً عظيماً وباهراً، وتأسّست لهم فيه حكومة مستقلة، وتخلّصوا من التشرذم والتبعثر، وتمركزت قواهم وعناصرهم في نقطة واحدة وبيئة حرة، لا أثر فيها للكبت والاضطهاد، ممّا جعلهم لكلّ ذلك يتخذون هذا العام مبدأ لتاريخهم.

فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه جعل التاريخ الهجري، وإنّ أي إعراض وتجاهل له واختيار تاريخ آخر مكانه، إعراض عن سنة رسول الإسلام الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ومخالفة لما رسمه للمسلمين. وأمّا ما اشتهر بين المؤرّخين من أنّ الخليفة «عمر بن الخطاب» هو الذي جعل هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مبدأ للتاريخ باقتراح وتأييد الإمام علي عليه السلام فهو غير صحيح، لأنّ شيئاً من الإمعان والتبصّر في مراسلات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومكاتباته المدرجة في كتب التاريخ والسيرة والحديث، تثبت أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي اعتمد تلك الحادثة الكبرى كمبدأ للتاريخ، فقد أرّخ رسائله وكتبه إلى أُمراء العرب وزعماء القبائل وغيرهم من الشخصيات البارزة، بذلك التاريخ الهجري، فهناك كثير من الكتب أُرّخت قبل السنة ١٦ أو ١٧ من الهجرة، وقد يكون في السنة الخامسة الهجرية.

كما أنّ أصحابه صلى الله عليه وآله وسلم أرّخوا في أيّام حياته، الحوادث الإسلامية بهجرته، فقالوا: وقع كذا في شهر كذا من الهجرة، فمثلاً قيل: حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة في شهر شعبان، ستة عشر شهراً، أو ١٧ شهراً أو ١٨ شهراً.

وفي السنة الخامسة من الهجرة ، أمر الرسول ﷺ بإحلال السنة الهجرية مكان الشهر الهجري.

٦. وصول النبي ﷺ إلى المدينة

تمكّن «سراقة بن مالك» من اللحاق بالنبي ﷺ وأبي بكر وهما في الطريق إلى المدينة، فدعا عليه النبي ﷺ فجمح به فرسُه وطرحه أرضاً، فعرف أنّ ذلك من دعاء النبي ﷺ عليه، فاعتذر له وطلب منه السماح له بالعودة على ألاّ يخبر أحداً بمكانهما وموقعهما. ففعل، وردّ كلّ من بحث عنهما في الطريق.

أمّا الرسول ﷺ فقد وصل إلى قباء في ١٢ من شهر ربيع الأوّل، يوم الاثنين،ونزل على : «كلثوم بن الهرم» شيخ بني عمرو بن عوف، ولبث في قباء إلى آخر الاسبوع، وبنى فيها مسجداً.[١]

وانتظر لحين قدوم الإمام علي عليه السلام والسيدة فاطمة عليها السلام حيث كان قد لحق به الكفّار وحاولوا محاربته، إلاّ أنّه عليه السلام تمكن من التخلص منهم، فتركه القوم خائفين من غضبه وقوته، فواصل سيره باتّجاه المدينة، حيث وصلها في منتصف شهر ربيع الأوّل.

ولمّا انحدر النبي ﷺ من ثنية الوداع ـ وهي منطقة قريبة من المدينة ـ و حطّ قدمه على تراب يثرب، استقبله الناس رجالاً ونساء، كباراً و صغاراً، استقبالاً عظيماً، ورحّبوا به أعظم ترحيب، مردّدين أناشيد فرحين به: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع.

---

١. تاريخ الخميس: ١/ ٣٣٨.

وأصرّ القوم على النزول عند أحدهم، إلاّ أنّ النبي ﷺ كان يقول عن ناقته: «خلّوا سبيلها فإنّها مأمورة». فانتهت الناقة إلى أرض واسعة كانت ليتيمين من الخزرج يقال لهما: «سهل و سهيل» كانا في حجر أسعد بن زرارة، فبركت على باب «أبي أيّوب خالد بن يزيد الأنصاري»، فاغتنمت أُمّ أيّوب الفرصة وبادرت إلى رحل الرسول ﷺ فحلّته وأدخلته منزلها، وعندما تنازع القوم في أخذه، قال الرسول ﷺ: «أين الرحل؟» فقالوا: أدخلته أُمّ أيّوب في بيتها، فقال ﷺ: «المرء مع رحله».

وقد اتّفق كُتّاب السيرة على أنّ الرسول ﷺ دخل المدينة يوم الجمعة، حيث صلّى الجمعة في بني سالم بن عوف، وهي أوّل جمعة جمعها ﷺ في الإسلام، وخطب أوّل خطبة في المدينة كان لها الأثر العميق في قلوب أهلها ونفوسهم.

القسم الثاني

المدينة المنورة ـ يثرب

و فيه فصول

٥ . الأحداث في المدينة المنوّرة

٦ . أحداث السنة الثالثة والرابعة من الهجرة

٧ . أحداث السنة الخامسة والسادسة من الهجرة

٨ . أحداث السنة السابعة والثامنة من الهجرة

٩ . أحداث السنة التاسعة و العاشرة والحادية عشرة

الفصل الخامس

الأحداث في المدينة المنوّرة

- السنة الأولى من الهجرة
- بناء مسجد في المدينة المنوّرة
- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
- معاهدة التعايش السلمي مع اليهود
- السنة الثانية من الهجرة
- تغيير اتّجاه القبلة
- معركة بدر ونتائجها الإيجابية
- العمليات العسكرية الصغرى
- زواج السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام.

حوادث السنة الأولى
من الهجرة

كان أوّل عمل رأى النبي ﷺ أن يقوم به قبل أي عمل آخر، هو أن يبني محلاً للمسلمين ليتسنّى لهم أن يعبدوا الله فيه ويذكروه في أوقات الصلوات، مضافاً إلى أنّه كان هناك حاجة أكيدة لمركز يجتمع فيه أعضاء حزب الإسلام ـ حزب الله ـ كلّ أُسبوع في يوم معيّن، ويتشاوروا في مصالحهم وشؤونهم، بجانب أدائهم صلاة العيد فيه مرّتين كلّ عام. ولم يكن المسجد في عهد الرسول ﷺ للعبادة فحسب، بل لتُلقى فيه العلوم والمعارف الإسلامية والتربوية، إضافة إلى الأُمور القضائية والفصل بين الخصومات وإصدار الحكم على المجرمين، فكان بمنزلة المحكمة في هذا اليوم. كما استخدمه الشعراء في إلقاء قصائدهم أمام الرسول ﷺ الذي اتّخذه قاعة لإلقاء خطبه الحماسية والجهادية في تعبئة المسلمين ضدّ الكفّار والمشركين. ممّا يبين أنّ النبي ﷺ أراد بذلك أن يعلن للجميع أنّ دينه ليس مجرّد أمر معنوي لا يتصل بالأُمور الدنيوية، بل هو دين شامل كامل يهتم بالتقوى وشؤون المعيشة والأوضاع الاجتماعية.

وقد استمرت أغلبية المساجد على هذا المنوال حتى مطلع القرن ٤ هـ حيث كانت تتحـول في غير أوقات الصلاة إلى مراكـز لتدريس العلوم المتنـوعة، بل إنّها حتى بعدمـا فصلت المراكز العلمية عـن المساجد فيما بعد، بقيـت المدارس تبنى بجانب المسـاجد، الأمر الذي جسّـد الصلة الوثيقة والارتبـاط الأقوى بين العلم والدين.

وفي بناء المسجـد اشترك النبي ﷺ بنفسه في عملية البنـاء، ينقل الحجارة واللبـن،ويردّد وهـو يعمـل: «لا عيش إلاّ عيـش الآخـرة، اللّهـم ارحم الأنصـار والمهاجرة». وكان «عمار بن ياسر» ممّن عمل بشدّة و قوّة مع الرسول ﷺ في البناء، إذ كان يحمل اللبن والأحجـار بدل النبي ﷺ وبدل الآخرين، حتـى شكا إليه ﷺ فعلهم وقـال: يا رسول الله قتلوني يحملـون عليّ ما لا يحملون. فقال لـه النبي ﷺ: «ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك، إنّما تقتلك الفئة الباغية».[1]

وبنـى كذلـك بجانـب المسجد صُفَّـة يسكـن فيهـا الفقراء والمهـاجـرون المحرومون، وكلف «عبادة بن الصامت» بأن يعلّمهم الكتابة وقراءة القرآن.

ثمّ بعد ذلك بنيت منازله ومنازل أصحابه حول المسجد.

وفي هـذه البيئـة الجديـدة، واجـه النبـي ﷺ ثـلاث مشكلات أو قضـايـا أساسية:

١. قريش و الوثنيين في شبه الجزيرة العربية.

٢. اليهود في المدينة أو خارجها، مع توافر الأموال لديهم.

٣. الاختلاف بين المهـاجرين والأنصـار، و بين الأنصار أنفسهـم ـ الأوس

١. السيرة الحلبية: ٢ / ٧١؛ تاريخ الخميس: ١/ ٣٤٥.

والخزرج ـ أي الجبهة الداخلية.

وقد تمكّن الرسول ﷺ من التغلّب على تلك المشكلات والقضايا بأساليب حكيمة وسياسية محنّكة. فبالنسبة إلى التناقضات بين فئات المجتمع، فقد عالجها بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، حينما جمعهم الرسول ﷺ وقال لهم: «تآخوا في الله أخوين أخوين». فأصبح هذا التآخي والوحدة بين الأطراف المتنازعة، طريقاً لحلّ المشكلات الأُخرى. كما اختار علياً عليه السلام أخاً لنفسه وقال: «يا عليّ أنت أخي في الدُّنيا والآخرة».

أمّا مشكلة يهود يثرب، فإنّ النبي ﷺ أدرك أنّه ما لم تصلح الأوضاع الداخلية في المدينة، ومالم يضم اليهود إلى جانبه، أي أن يقيم وحدة سياسية متوسعة، فإنّ شجرة الإسلام لن تتمكن من النمو، بالإضافة إلى أنّه لن يتمكن من معالجة القضية الأُخرى وهي خطر قريش. ومن هنا رأى النبي ﷺ أن يتقدّم بالتفاهم معهم بعقد معاهدة تعايش سلمي ودفاع مشترك بين الأنصار والمهاجرين، يوقّع عليها اليهود أيضاً.

وتعتبر هذه المعاهدة من أهمّ الأعمال، ومسنداً تاريخياً قوي الدلاله، تَكشف عن مدى التزام الرسول ﷺ بمبادئ الحرية و العدالة، كما تكشف عن حنكته السياسية حيث استفاد من هذه الوسيلة من أجل إيجاد جبهة متحدة قوية في وجه الحملات الخارجية، فهي في الواقع واحدة من أكبر الانتصارات السياسية التي أحرزتها الحكومة الإسلامية الناشئة في ذلك الوقت، بل هي أعظم معاهدة تاريخية على الإطلاق. وهي نموذج كامل لرعاية الإسلام وحرصه على مبدأ حرية الفكر والاعتقاد، وضرورة التعاون، وتوضيح حدود صلاحيات واختيارات القائد

ومسؤولية الموقعين عليها. وقد احترم فيها النبي ﷺ دين اليهود وثرواتهم في إطار شرائط معينة.

وبالإضافة إلى التعاهد مع يهود يثرب، فإنّ النبي ﷺ عقد مع طوائف اليهود الأُخرى: بني قريظة، بني النضير، وبني قينقاع، معاهدات مماثلة فيما بعد، كان من أهمّ بنودها:

ـ عدم الاعتداء على الرسول ﷺ و أصحابه، فإن فعلوا فإنّ الرسول ﷺ في حلّ من سفك دمائهم وسبي ذراريهم ونسائهم والاستيلاء على أموالهم.

إلاّ أنّ اليهود تميّزوا بمجادلة النبي ﷺ وطرح الأسئلة العويصة عليه بغية إحراجه وزعزعة إيمان المسلمين به ﷺ، و لكن جميع تلك المخططات باءت بالفشل، و قلّ تأثيرها في صفوف المسلمين، بل إنّها ساعدت في الواقع على إقبال بعضهم على الإسلام، كما حدث لعبد الله بن سلام الذي كان من علماء اليهود و أحبارهم، أعلن إسلامه بعد سلسلة مناظرات و مجادلات مطوّلة، كما التحق بعده عالم آخر منهم هو «المخيريق».

ولم يكتف اليهود بذلك أنّهم استخدموا أُسلوب المؤامرات والدسائس مثل: «فَرِّق تسد» لإضعاف المسلمين، وذلك باستغلال رواسب الماضي بين الأوس والخزرج؛ وإثارة العداء بينهم، وإقامة العلاقات السرية مع مشركي الأوس والخزرج والمنافقين، واشتراكهم صراحة في اعتداءات قريش على المسلمين في الحروب التي دارت بين الطرفين، فقدموا كلّ دعم ومساندة للوثنيين والعمل لصالحهم، كما اشتهروا بنقض العهود والمواثيق، الأمر الذي أدّى إلى وقوع مصادمات وحروب مستمرة بينهم و بين المسلمين، نتج عنه إنهاء الوجود اليهودي

في المدينة.

أمّا المشكلة الأخيرة والمرتبطة بإعتداءات قريش، فإنّ الفصل القادم يتناولها بالتفصيل.

وقد أقام النبي ﷺ في المدينة، منذ ربيع الأوّل مـن السنة الأُولى للهجرة إلى شهر صفر من السنة الثانيـة. وأسلم في هذه الفترة من تبقّى من الأوس و الخزرج، و لم يبق دار من دور الأنصار إلاّ أسلم أهلُها، ماعدا بعض الفروع و العوائل ممّن بقوا على شركهم، إلاّ أنّهم أسلموا بعد معركة بدر.[١]

١. السيرة النبوية:١/ ٥٠.

أحداث السنة الثانية
من الهجرة

تميّزت هذه الفترة بالاستعراضات العسكرية، و المناورات الحربية، واستعراض القوّة، التي أمر بها الرسول ﷺ منذ الشهر الثامن من الهجرة حتى رمضان من السنة الثانية، وهي أوّل مناورات عسكرية في تاريخ المسلمين.

كما تميزت الفترة بحدثين عظيمين كان لهما الأثر الكبير في حياة المسلمين وهما: واقعة بدر الكبرى، وتغيير جهة القبلة.

وقد راج في كتابات المؤرّخين وكتاب السيرة، مصطلح الغزوة،والسريّة. فالغزوة هي تلك العمليات العسكرية التي كان يقودها النبي ﷺ بنفسه. أمّا السريّة فهي مجموعات عسكرية صغيرة يقودها أحد قوّاده ، دون أن يشترك فيها الرسول ﷺ.

وقد أعد أوّل لواء عسكري بقيادة «حمزة بن عبد المطلب» حيث سيّره النبي ﷺمع ثلاثين فرداً إلى سواحل البحر الأحمر حيث تمر في طرقاته قوافل قريش التجارية. ولم يحدث أيّ قتال بينهم.

وبعث النبي ﷺبسرية أُخرى بقيادة «عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب»

في ستين فـرداً بهدف التعـرض لقافلـة قـريـش التجاريـة. إلاّ أنّ قتـالاً لم يجر بين الأطراف.

كما بعث سرية قادهـا «سعد بن أبي وقاص» لرصد تحركـات قريش. أمّا في شهر صفـر من السنة ٢ هــ فقد أناب على المدينة «سعـد بن عبادة» وقـاد بنفسه مجموعة من المهاجرين والأنصار لملاحقـة ركب قريش التجاري واعتراضه، حتى بلغ «الأبواء»، ولكنّه رجع دون أن يلقى أحداً منهم.[1]

وخرج أيضاً في شهر ربيع الأوّل من السنـة نفسها مع ٢٠٠ فرد حتى وصل إلى «بواط» قرب ينبع، ـ على بعد ٩٠ كم من المدينة ـ ولكنّه لم يظفر بقافلة قريش بقيادة «أُميّة بن خلف».

كما أنّه خـرج في شهر جمادى الأُولى لاعتراض أكبر قـافلة تجاريـة لقريـش خـارجة مـن مكة نحـو الشـام،بقيادة «أبي سفيـان» إلاّ أنّه لم يلتـق بهم في «ذات العشيرة».

أمّا «عبد الله بـن جحش» فقد بعثه الـرسول ﷺ في شهر رجـب على رأس أفراد، لملاحقة قـافلة قريش التجار ية، فنـزل نخلة ـ بين مكة والطائف ـــ و تقابل مع قـافلة قرشيـة بقيادة ـ «عمرو بـن الحضرمي» فباغتهـم المسلمون و قاتلـوهم واستولوا على أموالهم بالإضافة إلى القبض على أسيرين.

إلاّ أنّ الرسول ﷺ انزعـج لحدوث القتال في شهر رجب الحرام، وخـاصة عندما استغلت أطـراف عدّة كاليهود وقريش هذه القضيـة للتشهير بالرسول ﷺ و إنّه استخدم الشهر الحرام فسفك فيه الدماء وأخذ الأموال.

---

١. تاريخ الخميس:١/ ٣٦٣.

وكذلك المسلمون فقد عابوا على عبـد الله بن جحش فعلَتَه هذه. إلاّ أنّ آية قرآنية نزلت فأبعدت تلك المخاوف والحيرة التي أصبح فيها المسلمون.

وقد غنم المسلمـون منها، فكانت أوّل غنيمة حصل عليهـا المسلمون، وأمّا الأسيران فلم يقبـل النبي ﷺ إطـلاق سراحهما إلاّ بعـد أن تطلق قـريـش سراح أسيرين مسلمين، فتم تبادل الأسرى بين الطرفين.[١]

وبذا فإن الهدف من تلك العمليات العسكرية الصغرى، وإرسال القوات الصغيرة، كان هـو تحصيل وجمع المعلومات عـن العدو ورصد تحركاتـه وخططه، وليس كما ادّعـى المستشرقون، إنّما لمصادرة أموال قـريش والسيطرة عليها لتقـوية نفسه. إذ أنّ السرايـا لم يتعد عدد أفـرادها عن الستين أو الثمانين رجـلاً، بينما كان يحرس قوافل قريش أعداد أكبر من ذلك، كما أنّ الهدف منها لم يكن لمجرّد القتال وسفك الـدماء أو الانتقام، لأنّ الأعـداد لم تكن كافيـة لإجراء قتال أو حـرب مع العدو.ويؤكد ذلـك انزعاج النبي ﷺ من حـدوث القتال الـذي جرى بين «ابـن جحش» و بين أفراد من قريش، لأنّه: «ما أمرهم رسول الله ﷺ بالقتال في الشهر الحرام ولا غير الشهر الحرام، وإنّما أمرهـم أن يتحسّسوا أخبار قريش».[٢]

كما أنّ النبي ﷺ لم يستخدم في تلك الغزوات الصغـرى أحداً من الأنصار، وذلك أنّهم بايعوه في «العقبة» على الدفاع عـن المسلمين، فالمعاهدة بينهم كانت دفاعية، وقد تعهدوا بموجبها بالدفاع عن النبي ﷺ إذا قصده عدو، وبالرغم من ذلك، فـإنّه إذا خـرج بنفسه قـائداً للعمليات، فـإنّه كـان يأخـذ معه جماعـة من الأنصار، تقوية لروابط الإخوة والوحدة بين المهاجرين والأنصار.

---

١. المغازي:١/ ١٣؛ السيرة النبوية:١/ ٦٠٣.

١. المغازي:١/ ١٦.

ويؤكد ذلك إنّه ﷺ لم يشركهم في عمليات قتالية هجومية ابتداء، إلاّ ما حدث بعد ذلك في معركة بدر.

و هكذا فإنّ النبي ﷺ استهدف من تلك السرايا والعمليات العسكرية التفتيشية، وعقد الاتفاقات و المعاهدات العسكرية مع القبائل المتواجدة على خطوط التجارة المكية، هو إعلام قريش بقوّة المسلمين عسكرياً، و إنّ جميع طرق التجارة المكية أصبحت في متناول يده، بحيث غدا في إمكانه أن يشل إقتصاد مكة و يهدد خطوطهم، خاصة أنّ التجارة كانت عمود الإقتصاد المكي وأمراً حيوياً لهم،ولذا كان على قريش في هذه الحالة أن تعيد النظر في مواقفها العدائية، وحساباتها في ضوء الأحوال الجديدة، فتترك للمسلمين حرية الدعوة والعقيدة، وتفتح لهم الطريق لزيارة بيت الله الحرام، ونشر التوحيد في أنحاء الجزيرة العربية وخاصة الحجاز.

١ . تغيير اتّجاه القبلة

أمّا الحدث الآخر الهام في هذه الفترة فكان تحويل القبلة إلى الكعبة، فقد تمّ في الشهر ١٧ من الهجرة، أي في شهر رجب، حين أصبحت قبلة للمسلمين بمعنى انّهم غدوا يتوجهون إلى المسجد الحرام أثناء الصلوات بدل بيت المقدس، فقد صلّى الرسول ﷺ ١٣ عاماً في مكّة نحو بيت المقدس. ولمّا زاد إيذاء اليهود للرسول ﷺ بعد تنامي قوّة المسلمين وانتشار الإسلام، وقولهم: «أنت تابع لنا تصلّي إلى قبلتنا»[١]، فاغتمّ الرسول ﷺ لذلك وشق عليه، فانتظر فرجاً و وحياً من

١ . أو قولهم: مادرى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم. مجمع البيان:١/ ٢٥٥.

جانب الله، حتى نزلت الآية: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبلَةً تَرضاها﴾.[1] فكان تغيير القبلة واحداً من مظاهر الابتعاد عن اليهود و اجتنابهم، كما أنّ اتّخاذ الكعبة قبلة، كان من شأنه كسب رضا العرب واستمالة قلوبهم، وترغيبهم في الإسلام، تمهيداً لاعتناق دين التوحيد، ونبذ الأصنام، وخاصة أنّ الكعبة كانت موضع احترام العرب وتقديسهم منذ أن رفع النبي إبراهيم عليه السلام قواعدها.

وقد تمّ التحويل خلال الركعة الثانية من صلاة الظهر، حين أخذ جبرائيل عليه السلام يد النبي ﷺ وأداره نحو المسجد الحرام،فتبعه الرجال والنساء في المسجد، فتوجه الرجال مكان النساء واتخذت النساء مكان الرجال.[2]

٢ . معركة بدر

كان من أساليب النبي ﷺ في الحروب، جمع المعلومات حول استعدادات العدو، ومدى تهيّئه و مكان تواجده و تمركزه، ومعنويات أفراده، وهي مسائل تحظى بالأهمية في المجال العسكري حتى اليوم. وحيث إنّ المعلومات التي تجمعت لدى الرسول ﷺ تؤكد أنّ قافلة كبرىٰ لقريش شارك فيها كلّ أهل مكّة بأموالهم، ويحمل بضائعها ألف بعير،وتقيّم بخمسين ألف دينار، ويقودها أبو سفيان بن حرب، في أربعين رجلاً، وحيث إنّ أموال المسلمين كانت قد صودرت في مكة على أيدي قريش، فإنّ الوقت كان مناسباً للمسلمين لاستعادة أموالهم،

---

١. البقرة:١٤٤.

٢. بحار الأنوار: ١٩/ ٢٠١.

بالاحتفاظ بأموال قريش إلى أن يعيدوا إليهم أموالهم المصادرة، وإلاّ فإنّهم يتصرفون في هذا المال كغنائم حرب يقسمونها فيما بينهم.

ولذا فإنّ النبي ﷺ خرج في ٣١٣ رجلاً، كان منهم ٨٢ من المهاجرين، و١٧٠ من الخزرج،و٦١ من الأوس، في يوم الاثنين الثامن من شهر رمضان، قاصداً تحقيق ذلك الهدف، وعقد رايتين سلم إحداهما إلى مصعب بن عمير والأُخرى وهي العقاب إلى الإمام علي عليه السلام، فوصل إلى «وادي ذفران».[1]

ونظراً لتخوف أبي سفيان من التعرض لهجوم من جانب المسلمين، فقد أرسل أحد رجاله إلى مكّة يستغيث بهم لنصرته، ممّا دعا أهلها إلى الاستعداد والتجهّز للخروج بقيادة رؤسائهم وعظمائهم. وكان ذلك مفاجأة للنبي ﷺ الذي لم يعدّ رجاله للحرب والمواجهة العسكرية، بل لهجوم يحصل منه على الأموال المصادرة. فعقد مجلساً للشورى استطلع فيه آراء رجاله في الانسحاب من الموقع إلى المدينة، أو مجابهة العدو القائم عسكرياً؟ فاتّفق الجميع على المواجهة بالسير لملاقاة العدو رغم عددهم القليل، فتحركوا نحو بدر.[2]

وبالأُسلوب العسكري السليم عرف النبي ﷺ مكان العدو، وعددهم وزعماءهم كما عرف موعد وصولهم إلى ماء بدر. فقال لأصحابه: «هذه مكة قد ألقت إليكم بأفلاذ كبدها».[3]

إلاّ أنّ أبا سفيان علم بملاحقة المسلمين له ومطاردتهم لقافلته،فابتعد عن بدر عند رجوعه من الشام واتّخذ جهة ساحل البحر الأحمر،وبعث أحدهم يخبر

---

١. كانت تمر به قافلة قريش التجارية، ويقع على مرحلتين من بدر.

٢. المغازي للواقدي:١/ ٤٨؛ السيرة النبوية:١/ ٦١٥.

٣. السيرة النبوية:١/ ٦١٧.

قريشاً بإمكانيـة الإفلات من يد محمّد ﷺ وأصحابه،ولكـنّ «أبا جهل» أصرّ على مواصلـة التقدم نحو يثرب وعـدم الرجوع إلى مكـة قائلاً: والله لا نرجع حتـى نرد بدراً، فنقيـم عليه ثلاثاً، فننحـر الجُزُر ـ الأباعـر ـ و نطعم الطعام ونسقـي الخمر، وتعزف لنا القيان والمغنيات،وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا،فلا يزالون يهابوننا أبداً بعـدها. وكان لكلماتـه أثرها في تشجيعهـم على السير نحو المدينة، فنـزلوا في بدر.

أمّا في الجانب الإسلامي فقد تقدّم الحباب بن المنذر باقتراح،على السير إلى أدنى مـاء من القـوم، ودفن العين والآبار، وبنـاء حوض يُملأ بـالماء يستخدمـونه للشرب، كما اقترح سعد بن معـاذ بناء برج عسكري يقـود منه النبي ﷺ العمليات العسكرية، ويشرف على سيرها،فيكون مأمناً له من كيد الأعداء.

أمّـا قريـش فقـد تحركـت باتجاه بـدر صبـاح يـوم ١٧ من شهـر رمضـان، فاستطلعـوا أخبار المسلمين، فعرفـوا عددهـم وعدتهم. إلاّ أنّه حـدث انقسام في الرأي بينهم، حول الموقع، حين دعا بعض زعمائهم إلى ترك الموقع والعودة إلى مكة دون إجراء أي قتال أو إبداء أي عمل عدائي ضدّ المسلمين، كان من بينهم: عتبة بن ربيعة، الذي طلب منهم العودة إلى مكّة دون حرب، إلاّ أنّ أبا جهل تمكّن من تغيير الموقف لصالح الحرب فحمّسهم للقتال.

وكـان التقليد المتَّبـع عنـد العرب في الحروب، أن يُبـدأ القتـال بالمبـارزات الفرديـة، ثمّ تقـع بعدها الحمـلات الجماعية، فـدعا ثـلاثة من صنـاديد قـريش، المسلمين إلى المبارزة وهم: عتبة ، و شيبة، وهما ابنا ربيعـة بن عبد شمس، والوليد بن عتبة بـن ربيعة، فخرج إليهم مـن المسلمين ثلاثة من الأنصـار هم: عوف و معاذ ابنـا الحارث، و عبد الله بن رواحة. إلاّ أنّ قـريشاً رفضت منازلتهـم وطلبت

أفراداً من مكة، فأمر النبي ﷺ عبيدة بن الحارث وحمزة و علياً بالمبارزة. فبارز حمزة شيبة، وبارز عبيدة عتبة، وعليّ بارز الوليد، ثمّ اتّجه حمزة وعلي بعد الفراغ من قتل خصميهما إلى عتبة وقتلاه. وبعد هذه المبارزة بدأ الهجومُ العام وتزاحفوا،فعدّل النبي ﷺ الصفوف ورجع إلى العريش ـ برج القيادة ـ فكان ينزل بين الحين والآخر ويحرضهم على القتال والمقاومة، فقد كان لكلماته أثرها العميق في النفس، والشوق إلى الجنّة بالشهادة.

أمّا خسائر الحرب، في الأرواح والأموال، فإنّ المسلمين فقدوا ١٤ رجلاً، بينما قُتل من المشركين سبعون، وأُسر منهم سبعون، كان من أبرزهم: النضر بن الحارث، عقبة بن أبي معيط، وسهيل بن عمرو، و العباس بن عبد المطلب، وأبو العاص بن الربيع ـ صهر النبي ﷺ.

وقد دفن شهداء بدر في جانب من أرض المعركة،ولا تزال قبورهم موجودة، أمّا قتلى المشركين فأمر الرسول ﷺ بإلقائهم في البئر، ووقف ﷺ عليها فخاطب القتلى قائلاً: «يا أهل القليب، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس وقاتلتموني ونصرني الناس، ثمّ قال: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقّاً، فإنّي قد وجدت ما وعدني ربي حقّاً».[١]

ثمّ صلّى العصر بالناس وغادر أرض المعركة ـ أرض بدر ـ قبل غروب الشمس،وقسّم الغنائم بينهم أثناء الطريق على قدم المساواة ومنح ذوي الشهداء

١. السيرة النبويّة:١/ ٦٣٩؛ السيرة الحلبية:٢/ ١٨٠. إنّ مسألة محادثة الرسول ﷺ مع رؤوس الشرك في البئر من مسلّمات التاريخ والحديث، وقد أشار إليه كثير من المؤرّخين والمحدّثين، أبرزهم: صحيح البخاري ج ٥ في معركة بدر؛ صحيح مسلم:٨، كتاب الجنة؛ سنن النسائي:٤، باب أرواح المؤمنين؛ مسند الإمام أحمد:٢/ ١٣١؛ المغازي:١/ ١١٢؛ بحار الأنوار:١٩/ ٣٤٦.

أسهماً منها، كما وزع خمسها على المشاركين في المعركة، فربما لم تكن آية الخمس قد نزلت بعد آنذاك، أو فعل ذلك لمصلحة خاصة.

كما قرر أسهماً لأشخاص لم يحضروا المعركة، لأسباب خاصة بهم منعتهم من الاشتراك فيها، أو لمهمات خاصة أُنيطوا بها في المدينة والطرقات. وبعث عبد الله ابن رواحة، وزيد بن حارثة، إلى المدينة يبشرون أهلها بالانتصار، إلاّ أنّهما علما هناك بوفاة ابنة النبي ﷺ زوجة عثمان بن عفان، فامتزجت الأفراح بالأحزان، في الوقت الذي تخوف فيه المشركون واليهود والمنافقون من الانتصار الكبير من جانب آخر.

أمّا بالنسبة لاشتراك العباس بن عبدالمطلب في المعركة، فإنّ ذلك كان أمراً خاصاً، لأنّه كان قد أسلم وكتم إسلامه مخافة قومه وكره خلافهم مثل أخيه أبي طالب، فكان يساعد النبي ﷺ ويخبره بمخططات العدو ونوايا وتحركاته واستعداداته، مثلما عمل في معركة أُحد.

وفي مكة، تحولت بيوتها إلى مأتم كبير وناحت قريش على قتلاها، إلاّ أنّ أبا سفيان منعهم من النوح والبكاء على القتلى، وحثّهم على الاستعداد للثأر والانتقام من محمد ﷺ وأصحابه، فقال: الدهن والنساء عليّ حرام حتى أغزو محمّداً.

وقد ساعدت عوامل كثيرة في انتصارا لمسلمين ببدر، كان أهمّها:

١ . عدم معرفة المسلمين بما لدى المشركين من إمكانيّات بشرية و قتالية، فواجهوا الأمر الواقع وتعاملوا من دون أن يثبطهم شيء.

٢ . تقليل عدا لمسلمين في أعين المشركين، وعدد المشركين في أعين المسلمين في أوّل القتال، و تكثير عدد المسلمين في أعين الكفّار أثناء الحرب.

٣. الأُمور الغيبيــة ، مثل مساعـدة المطر ونـزوله في هذه الفترة، ومســاعدة الملائكة، وتثبيت قلوب المؤمنين بواسطة هـؤلاء الملائكة، و إلقاء الرعب في قلوب الكفّار، حيث تشير الآيات القرآنية في سورة الأنفال وآل عمران إلى كلّ ذلك.

نتائج وآثار معركة بدر

أعلن النبـي ﷺ قراراً تـاريخياً بعـد المعركة خـاصاً بأُسلـوب المعاملـة مع الأسرى، وذلك بأنّ من علّم منهم عشرة من الصبيان، الكتابة والقراءة، كان ذلك فداؤه ويخلى سبيله دون أن يؤخذ منه مال.[1] و إنّ من دفع فدية قدرها ٤٠٠٠ درهم إلى ألف، خلّي سبيله، و من كان فقيراً لا مال لـه، أفرج عنه دون فداء. و إن الباب مفتوح أمامهم للدخول في الإسلام لينعموا في كنفه مع المسلمين.

ولقد أحدث هذا القرار ردّ فعل كبير لدى عائلات مكة، دفعهم إلى تقديم الفداء إلى المسلمين لإطلاق سراحهم. وكان «أبو العـاص بن الربيع» من ضمن الأسرى، وهو زوج زينب ابنـة الرسول ﷺ التي تـزوّجها في الجاهليـة، وثبت على دينه بعد إيمان بنات النبي ﷺ كلّهم، فبعثت زينب في فدائه بمال فيه قلادة كانت هدية أُمها السيدة خديجة عليها السلام لها ليلة زفافهـا، فلمّا رأى الرسول ﷺ القلادة، تذكّر زوجته الوفية وبكـى بشدة، ممّا أثر في المسلمين فأطلقوا سراحـه دون أخذ الفدية. وأخذ ﷺ على أبي العاص الميثاق بأن يخلّي سبيل زينب ويبعثها إلى المدينة ففعل، مع إعلانه الإسلام فيما بعد.

ويعتبر تعليـم الأولاد مـن قبـل الأُسـارى المتعلمين، أوّل عمليـة تعليميـة لمكافحة الأُمّية، وهي أعظم خطوة حضارية وثقافية.

١. السيرة الحلبية:٢/ ١٩٣.

كما أنّه كـان لانتصار المسلمين أثـر كبير على المراكز السيـاسية المتنـاثرة في شبه الجزيرة العربية، فكما كـان له أثره القوي على قريش وأهلها، فإنّـه هدد مراكز أُخرى في المدينة وخارجهـا، كاليهود الذين أبدوا تخوفهـم من تطور قوّة المسلمين، وخاصّة يهود بني قينقاع، الذين بـدأوا بتدبير المؤامرات،وممارسة الأعمال العدوانية ضدّ المسلمين، و إعلان الحرب البـاردة بنشر الأكاذيب وبث المعلـومات المزيفة، و إطلاق الشعارات القبيحـة لتحقيرهم وتخريب سمعتهم و إضعـاف معنوياتهم. إلاّ أنّهم بذلك، كـانوا قد أعلنوا نقضهم لمعـاهدة التعايش السلمي التـي عقدها معهم الرسول الكريم ﷺ إبان قدومه إلى المدينة. و بالرغم من ذلك فإنّ النبي ﷺ حاول النصيحة بأن يتعايشوا معهـم دون إظهار أيّ عمل تخريبي أو سيّئ، وذلك لأنّ النبـي ﷺ لم يكـن يريـد أن يرفـع السلاح ويحاربهم حتـى يحافظ على الأمـن والاستقرار في يثرب، إذ لم يكن من المصلحـة تفجير الموقف في هذه الفترة الحرجة، إلاّ أنّهم أصروا على مـوقفهـم العـدائي، دون أن يقتنعـوا بـالتغيير أو التخلّي عـن مؤامراتهم، ممّا اضطر الرسول ﷺ إلى استخدام السلاح والقوة في الفرصة المناسبة، وقد حـدثت تلـك المناسبـة، عندمـا اعتدى يهوديٌ على امـرأة عربيـة في السوق، بإظهار عورتها والضحك عليها، فقتله رجلٌ مسلمٌ، فاجتمع عليه عددٌ من اليهود فقتلوه، ممّـا اعتبر الشرارة الأُولى في إعلان الحرب عليهـم. فسارعـوا إلى حصونهم وقلاعهم خوفاً من هجوم المسلمين،فحاصرهم النبي ﷺ خمسة عشرة ليلة،قذف الله في قلوبهم الرعب ففقدوا القدرة على المقاومـة، ونزلوا عند حكم النبي ﷺ وهو الجلاء عـن المدينة، على أن يتركـوا أسلحتهـم وأموالهم ودروعهـم، فخـرجوا مـن المدينة إلى منطقة «أذرعات» في أطراف الشام.[١]

---

١. المغازي: ١/ ١٧٧؛ طبقات ابن سعد: ٢/ ٢٨.

واضطرت قريش في هذه السنة إلى أن تغيّر طريقها التجاري إلى الشام، خوفاً من تعرض المسلمين لهم، فاتفقت على أن تتخذ طريق العراق، إلاّ أنّ المسلمين علموا بذلك، فأرسل الرسول ﷺ زيد بن حارثة في مائة نفر، تمكّنوا من الاستيلاء على القافلة، وتقسيم الأموال على المسلمين، بعد فرار القوم.

ولأهمية معركة بدر التي هي من المعارك الكبرى للإسلام، اكتسب المشاركون فيها منزلة خاصة بين المسلمين، فقد دعوا بالبدريين.

٣. العمليّات العسكريّة الصغيرة

و قد جرت في هذه السنة أيضاً عدّة غزوات، كان أهمها:

غزوة قرقرة الكُدْر: قرقرة الكدر ناحية بين المعدن و المدينة يسكنها قبيلة بني سلم حيث بلغ النبي ﷺ أنَّ القبيلة المذكورة تتهيّأ للهجوم على يثرب فخرج ﷺ بنفسه لتأديبهم، إلاّ أنّهم تفرقوا.

غزوة السويق: وذلك عندما قتل أبو سفيان رجلاً من الأنصار وأجيراً له، وحرق بيتاً وزرعاً، على أساس أنّ له نذراً للثأر من المسلمين بعد معركة بدر، بأن لا يقارب زوجته مالم يثأر لقتلى بدر.. فهاجمه المسلمون، إلاّ أنّه فرّ و ترك وراءه أكياس السويق.[1]

غزوة ذي أمّر: و هو واد بطريق المدينة، وقد جرت عندما أعدّت قبيلة غطفان هجوماً على المدينة، فخرج الرسول ﷺ لمحاربتهم، ولكنّهم فرّوا وهربوا. وأراد أحدهم أن يتخلّص من النبي ﷺ وهو مستريح تحت شجرة في وادي ذي

١. المغازي:١/ ١٨٢؛ طبقات ابن سعد:٢/ ٣٠.

أمّر، إلاّ أنّ النبي ﷺ تمكّن من السيطرة عليه بفعل معجزة إلهية، فأسلم الرجل.

٤. زواج السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام

تقدّم أشراف العرب للزواج من السيّدة فاطمة سيّدة النساء عليها السلام إذ تصوّروا أنّ كونهم ذوي ثروة ومكانة اجتماعية مرموقة تؤهلهم لذلك ولا يُرد لهم طلب، ولكنّهم أخطأوا في تصوّرهم، فلم يعلموا أنّ زوج فاطمة عليها السلام لا يكون إلا كفؤها في التقوى والفضل والإيمان والإخلاص، وليس المال والثروة والجاه. و لمّا كان الرسول ﷺ يرد الخطّاب بقوله: «أمرها بيد الله» فقد أدركوا أنّ زواجها ليس سهلاً و بسيطاً. إلاّ أنّ الإمام علي عليه السلام حينما تقدّم إلى النبي ﷺ يخطبها وافق على طلبه وقال: «يا عليّ إنّه قد ذكرها قبلك رجال فذكرت ذلك لها، فرأيت الكراهة في وجهها، ولكن على رسلك حتى أخرج إليك».

فدخل على السيّدة الزهراء عليها السلام قائلاً: «إنّ علي بن أبي طالب من قد عرفت قرابته، وفضله و إسلامه، و إنّي قد سألت ربّي أن يزوّجك خير خلقه وأحبّهم إليه، وقد ذكر من أمرك شيئاً، فما ترين؟».

فسكتت السيدة فاطمة عليها السلام ولم ير الرسول ﷺ في وجهها كراهة، فقال: «الله أكبر، سكوتها إقرارها».[1]

ولما لم يكن الإمام عليّ عليه السلام يملك مالاً، أمره النبي ﷺ ببيع درعه لصرفه على نفقات الزواج، وكان مهرها ٥٠٠ درهم، وسكن أوّل الأمر في منزل أحد الصحابة بصورة مؤقتة، وعمل فرحاً وزفافاً جميلاً، وأطعم فيه كلّ المسلمين.

---

١. بحار الأنوار: ٤٣/ ٩٣.

ونقل ابن بابويه، أنّ النبي ﷺ أمر بنات عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار أن يمضين في صحبة فاطمة عليها السلام وأن يفرحن ويرجزن ويكبّرن ويحمدن ولا يقولن ما لا يرضي الله. ثمّ دعا لهما النبي ﷺ: «اللّهمّ إجمع شملهما، وألّف بين قلوبهما، واجعلهما وذرّيتهما من ورثة جنّة النعيم، وارزقهما ذرّيةً طاهرةً طيّبةً مباركةً، واجعل في ذرّيتهما البركة، واجعلهم أئمّة يهدون بأمرك إلى طاعتك، ويأمرون بما يرضيك. اللّهمّ إنّهما أحبّ خلقك إليّ فأحبّهما، واجعل عليهما منك حافظاً، وإنّي أُعيذهما بك وذرّيتهما من الشيطان الرّجيم».[1]

فكانت أفضل زيجة في الإسلام وأكثرها خير وبركة، إذ أنجبا أفضل الأولاد والبنات وأطهرهم: الحسن والحسين السبطان، وزينب عليها السلام التي اشتهرت في نصرة أخيها بكربلاء.

أمّا ما دسّه أصحاب الأقلام المأجورة و ذوو النفوس الضعيفة والقلوب الحاقدة من أباطيل و ترّهات حول وجود خلاف و تنازع بين الزوجين الطاهرين، فتكذّبه الأحاديث الكثيرة عن رسول اللّه ﷺ حول مكانتهما و عُلوّ شأنهما، نقتطف منها ما يلي:

- «أحبّ الناس إلى رسول الله ﷺ من النساء فاطمة ومن الرجال عليّ».
- «خير رجالكم علي بن أبي طالب، وخير نسائكم فاطمة بنت محمّد».[2]

١. بحار الأنوار:٤٣/ ٩٦ـ ١١٤.

٢. للمزيد من الإطّلاع، راجع سيدا لمرسلين:٢/ ١١٠ ـ ١٢٠.

الفصل السادس

١ . أحداث السنة الثالثة من الهجرة

- الدفاع عن الحرية والكرامة
- معركة أُحد
- غزوة حمراء الأسد

٢. أحداث السنة الرابعة من الهجرة

- النتائج السلبية لمعركة أُحد
- غزوة بني النضير
- غزوة ذات الرقاع
- تحريم الخمر

أحداث السنة الثالثة من الهجرة

١ . معركة أُحد

وهي سنة الدفاع عن الحرية والكرامة، وقد وقعت فيها معركة أُحد التي تعدّ من أعظم المعارك في الإسلام.

فقد قرر كفّار قريش إعلان الحرب على النبي ﷺ على أن تتكفّل قريش نفقاتها، فأعدّت ٤ آلاف مقاتل، إضافة إلى النساء اللائي هدفوا من اشتراكهن: تحريض الرجال على القتال، والصمود وعدم الفرار، وإشعال الحماس في النفوس، وإنّ فرار الرجال يعني أسرهن، فتصبح الغيرة والحمية سبباً للمقاومة والصمود. كما اشترك في الجيش عدد من العبيد والرقيق طمعاً في العتق الذي وعدوا به متى ما نصروا أسيادهم، مثل وحشي الحبشي.[1]

إلاّ أنّ العباس بن عبد المطلب الذي عاش بين قريش كاتماً إيمانه، كتب تقريراً مفصلاً عن تلك الاستعدادات وأرسله مع رجل غفاري إلى النبي ﷺ الذي

---

١. بحار الأنوار: ٢٠/ ٩٦.

أخبر أصحابه بالأمر. ثمّ عقد النبي ﷺ في يوم الجمعة اجتماعاً عسكرياً للتشاور مع القادة وأهل الخبرة في وسائل مواجهة العدو، فأشار «عبد الله بن أُبي بن سلول» ـ من منافقي المدينة ـ بالقتال داخل المدينة، أي لا يخرج المسلمون منها بل يقاتلونهم حرب الشوارع. إلاّ أنّ فتيان المسلمين شجبوا هذا الرأي وأقروا الخروج من المدينة لملاقاة العدو، بعد أن أيّد الرأي السابق أكابر أصحاب الرسول ﷺ من المهاجرين والأنصار. وكان حمزة و سعد بن عبادة على رأس القائلين بلقاء العدو خارج المدينة، فأيّد النبي ﷺ رأي الأكثرية بالخروج للحرب، إذ أنّ محاصرة العدوّ للمدينة وسيطرته على مداخلها وطرقاتها وسكوت جنود الإسلام على ذلك،من شأنه أن يقتل الروح القتالية والفروسية في أبناء الإسلام المجاهدين.

وكان جيش الكفّار قد وصل أطراف المدينة، حتى استقر قرب جبل أُحد، يوم الخميس، الخامس من شهر شوال، فاستعد النبي ﷺ بأن لبس لامته والدرع وتقلّد السيف واعتمّ، فخرج من بيته، ممّا آثار المسلمين وهزّهم بشدّة حتّى تصوّر بعضهم أنّهم قد أجبروه ﷺ على الخروج، فطلبوا منه المعذرة وإجراء أيّ فعل يقصده، فقال ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل».[١] ثمّ صلّى الناس الجمعة، وخرج على رأس ألف مقاتل قاصداً أُحد.

وكان ﷺ قد رفض اشتراك جماعة من اليهود الذين تحالفوا مع «عبد الله بن أُبيّ بن سلول» معهم، فانعزل عن الجيش وعاد بثلث الناس كلّهم من الأوس المتحالفين معه، إلى المدينة، بحجّة أنّ الرسول ﷺ أخذ برأي الفتية والشباب. ولذا لم يشترك اليهودُ والمنافقون في هذه الحرب.

---

١. السيرة النبوية: ٢/ ٢٣؛ المغازي: ١/ ٢١٤؛ طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٨.

وفي يوم السبت ٧ من شهر شوال، اصطف الجيش الإسلامي أمام قوى الشرك المعتدية، فجعل ظهره إلى جبل أُحد كمانع طبيعي يحفظ الخلف، ووضع جماعة من الرماة عند ثغرة في الجبل، عليهم «عبد الله بن جبير» وطلب منهم الالتزام بالموقع: «إلزموا مكانكم لا تبرحوا منه إن كانت لنا أو علينا فلا تفارقوا مكانكم».

إلاّ أنّ المسلمين انهزموا بعد انتصارهم في بداية المعركة نتيجة تجاهل هؤلاء الرماة لأوامر النبي ﷺ حين أخلوا هذا الموقع الاستراتيجي.

وكانت قريش قد أعدّت تسعة رجال شجعان من بني الدار لحمل الراية، قتلهم الإمام علي عليه السلام جميعاً، كما قتل غلامهم حين برز أيضاً.[1] وبذا فإنّ النتيجة الأوّلية كانت هزيمة الكفّار مخلِّفين وراءهم غنائم وأموالاً كثيرة، فانتصر المسلمون على عدوّهم القوي عدداً وعدّة، لأسباب منها:

ـ أنّهم قاتلوا في مرضاة الله، ونشر عقيدة التوحيد، دون أن يهدفوا إلى مصلحة مادية.

ولكنّهم انهزموا بعد انتصارهم الساحق لأسباب كان أهمها:

ـ تغيّر أهدافهم، فقد اتجهت أنظارهم إلى الغنائم في أرض المعركة، ونسوا أوامر النبي ﷺ وتعاليمه بالتمسّك بها مهما حدث. وخاصة أُولئك الرماة الحامين ظهر المسلمين على جبل أُحد، حين تركوا مواقعهم ونزلوا إلى الساحة يريدون جمع الغنائم قائلين: «ولِمَ نقيم هنا من غير شيء وقد هزم الله العدو، فلنذهب ونغنم مع إخواننا». وهو الأمر الذي استغله «خالد بن الوليد» الذي كان آنذاك مع المشركين و كان يترصّد خلوّ الثغرة من الرماة، فقتل باقي الرماة وكانوا عشرة من

١. بحار الأنوار: ٢٠/ ٨١.

خمسين، ثمّ هاجـم المسلمين الغافلين عن الوضـع السّيئ والذين انشغلـوا بجمع الغنائم، فتفرقت جموعهم، و اجتمع جنود قـريش الهاربون فقاتلوا المسلمين قتالاً ضاريـاً، حتى قُتِـلَ منهم سبعـون رجلاً. وعنـدما قتـل أحد أبطـال المشركين من قريـش، حامل لـواء الإسلام : «مصعب بـن عمير» ظنّ أنّه الـرسول ﷺ فصاح: قتلت محمداً. فانتشر الخبر بين المسلمين وقريش الـذين سرّوا بذلك فصاحوا: ألا قد قتل محمد. فـاضطر المسلمون ـ بعد انفراط القيادة ، وإشـاعة الفوضى والهرج والمرج في الجيش ـ إلى أن يهرب معظمهم إلى الجبل تـاركين أرض المعركة، إلاّ عدداً قليلاً منهم.

وكان خمسـة من صنـاديد قـريش قـد تعاهـدوا على أن يضعوا نهايـة لحياة النبي ﷺ مهما كلّفهم الأمر، وهم:

١ .عبد الله بن شهاب، الذي جرح جبهة النبي ﷺ.

٢ .عتبة بن أبي وقاص، الذي رمى النبي ﷺ بأحجار فكسر رباعيته.

٣. ابن قميئة الليثي، الذي رمى وجنتي الرسول ﷺ وجرحهما.

٤ .عبـد الله بـن حميـد، الـذي حمل على النبـي ﷺ فقتله أبـو دجانـة بطل الإسلام.

٥ .أُبي بن خلف، الذي قتله الرسول ﷺ بيده عندما حمل عليه.

وقد دلّت مواقف الرسول الكريم ﷺ في هذه المعركة وغيرها على شجاعته وقوّته، وقد أكدها الإمام علي عليه السلام قائلاً: «كنّا إذا احمرّ البأس، اتّقينا برسول الله ﷺ فلم يكن أحد أقرب منّا إلى العدو منه».[١]

---

١ .شرح نهج البلاغة، فصل في غريب كلامه، رقم ٩.

ومن هنا فإنّ سلامة النبي الأكرم ﷺ في هذه الحرب بل وفي عامة الحروب تعود في أكثر أسبابها إلى:

ـ حسن دفاعه عن دينه وعن نفسه، وإلى شجاعته وبأسه في المعارك، إضافة إلى تضحية تلك القلة من أصحابه الأوفياء الذين بذلوا غاية جهدهم للحفاظ على حياته وسلامته ﷺ واشتهر من هؤلاء:

١. الإمام علي عليه السلام الذي بلغ ٢٦ عاماً من عمره، حيث قتل ١٢ من رجال قريش، والباقي وهم عشرة قتلهم باقي المسلمين. وهنا سمع هتاف بين السماء والأرض يقول: لا فتى إلاّ عليّ ولا سيف إلاّ ذو الفقار.

٢. أبو دجانة، الذي جعل من نفسه ترساً يقي النبي ﷺ من سيوف الكفّار.

٣. حمزة بن عبد المطلب، الذي دأب على حماية الرسول ﷺ من أذى المشركين دائماً في الظروف القاسية، إلاّ أنّ وحشي العبد قتله في هذه المعركة.

٤. أُمّ عمارة، نسيبة المازنية، وقد باشرت القتال وذبت عن الرسول ﷺ بالسيف، ورمت بالقوس حتى جُرِحت. وقد أُعجب النبي ﷺ بشجاعتها فأشاد بموقفها يوم أُحد: «لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من فلان و فلان» فطلبت منه ﷺ أن يدعو لها بالجنة فقال ﷺ: «بارك الله عليكم من أهل بيت رحمكم الله، اللّهمّ اجعلهم رفقائي في الجنة».

وقد استغل أبو سفيان وقريش انتصارهم فاعتمدوا الإعلام المزيف في ذلك، بأنّ آلهتهم أعظم من إله المسلمين، قاصداً من ذلك التأثير النفسي، فقد رأى أنّ الحملة النفسية والحرب الباردة يمكنها أن تحطم إيمان المسلمين.

أمّا هند زوجة أبي سفيان، فقد مثلت مع بعض النساء بجثث المسلمين،

من قطع الأنوف وجدع الآذان وسمل العيون وقطع الأصابع والأرجل والمذاكير، نكاية بالمسلمين وإطفاءً للحقد الدفين. وقد بقرت هند صدر حمزة وأخرجت كبده ولاكته بين أسنانها، دون أن تستطيع أكله فعُرفت بآكلة الأكباد، كما عرف أبناؤها فيما بعد ببني آكلة الأكباد.

وقال الرسول ﷺ عندما شاهد عمّه حمزة: «ما وَقفتُ موقفاً قط أغيظ إليّ من هذا».

وهكذا غادر كفّار قريش أرض المعركة إلى مكة، أمّا المسلمون، فبعد أن صلّى بهم النبي ﷺ الظهر والعصر، دفنوا الشهداء واحداً واحداً أو اثنين اثنين، عند جبل أُحد.[1]

أمّا الشهداء فكانوا ما بين ٧٠ أو ٨١ مسلماً على روايات مختلفة، ولم يتجاوز عدد قتلى قريش ٢٢ فرداً، وأمّا النبي ﷺ فقد عالجته السيدة فاطمة عليها السلام والإمام علي ﷺ حينما رجع إلى المدينة.

غزوة حمراء الأسد

إلاّ أنّ الوضع لم يستقر، بل أنّ الأحداث استمرت إلى يوم الجمعة حيث غزوة «حمراء الأسد».[2] ذلك أنّ اليهود والمنافقين أتباع «عبد الله بن أُبي» استغلوا الوضع الخطير الذي أصبح فيه المسلمون، وكانوا قد سرّوا لما أصابهم، ووجدوا البيوت حزينة يسمع منها أنين الجرحى والبكاء على الموتى والشهداء. ولما كان هناك

---

١ .السيرة النبوية: ٢/ ٩٨؛ بحار الأنوار: ٢٠/ ١٣١.

٢ . تبعد عن المدينة ثمانية أميال.

خوف أن يؤدّي ذلك إلى ضعف الجبهة الداخلية، إذ أنّ انهيار الوحدة والانسحاب في هذه الجبهة أخطر بكثير من تعرض البلاد لهجوم خارجي. ولذا فقد أمر ﷺ بملاحقة العدو في نفس هذه الليلة حتى يرهب العدو ويبلغه قوة المسلمين واتحادهم وأنّ ما أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم.[١] فخرج الرسول ﷺ بأصحابه إلى «حمراء الأسد» مخلفاً على المدينة: ابن أُمّ مكتوم.

وقد استطاع «معبد بن أبي معبد الخزاعي» رئيس بني خزاعة، الذي ارتبط بعلاقات ودية طيبة مع الرسول ﷺ والمسلمين بالرغم من كفره وشركه، من أن يخوّف أبا سفيان ويرعبه بما ذكره له عن قوّة المسلمين، وأعدادهم وملاحقتهم لقريش، ممّا دعاه إلى الانصراف عن مهاجمة المدينة مرّة أُخرى.

وفي هذه السنة (٣هـ)، أيضاً بعث الرسول ﷺ أيضاً السرايا، واشتهرت منها: سرية محمد بن مسلمة، عندما انزعج كعب بن الأشرف لانتصار المسلمين في بدر، وحاول إثارة قريش عليهم، فبدأ بإيذاء نساء المسلمين، ممّا جعل الرسول ﷺ يقرر التخلّص منه، فأرسل إليه محمّد بن مسلمة، الذي أعدّ خطة محكمة للقضاء عليه، فقتلوه بمساعدة أخيه بالرضاعة «أبونائلة». كما تخلّصوا من مفسد آخر هو: «أبو رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي» الذي قام بنفس دور كعب بن الأشرف في إيذاء الرسول ﷺ والمسلمين.

وفي هذه السنة، ولد السبط الإمام الحسن عليه السلام في ١٥ من شهر رمضان.

---

١. مجمع البيان: ٢/ ٢٣٥.

أحداث السنة الرابعة
من الهجرة

١. النتائج السلبية لمعركة أُحد

بالرغم من إظهار المسلمين قوتهم، ومطاردتهم للعدو ومنعهم من مهاجمة المدينة، فإنّ المنافقين واليهود والمشركين أعدّوا المؤامرات ضدّ الإسلام والمسلمين، وجهزوا العدّة لمحاربتهم،مثل قبيلة «بني أسد» التي أرادت الهجوم على المدينة لنهبها، فأرسل الرسول ﷺ ١٥٠ فرداً بقيادة أبي مسلمة الذي تمكن من القضاء عليهم والتخلّص منهم.

ومن المعروف أنّ النبي ﷺ كان يرسل الدعاة و المبلغين من قرّاء القرآن الكريم، والمسلمين بالأحكام الإسلامية والتعاليم النبوية، لينقلوا تلك التعاليم والأحكام إلى الناس في المناطق البعيدة والأماكن النائية، كما كان يبعث من جانب آخر، السرايا والمجموعات العسكرية للقضاء على محاولات التمرد والمؤامرات، ليتسنّى لهؤلاء المبلغين والدعاة في ضوء الأمن والحرية والأمان، الدعوة إلى الإسلام وإرساء دعائم الحكومة الإسلامية في القلوب، وتنوير الأفكار وإيقاظ العقول. إلاّ أنّه كان يحدث أنّ بعض القبائل المتوحشة والمتخلفة فكرياً وأخلاقياً كانت تعتدي

على هؤلاء المبلغين وتقتلهم بصورة مفجعة مأساوية.[١] مثلما قامت به جماعة من قبيلة «عضل والقارة» الذين طلبوا القرّاء من الرسول ﷺ وغدروا بهم أثناء الطريق إلى مكان سكنهم. ومن قبلهم طلب أبو براء العامري في شهر صفر من هذه السنة، من الرسول ﷺ أن يبعث رجالاً إلى نجد يدعوهم للإسلام مع أنّه لم يسلم، فقال الرسول ﷺ: «إنّي أخشى عليهم أهل نجد». ولكن أبا براء أعلن عن استعداده لإجارتهم وضمان أمنهم فقال: أنا لهم جار. فبعث النبي ﷺ أربعين رجلاً من أصحابه الخيار من حفظة القرآن و أحكام الإسلام بقيادة «المنذر بن عمرو» و معه كتاب إلى «عامر بن الطفيل» أحد زعماء نجد، الذي قرر الغدر بهم، فقتل رسول المنذر، وطلب من بني عامر قتل المبلّغين، إلاّ أنّهم رفضوا على أساس أنّ لهم عقداً وجواراً مع أبي براء. فاستصرخ عليهم قبائل «بني سليم» الذين أجابوه، فأحاطوا بالدعاة وقاتلوهم حتى قتلوهم عن آخرهم بعد أن قاوموا بقوّة وبسالة عظيمة. وتسمّى هذه الحادثة بجريمة بئر معونة، التي لم ينسها الرسول ﷺ فكان يذكر شهداءها فترة من الزمان[٢]، كما أنّ تلك الحادثتان: الرجيع وبئر معونة، تركتا آثاراً سيئة،وخلفتا موجة من الحزن والأسى في نفوس المسلمين.

٢. غزوة بني النضير

لقد طلب النبي ﷺ من يهود بني النضير المساهمة في دفع دية اثنين قتلا خطأ، بموجب الاتفاقية المعقودة بين الرسول ﷺ واليهود، والتي تقضي بالتعاون فيما بينهم في تسديد الدية، إلاّ أنّهم أضمروا له الشر، حينما سار إليهم الرسول ﷺ

١. السيرة النبوية:٢/ ١٦٩؛ طبقات ابن سعد:٢/ ٥٥.
٢. السيرة النبوية:٢/ ١٨٣؛ إمتاع الأسماع:١/ ١٧٠.

في عدد قليل من أصحابه، وقصدوا قتله غدراً، وذلك بإلقاء صخرة عليه من فوق البيت الذي أستند الرسول ﷺ إلى جداره، ولكنّه ﷺ علم بمؤامراتهم سواء من تحركاتهم المشبوهة، أو بخبر جاء من السماء، فترك المكان مسرعاً بالعودة إلى المدينة، دون أن يخبر أصحابه الذين انتظروه طويلاً دون جدوى. وقد أخبرهم عند عودتهم بالسبب: «همت اليهود بالغدر بي فأخبرني الله بذلك فقمت».[١]

ورداً على الموقف الغادر لليهود، فقد أمر الرسول ﷺ المسلمين بالإعداد لحربهم، وبعث رسالة إليهم مع «محمّد بن مسلمة» يبلغ فيها سادتهم: «قد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بها هممتم به من الغدر بي. أخرجوا من بلادي، فقد أجّلتكم عشراً، فمن رُئي بعد ذلك ضربت عنقه».

وكان حكم الرسول ﷺ هذا مطابقاً لما جاء في الميثاق الذي عقد بينهم عند دخوله المدينة: «ألاّ يعينوا على رسول الله ﷺ ولا على أحد أصحابه بلسان ولا يد ولا بسلاح في السر والعلانية، والله بذلك عليهم شهيد. فإن فعلوا فرسول الله في حلّ من سفك دمائهم وسبي ذراريهم ونسائهم وأخذ أموالهم». إلاّ أنّ المنافقين برئاسة «عبد الله بن أُبيّ» اتّصلوا ببني النضير يعرضون عليهم المساعدة والتعاون، بعدم تنفيذ أوامر الرسول ﷺ بالخروج من المدينة، ممّا دفعهم إلى اللجوء إلى حصونهم، والإعداد للحرب ومقاومة الرسول ﷺ حتى لا يسيطر المسلمون على ديارهم وبساتينهم وممتلكاتهم، وأرسل «حيي بن أخطب» إلى الرسول ﷺ: إنّا لا نبرح من دارنا وأموالنا فاصنع ما أنت صانع؛ فما كان من النبي ﷺ إلاّ أن خرج إليهم، بعد أن استخلف على المدينة «ابن أُمّ مكتوم» وسار لمحاصرة بني النضير،

---

١. طبقات ابن سعد: ٢/ ٥٧؛ إمتاع الأسماع: ١/ ١٧٨.

فاستمر الحصار ست ليال على رواية ابن هشام، أو ١٥ يوماً حسب الروايات الأُخرى. وأمر الرسول ﷺ بقطع النخيل المحيطة بحصونهم، وإلقاء النار عليهم، حتى يكرهوا البقاء في تلك الديار بعد إعدام بساتينهم.

فدفعهم ذلك فعلياً إلى الرضوخ لمطالب الرسول ﷺ بالجلاء عن موطنهم، على أن تحمل إبلهم ما لهم من مال دون أن يأخذوا السلاح والدروع، فرضى النبي ﷺ بذلك، فخرج جماعة منهم إلى خيبر وأُخرى إلى الشام. أمّا تقسيم أموالهم فحيث إنّ المسلمين غنموها دون قتال ـ و هو الفيء ـ فانّه يعود أمره إلى الرسول ﷺ خاصة يضعه حيث يشاء ويصرفه فيما يرى من مصالح الإسلام، وقد فعل النبي ذلك وقسم المزارع والبساتين على المهاجرين فقط دون الأنصار، وذلك لما حرموا من ممتلكاتهم وثرواتهم في مكة، وقد أيده في ذلك: سعد بن عبادة و سعد بن معاذ.[1]

وقد جرت هذه الحادثة في ربيع الأوّل ٤هـ وأوردتها سورة الحشر في القرآن الكريم.

٣. غزوة ذات الرقاع

جاء الخبر إلى النبي ﷺ أنّ قبائل بني محارب و بني ثعلبة من قبائل غطفان، أعدتا للهجوم على المدينة، فسار إليهم النبي ﷺ وأدّبهم، دون أن يحدث قتال، وأصاب بعض الغنائم.

كما خرج النبي ﷺ في قوّة بلغت ١٥٠٠ فرد من المحاربين قاصداً بدراً لملاقاة أبي سفيان، الذي كان قد قرر في أُحد أن يلتقي بهم في هذه السنة، إلاّ أنّهم

---

١. إمتاع الأسماع: ١/ ١٨٢.

تخوفوا من مواجهة المسلمين، وذلك من أظهر الصور لحكمة النبي ﷺ في إجراءاته العسكرية، فقد أظهر قوته وعزيمته أمامهم، ممّا كان له أثره القويّ في نفوس الأعداء.

٤. تحريم الخمر

و قد حرّمت في أربع مراحل تدريجية ضمن آيات أربع أظهرت الاستياء من الخمر، فبدأت من مرحلة مخففة حتى انتهت إلى مرحلة الإعلان عن التحريم القطعي. فالآيات الأربع منعت من الخمر، بعد أن وصفتها بالرجس وإنّها نظير الميسر وانّها عمل شيطاني، مناقض للفلاح ومسبب للعداوة والبغضاء، وبذا فقد استطاع النبي ﷺ بهذه الآيات أن يطهر مجتمعه من أدران هذه العادة الشريرة التي انتشرت في البيئة بقوة، وكانت آفة متفشية ومتجذرة في المجتمع، بحيث إنّ معالجتها كانت تحتاج إلى وقت طويل وأُسلوب مدروس، وقد تحتم أن يعالَج هذا الوباء الاجتماعي من خلال إعداد الناس لمرحلة التحريم النهائي والقطعي تماماً، كما يفعل الطبيب للمرضى الذين يطول بهم المرض ولذا فإنّها حرمت في أربع مراحل.

و في هذه السنة ولد السبط الأصغر للنبي ﷺ أي الإمام الحسين عليه السلام في ٣ شعبان.

كما توفيت السيدة فاطمة بنت أسد أُمّ الإمام علي عليه السلام.

وأمر الرسول ﷺ زيد بن حارثة أن يتعلم السريانية من اليهود.[١]

---

١. إمتاع السماع: ١/ ١٨٧؛ تاريخ الخميس: ١/ ٤٦٤.

الفصل السابع

١ . أحداث السنة الخامسة من الهجرة

- غزوة دومة الجندل
- غزوة الأحزاب
- غزوة بني قريظة
- زِواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش

٢ . أحداث السنة السادسة من الهجرة

- اليهود
- قبيلة بني لحيان
- بنو غطفان
- غزوة بني المصطلق
- قصة الإفك
- الحديبية

أحداث السنة الخامسة
من الهجرة

١ . غزوة دومة الجندل[1]

خرج الرسول ﷺ في ألـف من المسلمين إليهـا لما ذكر عـن أهلها مـن أنّهم يظلمون الناس والتجار وينـوون الإغارة على المدينة، إلاّ أنّ الأهالي تركوهـا وهربوا منها عند اقتراب المسلمين منها، فأقام بها النبي ﷺ أيّاماً ثمّ عاد إلى المدينة في ٢٠ من شهر ربيع الثاني، دون حدوث قتال.

٢ . غزوة الأحزاب

بعد أن أجلى الرسول ﷺ يهود بني النضير عن المدينة، قـرر زعماؤهم إجراء أعمال عدائية ضدّ المسلمين وذلـك بالتآمر عليهم، فقدموا مكّة ليحـرضوا قريشاً على حرب المسلمين بقولهم: إنّـا سنكون معكم عليه حتى نستأصلـه، فلقد جئنا لنحالفكم على عداوة محمّد وقتاله، إنّ محمّداً قد وتـركم ووترنا وأجلانا عن المدينة من ديـارنا وأموالنا. كما أنّهم استخـدموا اسلوبهم الملتـوي حتى يؤثروا في قـريش

---

١ . منطقة بين دمشق و المدينة؛ طبقات ابن سعد: ٢/ ٤٤ .

ويجذبونهم لجانبهم، فأقـرّوا لهم بأنّ ما عليه المشركون خيرٌ من دين محمّـد، بالرغم من أنّهم موحدون وقريش كفّار يعبدون الأصنام، فكانت هذه وصمة عار أُضيفت إلى سجلّهم وتاريخهم المشؤوم.

وبذا فـإنّهم شكّلوا اتحاداً ـ العرب واليهـود ـ كما شاركتهم أحـزاب أُخرى، مـن بعـض القبائل العـربيـة في شبـه الجزيـرة العـربية، وهـي غطفـان في نجـد، وبنو سليم وبنو أسد وغيرها،ولذا سميت بمعركة الأحزاب، أو معركة الخندق، لما قام به المسلمون من حفر خندق حول المدينة للدفاع عنها.

وحينما جـاء أحد رجـال استخبارات النبـي ﷺ بأخبـار خروج تلـك القوة الكبيرة، شاور ﷺ المسلمين في أساليـب الحرب والدفاع، فـافترح سلمان الفارسي حفر خندق حول المدينـة، حتى يمكن تحديد الموقع الذي سيحـاربون فيه العدو، فشرعـوا في حفره واشترك النبـي ﷺ بنفسـه في أعمال الحفر مشـاركـاً للمسلمين همومهـم وآلامهم، كما كـان له دوره المؤثـر في تنشيـط الآخريـن ودفعهم للعمـل السريـع والاجتهاد فيـه والتدقيـق. ووصل طـول الخندق نحـو خمسة كيلـومترات ونصف الكيلومتر(٥ و ٥ كـم)، والعرض بمقدار خمسة أمتار، والعمـق أيضاً خمسة أمتار، بحيث لا يتمكن الفـارس الماهر من عبوره بالقفز عليـه. وانتهي من العمل فيه في ستة أيّام. وفي هذه الفترة قال الرسول ﷺ في شأن سلمان: «سلمان منّا أهل البيت».[١]

وقام العدو بحصار المدينة شهـراً، وبلغ عدد جيش المشركين، عشرة آلاف فرد، كان منهم أربعة آلاف من قريش، و ٧٠٠ من بني سليم، و ١٠٠٠ من قبيلة

---

١. المغازي: ٢/ ٤٤٦؛ الكامل في التاريخ: ٢/ ١٢٢.

فزارة، و ٣٥٠٠ مقاتـل من بقية القبائل. أمّا عـدد المسلمين فلم يتجاوز ٣ آلاف نزلوا في سفح جبل سلع في موضع مـرتفع ومشرف على الخندق، يمكن منه مراقبة تحركات العدو ونشاطاته.

ولما كان الموسم موسم شتاء، والطعام قليـلاً، وطالت فترة الحصار ـ شهر ـ فإنّ ذلك دفع المشركين إلى الاتّصال بيهود بني قريظة الذين كانوا يعيشون داخل المدينة لمساندتهم، بالرغم من أنّهم احترموا الميثاق الذي عقدوه مع الرسول ﷺإلاّ أنّ «حيي بن أخطب» تمكن من إقناعهم بنقض ذلك العقد للوقوف مع الأحزاب في حرب المسلمين. وقد تأكـد رسولا النبي ﷺ: سعد بن عبادة و سعـد بن معاذ رئيسا الأوس والخزرج من مـؤامرة بني قريظـة ونقضهم للعهد، عندمـا توجها إلى حصونهم، فأخبرا النبي ﷺبذلك.

وكانـت خطتهم التـآمرية تقضـي بأن يقـوم بنو قريظـة بالإغـارة على أهل المدينة في الداخل، ويرعبوا أهلها ليخفـف ذلك من الضغط على الكفّار في موقع المعركة عند الخندق. إلاّ أنّ النبي ﷺأرسل ٥٠٠ من رجاله بقيادة «زيد بن حارثة و مسلمة بن أسلم» لحراسة المدينة من الأعداء.

وأمّا في ميـدان المعركة، فقـد تمكن خمسـة من شجعان المشركين مـن عبور الخنـدق وعلى رأسهـم «عمـرو بـن عبد ود العـامري» فطلبـوا المبـارزة مع أبطـال المسلمين. فقال الرسول ﷺ: «أيّكم يبرز إلى عمرو أضمن له الجنة؟». فقام الإمام علي عليه السلام قائلاً: «أنا له يا رسول الله»، والقوم ناكسوا رؤوسهم، وكأنّ على رؤوسهم الطير، وذلك لمكان عمرو وشجاعته المعروفة.[١]

---

١. المغازي:٢/ ٤٧٠.

وبذا فقـد برز الإمـام علي عليه السلام وقال النبـي صلى الله عليه وآله هنا كلمتـه الخالدة: «بَـرَزَ الإيمانُ كُلّـه إلى الشرك كلّـه». وتمكّـن الإمـام علي عليه السلام من التخلـص من عمـرو والقضاء عليه حين ضربه ضربة قـوية على ساقيه فقطعهما، فكبّر الإمام علي عليه السلام يعلن انتصاره ومقتل عمـرو، ممّا كان له أثره في العدو، فألقى الـرعب في نفوسهم، فهربـوا إلى معسكرهـم تاركين الخنـدق، وسقط أحـدهم بفـرسه في الخنـدق وهو: «نوفل بن عبد الله» فرماه الحرس بالحجارة، ممّا جعله يطلب مقاتلة أحد المسلمين، فنزل إليه الإمام علي عليه السلام فقاتله وقضى عليه في الخندق.[1]

ونظراً لضربة الإمام علي عليه السلام المؤثرة ذات النتيجة والفعالية، فقد قال عنها النبي صلى الله عليه وآله: «ضربة عليّ يـوم الخندق أفضل مـن عبادة الثقلين» إذ لم يبق بيـت من بيوت المشركين إلاّ ودخله ذل بقتل عمرو بن عبد ود، على عكس ما حدث لبيوت المسلمين، فقد دخلـه بذلك العـزّ والافتخار، فالضربـة كانـت في الواقع هـزيمة للمشركين والأحـزاب ونهاية لقـوتهم، بالإضـافـة إلى الظروف السـائدة، من قلّـة الطعام والعلف والبرد.

عوامل تفرّق الأحزاب

١. اختلاف قبائل غطفان و فزارة مع قريش و تخاذلهم في الهجوم، وخاصة عندما اتصل بهم النبي صلى الله عليه وآله للاتّفاق على عودتهم وتراجعهم في مقابل مساعدتهم مادياً.

٢. مصرع فـارسهم الأكبر عمـرو بن عبـدود الذي علّقـوا عليه الآمـال في

---

١. بحار الأنوار: ٢٠/ ٢٥٦؛ تاريخ الطبري: ٢/ ٢٤٠.

الانتصار.

٣. دور «نعيم بن مسعود» في تفرقـة أعداء الإسلام و إيقاع الخلاف بينهم، وكان قد أسلم حديثـاً، فقد تمكن بدهائه من التفرقة بين يهود بنـي قريظة وجيش الأحزاب، حيث أقنع اليهود بأن يأخذوا رهائن من العرب ليكونوا ضماناً في مقابل تعاون اليهود مع المشركين قائلين: «حتى نناجـز محمداً، فإنّنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تسرعوا إلى بلادكم وتتركـونا، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنـا بذلك منه» وفي نفس الوقـت طلب من قريش عدم إعطـاء اليهود أحداً من رجالهم إذا طلبوا منهم ذلك، فإنّهم سيرسلونهم إلى النبي ﷺ ليقتلهم.

وهكذا فقـد جرى الأمر كما رسمه «ابـن مسعود» إذ أنّ الأطراف المتحـالفة تأكـدت من النوايـا السيئة فانسحبـت بنو قريظـة، وتفرق الشمل ورجـع الكفّار خائبين.

٤. عامل إلهي، حين بعث الله عليهم فجأة، العـاصفة والريح واشتد البرد، فقلعت خيامهم وأطفأت أضواءهم، فصاح بهم أبو سفيان: ارتحلوا فإنّي مرتحل.

وقد سجـل القرآن الكريـم وقائع هذه المعركـة وأشار إلى أبرز النقـاط فيها ضمن ١٧ آية من سورة الأحزاب ٩ـ٢٥.

وقسمت الآيات الموضوع إلى ثلاثة أقسام:

١. آيات ترسم الوضع العام للمسلمين.

٢. آيات تتعرض لموقف المنافقين.

٣. آيات تبين موقف المؤمنين الصادقين.

فهي تؤكد دور عناية الله با لمؤمنين وحمايتهم من أعدائهم الكافرين، كما أنها

تشرح الحالة العسكرية للمسلمين، من حصار الأعداء لهم من كلّ جهة، ممّا ألقى الـرعب في قلـوب اليهود مـن أهل المدينـة، ومـا أظهره المنـافقون مـن إشاعـات وتشكيكات بالوضع، لإلقاء روح الهزيمة بين الأفراد.

وبالتـالي فهذه الـواقعة التـي انتهت في ٢٤ مـن شهر ذي القعـدة، كانـت امتحانـاً اختباراً دقيقـاً للنفوس والقلوب، ميّـزت الصادق عـن المنافـق، والموفون بالعهد و عن الناقضين له، كما كشفت عن أنّ وعود الله صادقة ومحقّقة متى توفرت شرائطهـا ومقـدمـاتها، كما أنّها أشـارت إلى دور الطـابـور الخامـس في إضعـاف الجبهات، وأساليب مواجهتها.

٣. غزوة بني قريظة

قرر النبي ﷺ معالجة قضية بني قريظة بعد المعـركة دون انتظار، وذلك بأمر مـن الله تعالى. فسـار مع المسلمين ليحـاصر حصونهم التـي تحصنوا بها وأغلقـوا الأبواب. ولما كان اليوم ـ السبت ـ فإنّهم لم يبتغوا القتال فيه أو الحرب. ثمّ إنّ وفداً منهم طلب من النبي ﷺ أن يتركهم يخرجوا من المدينة بأموالهم مثلما فعل مع بني النضير، أو يتركوا سلاحهم وأموالهم، فرفض النبي ﷺ مقترحاتهم ومطالبهم حتى لا يفعلوا فعـلَ بني النضير في تحريك العـرب المشركين ضد المسلمين،ولـذا فقد سلّموا أنفسهم للمسلمين دون أيّة شروط، فدخل المسلمون الحصن وجردوهم من سلاحهم وحبسـوهم حتى يتقرر مصيرُهـم، أو يحكم فيهم سعد بـن معاذ الأوسي حليفهـم. وفي المجلس الـذي أعدّ لـذلك، حكـم سعـد عليهم بقتـل الرجـال، وتقسيـم أموالهم وسبـي ذراريهم ونسائهـم، رغم الإلحاح عليـه بحسن الحكـم في

حلفائه بني قريظة.[١]

وقد استند في حكمه إلى:

أ: أنّ يهود بني قريظة كانوا قد تعهدوا للنبي ﷺ بأنّهم لو تآمروا ضدّ المسلمين وناصروا أعداءهم أو أثاروا الفتن والقلاقل، فإنّ للمسلمين الحقّ في قتلهم ومصادرة أموالهم وسبي نسائهم.

ب: وأنّ حكمه جاء بمثل ما في شريعتهم.

ج: ما قد رآه بعينه ممّا صدر قبل ذلك من قبائل اليهود حين عفا عنهم النبي ﷺ ولكنّهم نقضوا عهودهم معه ﷺ وأثاروا الأجانب عليهم واشتركوا مع المشركين ضدّهم، الأمر الذي جعله يتخوف من أن يعرّض هؤلاء مركز الإسلام للخطر من خلال مؤامراتهم. وخاصة أنّهم كانوا قد أخلّوا بالأمن فترة من الزمن في المدينة، ولولا الحراسة المكثفة التي عينها الرسول ﷺ لفعلوا أفظع الأُمور والأعمال.

وقد قسمت الغنائم بين المسلمين بعد إخراج الخمس منها، وأُعطي للفارس سهمان،وللراجل سهم واحد، وسلم الرسول ﷺ أموال الخمس لزيد بن حارثة، ليشتري بها السلاح والعتاد والخيل من نجد.[٢]

وقد استشهد سعد بن معاذ الذي كان قد جرح في معركة الخندق، بعد أحداث بني قريظة. وانتهت هذه المشكلة في ١٩ من شهر ذي الحجّة.

---

١. السيرة النبوية:٢/ ٢٤٠؛ المغازي:٢/ ٥١٠؛ زاد المعاد:٢/ ٧٣.

٢. السيرة النبوية:٢/ ٢٤١؛ تاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٠؛ زاد المعاد:٢/ ٧٤.

٤. زواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش

كـان «زيد بـن حارثـة» قد سرقـه قطاع الطـرق وباعـوه في سوق عكـاظ، فاشتراه حكيم بن حزام وأهداه لعمته السيدة خديجة بنت خويلد عليها السلام التي أهدته بدورها إلى النبي ﷺ بعد زواجها. وقد دفعت أخلاق النبي ﷺ وسيرته الحسنة إلى أن يحبه زيد حباً شديداً إلى آخر عمره، حتى أنّه فضل العيش معه ﷺ على الرجوع إلى أهله.

ولما قرر النبي ﷺ بأمر من الله تعالى أن يحطّـم التقاليد الجاهلية في المجتمع العربي، ليعيشوا جميعاً تحت لواء الإنسانية والتقوى إخوة متحابين، فقد زوّج زيداً مـن ابنة عمتـه زينـب بنـت جحش، حفيـدة عبـد المطلـب، مع مـا بينهما مـن الاختلاف في مستـوى الانتماء القبلي والمكـانـة الاجتماعيـة إلاّ أنّ زواجهما لم يـدم طويلاً فافترقا بعد الطلاق. ثمّ تزوجها النبي ﷺ وذلك للتخلّص من تقليد جاهلي آخر مترسب في المجتمـع، حيث كان يعتبر الابن المتبنّـى كالابن الحقيقي،يعـامله مثله تماماً في الحقوق والواجبات. ولذا فقد كلف الله تعالى نبيه ﷺ بأن يقضي على هذا التقليد الجاهلي والسنّة الخاطئة بإجراء عملي ظاهر للعيان، و هـو التزوّج من زينب مطلّقة متبنّاه زيد: ﴿ فَلَمَّا قَضىٰ زَيدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْنـاكَها لِكَي لا يَكُونَ عَلى الْمُؤْمِنينَ حَرَجٌ في أَزواجِ أَدْعيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾.[١]

١. الأحزاب:٣٧.

أحداث السنة السادسة
من الهجرة

١. اليهود

كان لابدّ من القضاء على خطر اليهود، إذا أراد المسلمون حياة الاستقرار والأمن، حتى لا تتكرر قضية الأحزاب مرّة أُخرى، فأرسل النبي ﷺ مجموعة من شجعان الخزرج لتصفية هذا العنصر الحاقد، وكان على رأسهم: سلام بن أبي الحقيق، الذي عاش في خيبر، فخرجوا حتى وصلوا خيبر فدخلوها ليلاً، فدخلوا على المفسد وقتلوه، إذ طالما أزعج المسلمين بفتنه ومؤامراته، وعادوا إلى المدينة سالمين.

٢. قبيلة بني لحيان

قرر النبي ﷺ في هذه السنة تخويف هذه القبيلة، التي اعتدت من قبل على عدد من دعاة المسلمين غدراً ودون رحمة، فقام بسلسلة من المناورات العسكرية واستعراض لقواته القتالية، ليرهب أعداء الله الآخرين أيضاً و قريش خاصة فيذعرهم حيث كان الرسول ﷺ وأصحابه قد نزلوا عسفان على مقربة من مكة،

وكان النبي ﷺ من رأيه، أنّه : «لو هبطنا عسفان لرأى أهل مكّة أنّا قد جئنا مكة». كما ذكر جابر بن عبد الله الأنصاري أنّ النبي ﷺ قال عند رجوعه إلى المدينة: «أعوذ بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال».[1]

٣. بنو غطفان

في ٣ من شهر ربيع الأوّل، اعتدى جماعة من بني غطفان على إبل لرسول الله ﷺ في منطقة الغابة ـــ وهي قريبة من المدينة من ناحية الشام ـ و قتلوا رجلاً وأخذوا امرأة، فطاردهم الرسول ﷺ وقاتلهم في ذي قرد، واستعاد منهم المرأة وعدداً من الإبل .

٤. غزوة بني المصطلق

وهم من قبائل خزاعة المتحالفة مع قريش. قرر زعيمها «الحارث بن أبي ضرار» أن يغزو المدينة، فأعد الرسول ﷺ عدّته للقضاء عليهم، فخرج عندما علم من رجال مخابراته بنواياهم، فلقيهم عند ماء «المريُسيع» وقاتلهم فتفرقوا، وغنم المسلمون منهم كثيراً كما سبوا عدداً كبيراً من نسائهم.

وبعد المعركة، حدث أن تقاتل اثنان من المهاجرين والأنصار على الماء، حتى كادت أن تقع حرب بين الطرفين، لولا حكمة الرسول ﷺ الذي تمكن من إخماد الفتنة في مهدها، وتجنيب المسلمين أخطارها. إلاّ أنّ عبد الله بن أُبيّ رئيس المنافقين استغل الموقف فأثار الأنصار ضدّ المهاجرين، على أساس أنّهم أقلّ

---

١. تاريخ الطبري: ٢/ ٢٥٤؛ المغازي ٢/ ٥٣٥؛ إمتاع الأسماع: ١/ ٢٥٩.

مكانة منهم، ممّا تركت كلماته أثرها في نفوسهم، إذ أنّهم ما زالوا يعانون من بقايا العصبية الجاهلية. وكادت الحركة أن توجه ضربة قاضية إلى صرح الوحدة الإسلامية والإخوة الإيمانية، ولكن زيد بن الأرقم ظهر من بين فتيان المسلمين ليرد عليه بالكلمات القوية: «أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك، ومحمّد في عز من الرحمن ومودة من المسلمين، والله لا أحبك بعد هذا أبداً». ثمّ سار إلى النبي ﷺ يخبره بما حدث من المنافق، فأراد الرسول أن يهدّئ الأوضاع، فأمر بالرحيل في ساعة من النهار لم يكن يرتحل فيها عادة، كما أنّه سار ليلاً ونهاراً دون إستراحة إلاّ للصلاة، وذلك حتى يشغلهم عن الذي حدث من عبد الله بن أُبيّ المنافق.

وقد طلب ابنه عبد الله من النبي ﷺ أن يسمح له بقتل أبيه، حيث كان مسلماً حقيقياً أفضل من أبيه، ولكن الرسول ﷺ قال: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

فما كان من المسلمين إلاّ أن توجّهوا باللوم على ابن أُبيّ، فلحقه من ذلك ذلّ شديد بين الناس ، فلم يعبأ به أحد، ولم يعد له أيّ دور، وعاش بقية حياته محتقراً بين الناس.

وقد تزوّج الرسول ﷺ «الجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار» التي كانت من بين سباياهم، فأسلمت وأسلم أهلها، ثمّ أطلق الباقون وهم مائة عائلة من بني المصطلق، إذ اعتبروا من أصهار النبي ﷺ ،وأطلق جميع أسرى بني المصطلق رجالاً ونساء بفضل هذا الزواج المبارك، وبفضل سياسة النبي ﷺ الحكيمة.

وفي هذه السنة خرج جماعة من قريش تنشد اللجوء إلى الحبشة خوفاً من قوة المسلمين، وكان فيهم عمرو بن العاص، الذي قدم الهدايا الكثيرة إلى الملك،

الذي نصحه بأن يعلن إسلامه، إذ لا مفر من انتشار الإسلام في بلاده، فاضطر إلى أن يسلم على يديه، وكتم أمره عن أصحابه.[١]

٥. قصة الإفك

يرى أكثر المحدّثين المفسرين أنّ القصة ترتبط بالسيدة عائشة زوجة الرسول ﷺ، ويذكرون أحداثاً لا يتلاءم بعضها مع عصمة الرسول الأعظم ﷺ ولذا لا يمكن القبول بها [٢] بينما يذهب آخرون إلى المعني فيها هو مارية القبطية زوجة رسول الله ﷺ وأمّ إبراهيم.

ففي رواية البخاري التي نقلها عن السيدة عائشة، ما يتنافى بقوة مع عصمة النبي ﷺ، لأنّها تكشف عن أنه وقع ﷺ فريسة بأيدي الشائعات الكاذبة إلى درجة أنّه غيّر سلوكه تجاه السيّدة عائشة، بعد أن شكّ في عفافها وشاور أصحابه في أمرها.[٣] إنّ مثل هذا الموقف مع شخص بريء لا يوجد أي دليل على تهمته، لا يتنافى فقط مع مقام العصمة النبوية، بل حتى مع مقام المؤمن العادي. كما أنّ الآية ١٢ و١٤ من سورة النور توبخ أُولئك الذين وقعوا فريسة الشائعات و ظنوا السوء، ممّا يعني أنّ هذا العتاب والتوبيخ كان يعم الرسول ﷺ أيضاً لو صحت رواية البخاري هذه. ولذا فإنّه يُرفض كلّ الرواية المذكورة في شأن النزول الذي يتناقض مع عصمة الرسول ﷺ.

---

١. لاحظ الإختلاف في الموقف هنا و في أوّل عهد الإسلام بمكة.

٢. الدر المنثور:٥/ ٢٤.

٣. صحيح البخاري:٦/ ١٠٢، تفسير سورة النور.

وأمّا بالنسبة لرواية البخاري الأُخرى بشـأن النزول، والتي ينقلها عن عائشة ومفادها: أنّه حدث شجار وصدام بين الأوس والخزرج أمام الرسول ﷺ حينما كان يخطب على المنبر، فـاتّهمـوا بعضهـم بعضاً بسبـب قضيـة الإفـك، حتـى أشـار عليهم ﷺ بالسكوت فهدّأهم حتى انصرفوا، فهي كذلك لا تتناسب مع أحداث التاريخ الصحيح، إذ أنّ «سعد بن معاذ» رئيـس الأوس كان قد توفّي قبل حادثة الإفك، التـي جرت وقائعهـا بعد أحداث معـركة بني قـريظة، وقد صرح بـذلك البخاري نفسه في صحيحه[١]، في باب معركة الأحزاب وبني قريظة، فكيف يمكن أن يحضر مجلس النبي ﷺ ويجادل سعد بن عبادة في قضية الإفك التي وقعت بعد أحداث بني قريظة بعدّة شهور؟

ولذا فمن المهـم أن نعرف أنّ حزب النفاق حـاول أن يزلزل النفوس بـإلقاء التهمة والبهتـان إلى إمرأة صالحة ذات مكانـة وأهمية في المجتمع الإسلامـي. وقد فسر قوله تعالى: ﴿الذي تولّى كبره﴾ بأنّ الـذي تحمل القسـط الأكبر من هـذه العملية الخبيثة هو: «عبد الله بن أُبي» فهو الذي قاد هذه العملية الرخيصة الخطرة، كما صرحت بـذلك السيدة عائشـة نفسها.[٢] فقـد كان «عبـد الله بن أُبي» يعمـل بتجارة الجواري ويضعهـن تحت تصرف الرجال للزنـا بهن، فيجني أرباحاً طـائلة مـن وراء هذه التجـارة البغيضة، حتـى بعـد انتشار الإسـلام في المدينة. ولما كـان يكرههن على البغاء، واشتكـت إحدى نسائه من ذلك، فقد نزلـت الآية الكريمة تشجب عمله الدنيء: ﴿وَلاَ تُكرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلـى البِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا

---

١. صحيح البخاري: ٥/ ١١٣.

٢. السيرة النبوية: ٢/ ٢٩٧، وقد فطن ابن هشام لهذه الناحيـة فترك ذكر سعد بن معاذ بينما غفل عنها البخاري في صحيحه.

عَرَضَ الحَياةِ الـدُّنيا﴾ [١] وعنـدما حـدث العـداء بينه وبين ابنـه بعـد واقعة بنـي المصطلق، عمد إلى فعل كلّ ما يشفي غليلـه ويذهب غيظه، كترويج الشائعات الكاذبـة انتقامـاً من المجتمع الإسـلامي، ليعمل على بلبلـة الرأي العـام ويشغله بـالتوافـه من القضـايـا، ويصرفه عـن القضـايا المهمـة والمصيرية، إذ أنّ سـلاح الشـائعـات يعتبر مـن الأسلحـة المدمـرة،وتستخـدم في تشـويـه سمعـة الأفـراد الصالحين والمجتمع أيضاً.

أمّا الروايـة الأُخرى، فترى أنّ المقصود من الآية ماريـة القبطية، حيث اتهم فردٌ يـدعى جريح بعـد وفاة ابنها إبراهيـم بأنّه هـو والد إبراهيم وليـس النبي ﷺ فأرسل ﷺ الإمام علياً ليقتلـه، فصعد جريح إلى نخلة خـوفاً من علي عليه السلام وفتكه به، فتعقّبه عليٌّ، فرمى بنفسه من فوقها فبـدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال ولا له ما للنساء، فرجع علي عليه السلام إلى النبي ﷺ فأخبره بما رأى، فقال النبي ﷺ: الحمد لله الذي صرف عنّا السوء أهل البيت .[٢] وجميع هذه الروايات ضعيفة فلا يمكن القبول بها في شأن نزول آيات الإفك.

٦. الحديبية: رحلة دينية سياسية

كانت السنـة ٦ هـ تقترب من نهايتها حينما رأى الـرسول ﷺ في المنام أنّه دخل الكعبـة وحلق رأسه وأخـذ مفتاح البيـت. فقص ﷺ رؤياه على أصحـابه، وتفاءل بها خيراً.[٣]

---

١. النور:٣٣.

٢ بالرغم ما ذكر عن الإمام علي عليه السلام أنّه لم ينظر إلى عورة قط، ولذا قيل عنه كرم الله وجهه.

٣.مجمع البيان:٩/ ١٢٦.

إنّ هذه الرحلة الروحانية انتجت مصالح اجتماعية وسياسية، عزّزت مكانة المسلمين في الجزيرة العربية وساعدت على نشر الدين الإسلامي فيها، وذلك لأنّ:

ـ القبائل العربيـة المشركة تصورت أنّ النبي ﷺ خالف كلّ عقائد العرب وتقاليدهـم الموروثة بما فيها الحج والعمرة، فـأكد بذلك الصلـح وتجنّب القتال في الشهر الحرام أنّه لا يعارض تلك الطقوس الدينية، بل يعتبرها فريضة مقدسة مثل والد العرب الأكبر «إسماعيل بن إبراهيم» ويعمل على المحافظة على هذه التقاليد الدينية، ممّا قلل من مخاوفهم تجاه الرسول ﷺ ودعوته.

ـ و لما لم يكن يحمل أسلحة معه على أسـاس حرمة الأشهر الحرم، فإنّ ذلك غيّر من نظرة هؤلاء تجاه دعوة الإسلام حين شاهدوا الرسول ﷺ وهو يحرّم القتال في الشهر الحرام،ويدعو إلى رعاية هذه السنّة الدينية القديمة.

ـ وستكـون مناسبـة يتمكن المهـاجرون فيهـا من زيـارة وطنهم وأهـاليهم وأقربائهم. أمّا إذا منعتهم قريش مـن الدخول فإنّ سمعتها هي تتعرض للخطر، ويتضح عـدوانُها، وينكشف للجميـع بطلان مواقفهـا، نظراً لموقفهـا السّيئ تجاه جماعة مسالمة أرادت أداء مراسم العمرة فقط.

ـ و إذا نجح المسلمون في سعيهم بأداء مناسك العمرة، فإنّه سيكون أفضل إعلام لجميع منـاطق العرب، إذ أنّ نداء الإسلام سينتشر في تلك البقـاع والمناطق التي لم يصلها دعاة النبي ﷺ ومبلغوه حتى هذا الوقت.

ـ و لذا فإنّ الرسول ﷺ أمر أصحابه بالتهيّؤ للعمرة داعياً القبائل المجاورة التـي لم تزل على كفـرهـا وشركها إلى مـرافقة المسلمين في هـذه الـرحلة وبلغـت أعدادهـم ألف وأربعمائة أو ١٦٠٠ أو ١٨٠٠، أحـرموا في ذي الحليفـة فشاع في الجزيرة العربية أنّ المسلمين متجهون صوب مكة للعمرة في شهر ذي القعدة.

وعند عُسفان، أخبروا الرسول ﷺ بأنّ قريشاً ترفض السماح لهم بالدخول إلى مكّة، كما أرسلت كتيبة من أفرادهم بقيادة: خالد بن الوليد، لتنفيذ الأوامر المعلنة، فغيّر الرسول ﷺ طريقه حتى لا يلتقي بخالد، سالكاً طرقاً وعرة حتى وصل الحديبية، التي بركت فيها ناقة الرسول ﷺ فنزلوا في ذلك المكان، إلاّ أنّ خالد بن الوليد تمكن من الوصول بكتيبته وحاط بهم وحاصر موكبهم. ولكن النبي ﷺ لم يكن قد جاء ليحارب في سبيل دخول مكة، ولم يكن هذا هدفه، ولذا فإنّ التفاوض كان من أفضل الحلول لهذه المشكلة، فقال ﷺ: «لا تدعوني قريش اليوم إلى خُطة يسألونني فيها صلة الرحم إلاّ أعطيتهم إيّاها». فبلغ ذلك مسامع الجميع، فقرروا إرسال عدد من أفرادهم إلى الرسول ﷺ للتعرف على هدفه الأصلي من رحلته ومجيئه إلى مكة، فبعثوا إليه بأربعة أشخاص لتفهّم موقف الرسول ﷺ فقال لهم ﷺ: «إنّا لم نجئ لقتال أحد ولكنّا جئنا معتمرين».

إلاّ أنّ المندوبين أكدوا للمسلمين أنّ قريشاً لن تقبل بدخولهم مكة: «يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً». فذهبت كلّ تلك المفاوضات سدى دون جدوى، ممّا جعل الرسول ﷺ يرسل مندوباً عنه إلى قريش يوضح الصورة الصحيحة لهدفهم، وهو زيارة بيت الله وأداء مناسك العمرة، إلاّ أنّ قريشاً ـ خلافاً لكلّ الأعراف الدولية والاجتماعية ـ والتي تقضي بحماية السفراء واحترامهم، عمدت إلى عقر الجمل الذي قدم عليه السفير والمندوب النبوي، بل كادوا أن يقتلوه أيضاً، لولا تدخل جماعة من قادة العرب، فخلّت سبيله ليعود إلى النبي ﷺ. كما أنّ قريشاً أرسلت كتيبة لإرهاب الرسول ﷺ وجماعته وإرعابهم ونهب شيء من أموالهم، إلاّ أنّ الوضع لم يكن في صالحهم فقد أسرهم المسلمون وكانوا خمسين فرداً، فتدخل النبي ﷺ وعفا عنهم و خلّى سبيلهم، ليؤكد لهم أنّه جاء يريد

السلام، وأنّ هؤلاء ينشدون الحرب والقتال.

واختار الرسول ﷺ «عمر بن الخطاب» لمهمة سفارة أُخرى لقريش، لأنّه لم يكن قد أراق دم أيّ من المشركين حتى ذلك الوقت، ولكنّه اعتذر عن تحمّل هذه المسؤولية المحفوفة بالمخاطر قائلاً: «يا رسول الله، إنّي أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي من يمنعني،ولكنّي أدلّك على رجل أعزّ بها منّي عثمان بن عفان».[١] إلاّ أنّ قريشاً ألقت القبض على عثمان وحبسوه،لعلّهم يتوصلون إلى حلّ فيطلقوه ليبلغ الرسول ﷺ رأيهم. فلمّا أبطأ عثمان عنهم، وأوجد ذلك قلقاً شديداً في نفوس المسلمين، وخاصة إنّه أُشيع أنّ عثمان قتل، فإنّ المسلمين ثاروا وقرروا الانتقام والقتال، ممّا دعا النبي ﷺ إلى أن يجدّد بيعته مع المسلمين، فبايعوه تحت الشجرة على الاستقامة والثبات والوفاء، وحلفوا ألاّ يتخلّوا عنه أبداً، وأن يدافعوا عن حياض الإسلام حتى النفس الأخير، وسميت هذه البيعة: بيعة الرضوان، التي ذكرها القرآن الكريم بقوله: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤمِنينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرة فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَة عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً**﴾.[٢] وبذا فإنّ موقف المسلمين تحدّد في: إمّا دخول مكة وزيارة بيت الله، وإمّا القتال فيما لو تصلب موقف قريش الرافض لذلك. ولكن «عثمان بن عفان» رجع إليهم وأخبرهم أنّ اليمين التي التزمت بها قريش بمنعهم من دخول مكة هذا العام، هي التي تجعلهم في موقف متصلب رافض، وأنّهم سيرسلون إلى الرسول ﷺ من يتفاوض معه في هذا الشأن. وكُلّف سهيل بن عمرو بإنهاء هذه

---

١ .السيرة النبوية:٢/ ٣١٥، كما أنّ بينه وبين أبي سفيان قرابة، فهو أموي.

٢. الفتح:١٨.

المشكلة. ونتج عن التفاوض بين الطرفين عقد صلح شامل و واسع بينهما.

وفي الوقت الذي كان المندوب القرشي يتصلب في بعض البنود و المواد، فإنّ النبي ﷺ كان يتساهل معه ويتنازل عنها، ممّا كان له أثر بعيد، فالتسامح الذي أبداه الرسول ﷺ في تنظيم وثيقة الصلح، لا يعرف له نظير في تاريخ العالم، لأنّه أظهر بجلاء أنّ رسول الله ﷺ لم يقع فريسة بيد الأهواء والأغراض الشخصية والعواطف والأحاسيس العابرة، فكان يعلم أنّ الحقائق لا تتبدل ولا تتغير بالكتابة والمحو،وهو ما جعله يتسامح مع مفاوض قريش الذي تصلب في مطالبه غير الشرعية، وذلك حفاظاً على أصل الصلح وحرصاً على السلام. وقد حدث خلال ذلك، أنّ طلب المندوب القرشي بأن يمسح الرسول ﷺ ما كتبه: «بسم الله الرّحمن الرّحيم» ويكتب بدلاً منه: باسمك اللّهمّ. كما طلب مسح كلمة «رسول الله» وإبدالها بمحمد بن عبد الله. فأجابه الرسول ﷺ إلى ذلك.

أمّا صلح الحديبية، فكان من أبرز بنوده:

١. وقف القتال عشر سنين بين الطرفين.

٢. من قدم إلى النبي من قريش دون إذن وليّه، يردّه عليهم، ومن جاء قريشاً من محمّد لا يردّوه إليه.

٣. السماح بدخول أيّ طرف في التحالف مع أيّة أطراف.

٤. يرجع المسلمون هذا العام على أن يقدموا العام القادم للعمرة.

٥. لا يُستكره أحدٌ على ترك دينه، ويعبد المسلمون الله بمكة بحرية وأمان.

٦. احترام الطرفين لأموالهم، فلا خيانة ولا سرقة.

٧. لا تعين قريشٌ على محمّد وأصحابه أحداً، سواء بسلاح أو أفراد.[١]

---

١. بحار الأنوار: ٢٠/ ٣٥٢؛ السيرة الحلبية: ٣/ ٢١؛ مجمع البيان: ٩/ ١١٧.

ثـمّ كتبـت الوثيقـة بنسختين،ووقـع عليهـا نفـر مـن شخصيات قـريـش والمسلمين شهوداً عليها، وتسلم سهيل بن عمرو نسخة قريش، واحتفظ النبي ﷺ بالنسخة الأُخرى.

وكثيراً ما اعترض المسلمون على بعـض البنود، كالبند القـاضي بتسليم كلّ مسلم سار إلى الرسول ﷺ من قريش، والعكس، فأوضحه الرسول ﷺ.

«من جاءهـم منّا فأبعده الله، ومن جـاءنا منهم رددناه إليهـم، فلو علم الله الإسلام مـن قلبه جعـل له مخرجـاً». فلا قيمـة لإسلام وإيمان مـن يترك المسلمين ويهرب لاجئاً عند المشركين، إذ أنّه يـؤكد بفعله أنّه لم يؤمن حقّـاً بالإسلام، ولذا لم يكن هناك حاجة لقبوله في جماعتهم.

وهذا الميثاق يؤكد نزاهة الإسلام وروحه وحقيقة تعاليمه،وأنّه لم يُطلَب نشره بقوة وإجبار، كما يذكره الأجانب وغيرهم دوماً.

وبعد الانتهاء من تلك المراسيم وعودة جماعة قريش، قام الرسول ﷺ بنحر ما كان معه من الهدي في نفس ذلـك المكان وحلق، وأدّى الآخرون نفس العملية، ثمّ عادوا إلى المدينة بعد ١٩ يوماً من البقاء في أرض الحديبية.

وكان لهذه المعاهدة نتائج وآثار بعيدة المدى، كان من أبرزها وأهمها:

١ . تهيّأت الأرضيـة لنشر الإسلام في المناطـق المختلفة، بعد استقـرار الأمن والسلام بين المسلمين وقريش، فقد كان يقضي ﷺ أكثر وقته في العمل على إفشال المؤامرات والدفاع عن المدينة والدخول في حروب.

٢ . كان لاعتراف قـريش بالكيان الإسـلامي رسمياً، دوره في منـح القبائل حريتها في الانضمام إلى المسلمين إذا شاءوا.

٣. زال الستار الحديدي الذي ضربه المشركون حول المسلمين في المدينة، فتمكن الناس من الارتحال إلى المدينة والتعرف عليها وعلى تعاليم الإسلام العليا، ممّا فسح المجال لهم في اعتناق الإسلام كما تمكن المسلمون من السفر إلى مكة وأجزاء أُخرى، ممّا ساعد في نشر الإسلام في تلك الجهات.

٤. التحق عددٌ كبير من رؤوس الشرك والكفر كـ«خالد بن الوليد و عمرو ابن العاص» بالمسلمين واعتنقوا الإسلام قبل فتح مكة.

٥. زال الحاجزُ النفسي بين قريش و المسلمين، حين أثبت الرسول ﷺ لهم بأنّه معدن عظيم من معادن الخلق الإنساني الكريم، بعد صبره وتجلده وتحمّله تصلّب قادة المشركين وتعنّتهم. فقد شاهدوا موقف النبي الأكرم ﷺ في مخالفته لآراء المعرضين من جماعته لبعض البنود عند توقيع العقد، وذلك في رغبة صادقة منه لإقرار السلام بين الجانبين،فأبطل بذلك كلّ الدعايات والإشاعات المغرضة التي رُوِّجت ضدّه و ضدّ دعوته المباركة، وأثبت أنّه حقّاً رجل سلام وداعية خير للبشرية، حتى لو سيطر على مقاليد الجزيرة العربية، فإنّه سيعامل أعداءه باللطف والحسنىٰ والتسامح.

ويؤكد ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام بعد ذلك:«وما كان قضية أعظم بركة منها». إذ لم يكد النبي ﷺ أن يصل إلى المدينة حتى نزلت سورة الفتح التي وعدت المسلمين وبشّرتهم بالانتصار، ممّا اعتبر مقدمة لفتح مكة ﴿**انّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبيناً**﴾.[1]

وكانت المادة الثانية من المعاهدة، والتي اختلف حولها المسلمون، هي التي

١. بحار الأنوار: ٢٠/ ٢٦٣؛زاد المعاد:٢/ ١٢٦.

تسبّبت في الفتح بعـد ذلك، لأنّ قريشاً طلبـت من النبي ﷺ بعد فترة قصيرة من توقيـع المعاهدة بـإلغاء تلك المادة التي تنص: على الحكـومة الإسلاميـة أن تعيد كـلّ مسلم هـارب من مكـة إلى قـريش، وليـس عليهـا أن تعيد كـلّ هارب مـن المسلمين.

ولما أثارت هذه المادة المسلمين، فإنّ النبي ﷺ طمأنهم حينما ذكر لأحدهم: «إنّ الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً».

ذلك أنّ بعض هؤلاء المسلمين الهاربين تمكّنوا من تـأسيس عصابة خاصة في مراكز بعيدة عـن مكة والمدينة، للنيل من قوافل قريـش التجارية والتعرض لها وقتل من يقع في أيـديهم، الأمر الذي أقلق بال قريـش، فراسلوا النبي ﷺ طالبين منه إلغاء هذه المادة للتخلص ممّا هم فيه من قلـق وتوتر، فوافق الرسول الكريم ﷺ على ذلـك، ولـذلك انضـم هـؤلاء المسلمـون المتفرّقـون إلى جماعـة المسلمين بالمدينة، إلاّ أنّ النبي ﷺ لم يقبل بإعادة المسلمات، كما حدث «لأُمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيـط» التي هاجرت إلى المدينـة فطلبوها، ولكـن النبي ﷺ قال: «إنّ الله نقض العهد في النساء».[1]

وقد جاء كلّ ذلك كما حكى القرآن الكريم في سورة الممتحنة:

﴿يا أَيُّهَا الّذيـنَ آمَنُوا إذا جاءَكُمُ المُؤْمناتُ مُهاجِراتٍ فـامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإيمانِهنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُـوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَـى الكُفّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لهُنَّ وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا﴾.[2]

---

١. المغازي: ٢/ ٦٣١؛ السيرة النبوية: ٢/ ٣٢٣.

٢. الممتحنة: ١٠.

الفصل الثامن

١ . أحداث السنة السابعة من الهجرة

- إعلان النبي ﷺ عن عالمية رسالته
- أحداث خيبر
- قصة فدك
- عمرة القضاء

٢ . أحداث السنة الثامنة من الهجرة

- معركة مؤته
- غزوة ذات السلاسل
- فتح مكة
- معركة حنين
- غزوة الطائف

أحداث السنة السابعة من الهجرة

١. إعلان النبي ﷺ عن رسالته عالمياً

كان من نتائج المعاهدة السابقة، أنّها أعطت الفرصة للنبي ﷺ ليفتح باب الاتّصال مع زعماء وملوك العالم ورؤساء القبائل ورجال الدين المسيحي، فوجّه إليهم الرسائل عبر سفرائه ورسله، وهي خطوة اتّخذها الرسول ﷺ بعد ١٩ عاماً من الصراع مع قريش المتعنّتة، فقد أشغلته الجبهة الداخلية ومشكلاتها وأجبرته على أن يصرف كثيراً من وقته في ترتيب البيت الإسلامي، وشؤون الدفاع عن حياض الإسلام وكيان المسلمين.

ولدينا الآن نصوص ١٨٥ رسالة وكتاب من قِبَل رسول الله ﷺ أرسلها إلى عدّة أطراف وشخصيات محليه وعالميه تدعوهم إلى تقبّل الدين الإسلامي، كما تتضمن عقد مواثيق عقدها مع رؤساءالقبائل، قام بجمعها وضبطها أرباب السير وكُتّاب التاريخ، وهي تكشف عن أُسلوب الإسلام في الدعوة والتبليغ، وأنّه يعتمد على المنطق والبرهان، لا على السيف و القهر، وعلى الإقناع لا الجبر.[١]

---

١. أفضل ما تناول الموضوع من مصادر كتابان: أ. الوثائق السياسية للبروفيسور محمد حميد الله حيدر آبادي الأستاذ بجامعة باريس.

ب. مكاتيب الرسول للعلاّمة المحقّق الشيخ علي الأحمدي. و هو يمتاز بتحقيقات وتحليلات أدبية وتاريخية وسياسية إسلامية في غاية الأهمية.

فالدعوة الإسلامية كانت عالمية منذ ظهور الدعوة المحمدية، ويمكن الرد على المستشرقين المعادين للإسلام، والذين يؤكدون على عدم عالمية الدعوة المحمّدية، وينظرون إليها بعين الشكّ والريبة، في محاولة للتعتيم على الحقيقة، فإنّ القرآن الكريم يظهر بوضوح في آياته التي تشهد بأنّ النبي ﷺ دعا البشر عامة إلى التوحيد وإلى مبادئ رسالته، ولم يقتصر في ذلك على العرب:

- ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلاّ كافّةً للنّاسِ بَشيراً وَنَذِيراً﴾.[١]

- ﴿وَما هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمين﴾.[٢]

- ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيّاً﴾.[٣]

- ﴿هُوَ الّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدىٰ وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون﴾.[٤]

ولذا فإنّ النبي ﷺ اختار ستة أفراد من خيرة أصحابه حملوا كتبه إلى الملوك، تضمنت دعوته العالمية، إلى مختلف جهات الأرض،فتوجه سفراء الهداية ورسل الدعوة المحمّدية في وقت واحد إلى: إيران والروم والحبشة ومصر واليمامة والبحرين والحيرة، واتّخذ من هذا اليوم الذي كتب فيه الرسائل خاتماً من فضة نقشه ثلاثة أسطر: محمّد رسول الله، في الأعلى لفظة الجلالة، وتليه كلمة رسول ثمّ يليه اسمه الشريف، فختم به الكتب. كما أنّه ختم تلك الرسائل بالشمع أو الطين إمعاناً في السرية وحفاظاً عليها من التزوير.

١. سبأ: ٢٨.
٢. القلم:٥٢.
٣. يس:٧٠.
٤. التوبة:٣٣.

ومن أبرز مبعوثيه ورسله إلى العالم:

١ . دحية بن خليفة الكلبي: بعثه إلى قيصر الروم في القسطنطينية.

وقد توجه إلى بصرى حيث كان معه رسالة إلى حاكمها،فساعده في الوصول إلى بيت المقدس التي كان قيصر الروم قد اتجه إليها. ولما قيل له أنّ عليه أن يسجد عند مقابلة قيصر، رفض على أساس أنّه لا يسجد لغير الله: «إنّما جئتكم من قِبَلِ نبي لأبلّغ ملككم بأن عهد عبادة البشر قد انقضى وانتهى، وأنّه لا يحق السجود إلاّ لله وحده، فكيف يمكنني ذلك وأنا أحمل هذه الرسالة التوحيدية إليكم؟».[١]

وقرأ ترجمان القيصر كتاب النبي ﷺ إليه: «بسم الله الرّحمن الرّحيم، من محمّد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتّبع الهدى. أمّا بعد، فإنّما عليك إثم الأريسيين. و ﴿**يا أَهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهدوا بِأَنّا مُسْلِمُون**﴾[٢] . محمد رسول الله».

وكان قيصر قد حصل على معلومات وافية عن الرسول ﷺ من أبي سفيان الذي كان متواجداً في هذا الوقت في الشام في تجارته، كما كتب إلى أحد علماء الروم يسأل عنه ﷺفأجابه:

«هذا النبي الذي كنّا ننتظره،بشّرنا به عيسى بن مريم».ولذا فإنّه دعا قومه إلى الإيمان به ﷺوبالإسلام، إلاّ أنّهم رفضوا ذلك وثاروا عليه، فأسكتهم،ثمّ أمر بإكرام دحية،وكتب جواباً على رسالة النبي ﷺ وأرسل معه هدية إليهﷺ .

---

١ . طبقات ابن سعد: ١/ ٢٥٩.

٢ . آل عمران: ٦٤.

٢. عبد الله بن حذافة السهمي: إلى البلاط الفارسي.

حكم فارس خسرو بـرويز ثاني ملك بعد أنـو شيروان، فجلس على العرش مدّة ٣٢ عاماً قبل الهجرة النبوية، وتميز عهده بالاضطراب وعدم الاستقرار، بالرغم من أنّ النفـوذ الإيـراني قـد امتـدّ حتـى شمـل آسيـا الصغـرى حتـى مشـارف القسطنطينية، كما استولى على صليب عيسـى المقدس عند النصارى وأحضره إلى المدائن، إلاّ أنّ الأحوال السيّئـة وأساليب الحكم غير الصحيحـة أدّت إلى ضعف هذه الـدولة وخروج المستعمـرات من تحت نفوذها، ممّـا ساعد على اجتيـاح الروم لأراضي إيران،وهروب الامبراطـور خسرو برويز، الذي أثار بذلـك السخط عليه، فقتله ابنه شيرويه. و برويز هذا هو الامبراطور الـذي اشتهر بأنّه مزّق رسالة النبي ﷺوعامل رسوله بجفاء وسوء أدب، وفيما يلي نص الرسالة إليه:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم. من محمّد رسول الله إلى كسرىٰ عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّ محمّداً عبـده ورسوله، أدعوك بـدعاية الله، فإنّي أنـا رسول الله كافة لأنـذر من كـان حياً، ويحق القـول على الكـافـرين. أسلـم تسلـم. فـإن أبيت فعليـك إثـم المجوس».

وقد مزق الإمبراطور الكتاب عند قراءة أوّل جملة منها ودون أن يعلم ما كان فيها، ثمّ أمر بإخراج الرسول من قصره. وعندما أُخبر النبي ﷺبذلك قال: «اللّهمّ مزّق ملكه».[١]

إلاّأنّ اليعقوبي، ينفـرد برأي آخر، بأنّ الامبراطـور الفارسي أرسل هديـة من حرير ومسـك إلى النبي ﷺ. ويوافقـه على رأيه أحمد بن حنبـل فقط الـذي قال:

---

١. طبقات ابن سعد:١/ ٢٦٠.

أهدى كسرى لرسول الله ﷺ فقبل منه.[1]

أمّا الإمبراطور المغرور فإنّه طلب من واليه على اليمن باذان ـ التي كانت تتبع فارس ـ بأن يقبض على هذا النبي ويبعثه إليه. فأرسل هذا إليه فارسين طلبا من النبي ﷺ أن يسلّم نفسه للامبراطور الفارسي أو يقتلاه، فردّ عليهما بأن عرض ﷺ عليهما الإسلام، على أن يعودا إليه في اليوم التالي. وفي هذه الفترة، تخلص ابن الامبراطور الفارسي منه بقتله، فأخبر الله تعالى نبيه بذلك، فذكره للفارسين قائلاً: إنّ ربّي قد قتل ربّكما ليلة كذا من شهر كذا بعد ما مضى من الليل كذا، وسلط عليه شيرويه فقتله. وكانت الليلة الثلاثاء من العاشر من جمادى الأُولى ٧هـ. فطلبا السماح لهما بإخبار ملكهم باذان في اليمن بما جرى، فسمح لهما الرسول ﷺ: «نعم أخبراه ذلك عني، إنّ ديني و سلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرىٰ وينتهي إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملكتك على قومك».

ولما تأكد الوالي باذان في اليمن من صحة أقوال النبي ﷺ وما حدث بفارس، فإنّه أعلن إسلامه مع جميع أعضاء حكومته ـ وهم من الفرس ـ وكتب بذلك إلى النبي ﷺ.[2]

٣. حاطب بن أبي بلتعة، إلى مصر:

وقد نصت الرسالة إلى المقوقس حاكم مصر: «أسلم يؤتك الله أجرك مرّتين. فإن توليت فإنّما عليك إثم القبط».

---

١. مسند أحمد بن حنبل: ١/ ٩٦.

٢. بحار الأنوار: ٢٠/ ٣٩١.

وقد توجه الرسول إلى الإسكندرية حيث كان يعيش هناك في قصر شامخ، وكان متسامحاً، ممّا جعل حاطباً يتناول في خطابه إيّاه صورة الإسلام وقوّة النبيّ ﷺ كما ذكر التوراة والإنجيل، وأنّ الإسلام هو الصورة الأكمل لدين المسيح، ثمّ إنّ المقوقس طلب منه أن يصف الرسول ﷺ ويبين مضمون دعوته، فقال، بعد أن سمع وصفه: «كنت أعلم أنّ نبياً بقي، وكنت أظن أنّ مخرجه بالشام فأراه قد خرج من أرض العرب. والقبط لا تطاوعني في اتّباعه، وسيظهر على البلاد، وينزل أصحابه من بعد بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما هاهنا».

ثمّ كتب كتاباً إلى النبي ﷺ: «أمّا بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد أكرمتُ رسولك وبعثتُ إليك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط، وبثياب، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك».[١]

وحينما تسلم النبي ﷺ كتابه وهداياه قال: «ضنّ بملكه ولا بقاء لملكه».[٢]

٤. عمرو بن أمية الضميري، إلى الحبشة

اختير عمرو لتسليم كتاب النبي ﷺ إلى نحاشي الحبشة الملك العادل، وكان النبي ﷺ قد أرسل إليه من قبل رسائل بشأن المهاجرين المسلمين للاعتناء بهم ورعايتهم.

وشمل كتابه ﷺ هذه المرة دعوته إلى الدين: «أحمد الله الذي لاإله إلاّ هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن، وأشهد أنّ عيسى بن مريم روح الله وكلمته، وإنّي أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته وأن تتبعني

١. طبقات ابن سعد: ١/ ٢٦٠.
٢. طبقات ابن سعد: ١/ ٢٦٠.

وتوقن بالـذي جاءني، فإنّي رسول الله و إنّي أدعوك وجنودك. وقـد بلّغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتّبع الهدى».[١]

ونظراً للعلاقات الطيبة بين الطرفين، فإنّ الرسول ﷺ بدأ كتابه بالسلام عليه ومرسلاً تحياته الشخصية، في حين أنّه لم يفعل هذا في الكتب الأُخرى التي أُرسلت إلى كسرى و قيصر والمقوقس، فقد خصّه بالسلام عليه دون غيره من الزعماء.

أمّا النجاشي فقد اعترف بنبوة النبي ﷺ: «أشهد بالله أنّه للنبي الذي ينتظره أهل الكتاب، و إنّ بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل، وأنّه ليس الخبر كالعيان، ولكـن أعواني من الحبشة قليل، فانظـرني حتى أُكثّر الأعوان، وأُليّن القلوب، ولو استطيع أن آتيه لأتيته».[٢]

وكتب بذلك كتاباً إلى النبي ﷺ ذكر فيه: «إلى محمّد رسول الله من النجاشي. سلام عليـك يا نبـي الله ورحمة الله وبركـاته، الـذي لاإله إلاّ هـو الذي هـداني إلى الإسلام. أشهد أنّـك رسول الله وقد بايعتـك وبايعت ابن عمـك وأسلمت على يـديه لله ربّ العـالمين. فإنّي أشهـد أنّ مـا تقول حـقّ. والسلام عليـك ورحمة الله وبركاته».[٣]

كما بعث إليه بهدايا خاصة.

٥. شجاع بن وهب: إلى أمير الغساسنة:

انزعج ملكها «الحارث بن أبي شمر الغســاني» ممّا قرأ في آخر الكتاب: «و إنّي

١. السيرة الحلبية: ٣/ ٢٤٨؛ إعلام الورى: ٤٥.

٢. السيرة الحلبية: ٣/ ٢٤٨؛ الطبقات الكبرى: ١/ ٢٥٩.

٣. تاريخ الطبري: ٢/ ٢٩٤؛ بحار الأنوار: ٢٠/ ٣٩٢.

أدعـوك أن تؤمــن بالله وحـده لا شريك لـه يبقى ملكـك» فقال: مـن ينتزع منّـي ملكي؟ أنـا سائر إليـه ولو كـان باليمـن جئته. وأعـدّ الجيوش واستعـرض قوتـه العسكرية أمام سفير النبي ﷺ إرعاباً وتخويفاً، ثـمّ أرسل إلى قيصر يخبره بنواياه، إلاّ أنّ قيصر هدّأ من ثائرته وكتب إليه يمنعـه من السير إلى رسول الإسلام، ممّا كان له الأثر في تغيير موقفه، فأكرم السفير ومنحه هدايا ثمينة، ووجهه نحو المدينة معززاً مكرمـاً، وأبلغ السـلام إلى النبي الأكـرم ﷺ. إلاّ أنّ النبــي ﷺ لم يقبل بأُسلـوبه الدبلوماسي غير الصادق، فقال: بـاد ملكه. أي أنّ ملكه سيزول عمّا قريب. فمات الحارث في السنة ٨هـ أي بعد عام واحد.[١]

٦. سليط بن عمرو إلى ملك اليمامة: هوذة بن علي الحنفي:

ونص خطابه ﷺ إليه «إعلم إنّ ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر (أي يعم الشرق والغرب) فأسلم تسلم واجعل لك ما تحت يديك».

وقـد استطـاع السفير بما أُوتي مـن قـوّة في المنطـق وشجـاعـة أدبيـة وخبرة بالأسفار، أن يقنـع ملك اليمامة بقبول مبـادئه وأهدافه. كما نصحه أحـد الأساقفة بتقبل الـدين الجديـد، وأنّه هـو النبي الـذي بشّر به الإنجيـل. فكتب كتـاباً إلى النبي ﷺ قال فيه: «مـا أحسن ما تدعو إليـه وأجمله، وأنا شاعر قـومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكـاني، فاجعـل إليّ بعض الأمـر اتّبعك» أي أنّـه طلب أن يجعلـه النبي ﷺ خليفة من بعده. فقـال الرسول ﷺ: لا ولا كرامة،لو سألنـي سيابة من الأرض ما فعلت. اللّهمّ أكفنيه.[٢]

---

١. السيرة الحلبية:٣/ ٢٥٥؛ طبقات ابن سعد:١/ ٢٦١.

٢. نفس المرجع السابق. سيابة من الأرض: أي قطعة من الأرض.

آثار تلك الرسائل ونتائجها

أصبح هؤلاء السفراء والرسل دليلاً قاطعاً على عالمية الرسالة الإسلامية، إذ أنّ شعوباً كبرىٰ تعرفت على النبي العربي محمّد ﷺ الذي تأثر به معظم هؤلاء القادة والملوك، فأصبح ظهوره ﷺ حديث الأوساط والمحافل الدينية بالإضافة إلى المراكز السياسية. فقد تمكنت هذه الرسائل من إثارة مشاعر تلك الشعوب المتحضرة ودفعتهم إلى البحث والتحقيق حول من بشّر به التوراة والإنجيل، وتسابقت أفواجٌ وفرقٌ عدة من رجال الدين وغيرهم بالقدوم إلى المدينة لدراسة أوضاع الدين الجديد والتعرف على مبادئه.

٢. أحداث خيبر: بؤرة الخطر

تقع خيبر على بعد ٣٢ فرسخاً من المدينة، وهي منطقة واسعة خصبة، سكنها اليهود وبنوا فيها الحصون والقلاع المتينة، وبلغ عدد سكانها ٢٠ ألف فرد.

ولما كانوا ممّن اشتركوا في جيش الأحزاب وساعدوا المشركين في حربهم ضدّ النبي ﷺ والمسلمين،فإنّ النبي ﷺ أسرع للقضاء عليهم وعلى خطرهم نحو الإسلام والمسلمين،إذ هم أشدّ تعصباً لدينهم،من تعصب قريش للوثنية،فقد كان يعلن ألف مشرك وثني إسلامهم في مقابل يهودي واحد. كما أنّ النبي ﷺ تخوّف من استغلال جهات أُخرى معادية كالقيصر أو كسرى، لهؤلاء اليهود في القضاء على الدولة الإسلامية، إذ لا يستبعد منهم ذلك،وخاصة أنّهم كانوا المحرّضين لقريش في محاربة المسلمين.

ولذا فقد أعدَّ النبي ﷺلغزو آخر مركز من مراكز اليهود في الجزيرة العربية وقال: لا تخرجوا معي إلاّ راغبين في الجهاد أمّا الغنيمة فلا، فخرج معه ألف و٦٠٠

مقاتل.

وعندما وصل إلى المنطقة، قطع الطريق عن أيّة إمدادات عسكرية تأتي من الشمال وذلك بقطع خط الارتباط بين قبائل غطفان وفزارة ويهود خيبر، فلم تستطع هذه القبائل أن تمد حلفاءها اليهود بأيّ شيء طوال شهر هو مدّة الحصار.[1]

ولمّا كانت حصونهم وقلاعهم متينة وقوية وممتنعة بمتاريس قوية شديدة، فإنّه كان لابدّ لفتحها من استخدام تكتيك عسكري مناسب، فكان أوّل عمل قام به الرسول ﷺ هو احتلال كلّ النقاط والطرق الحساسة ليلاً، بالسرعة والسرية.

أمّا اليهود فقد قرروا في اجتماعهم العسكري أن يضعوا الأطفال و النساء في حصن،والذخيرة من الطعام في حصن آخر، بينما يستقر المقاتلون على الأبراج يدافعون عن القلاع والحصون، في الوقت الذي يخرج أبطالهم ليقاتلوا المسلمين و يبارزونهم خارج الحصون، و لذلك فإنّهم تمكنوا من مقاومة الجيش الإسلامي لمدّة شهر، بحيث كانت محاولة فتح كلّ حصن تستغرق عشرة أيّام دون نتيجة.

وقد فتح أوّل حصن وهو ناعم بعد أن استشهد في معاركه: محمود بن مسلمة الأنصاري، وهو أحد فرسان المسلمين،وجرح خمسون مقاتلاً نقلوا إلى منطقة مخصصة للتمريض والعلاج، حيث سمح لبعض نساء بني غفار بالحضور إلى خيبر للمساعدة في التمريض والتضميد وتقديم خدمات أُخرى في المعسكر. ثمّ جرى فتح حصن القموص وأُسرت فيه «صفية بنت حيي بن أخطب» التي

---

١. الأمالي للطوسي: ١٦٤. ويرى ابن هشام في سيرته: ٢/ ٣٢٨ أنّ خروج النبي ﷺ إلى خيبر كان في شهر محرم، بينما ذهب ابن سعد في الطبقات: ٢/ ٧٧ أنّه كان في جمادى الثانية ٧هـ.

ولما كان إرسال الرسل و المندوبين عنه ﷺ في شهر محرم، فإنّ الرأي الثاني هوالأقرب إلى الصحة.

أصبحت زوجة للرسول ﷺ فيما بعد.

ولكن الجوع استولى على المسلمين فاضطروا بسببه إلى تناول ما كره أكله من الأنعام، وكادوا أن يهلكوا، فأمر الرسول ﷺ أن تؤخذ شاتان من غنم اليهود إضطراراً،وأطلق البقية ـ من الأغنام ـ لتدخل الحصن بأمان. وقد سمح النبي ﷺ بذلك للاضطرار الذي يباح معه المحذور بقدره، فدعا ربّه: «اللّهمّ إنّك قدعرفت حالهم، وأن ليست بهم قوّة،وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إيّاه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء وأكثرها طعاماً».[1]

ثمّ بعث رجالاً معروفين من صحابته لفتح الحصون، إلاّ أنّ شيئاً جديداً لم يتم، فقال ﷺ:

«لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسولَه ويحبُه الله ورسولُه،يفتح الله على يديه، ليس بفرار ـ أو كرّار غير فرّار ـ»[2] فبات كلّ واحد يتمنى أن يكون هو صاحب هذا النوط الخالد العظيم. وعندما بلغ الإمام علياً ؑ مقالة النبي ﷺ و هو في خيمته قال: «اللّهم لا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت». وفي الصباح طلب النبي ﷺ علياً فقيل أنّ به رمد، فأُتي به إلى النبي ﷺ فمرر يده الشريفة على عينيه ودعا له بخير فعوفي من ساعته،فدفع إليه اللواء ودعا له بالنصر، وأمره أن يبعث إلى اليهود قبل قتالهم، من يدعو رؤساء الحصون إلى الإسلام، فإن أبوا ورفضوا، أمرهم بتسليم أسلحتهم إلى الحكومة الإسلامية ليعيشوا تحت ظلّها بحريّة وأمان شريطة أن يدفعوا الجزية.[3] وإذا رفضوا قاتلهم. ثمّ قال ﷺ للإمام

---

١. السيرة النبوية:٢/ ٣٢٢.

٢. مجمع البيان :٩/ ١٢٠؛ السيرة الحلبية:٢/ ٣٧؛ السيرة النبوية:٢/ ٣٣٤؛ إمتاع الأسماع:١/ ٣١٤.

٣. صحيح مسلم:٥/ ١٩٥؛ صحيح البخاري: ٥/ ١٨.

علي عليه السلام : «لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم».[١]

ومن ثمّ توجه الإمام علي عليه السلام إلى القلعتين المحصنتين سلالم والوطيح، والتي عجز المسلمون وقوادّهم عن فتحها،فخرج إليه الحارث، أخو مرحب، فقاتله الإمام عليه السلام و سقط على الأرض جثة هامدة بضربة من ضربات الإمام عليه السلام المشهورة، ممّا أغضب مرحب أخيه فخرج غارقاً في الدروع والسلاح ليقاتل علياً عليه السلام الذي تمكن من شقّ رأسه نصفين، فكانت ضربة قوية بحيث أفزعت من كان مع مرحب من أبطال اليهود، ففروا لاجئين إلى الحصن. وبقي آخرون منهم قاتلوا علياً منازلة، فقضى عليهم الإمام عليه السلام ثمّ لحق بالفارين إلى الحصن، فضربه أحدهم فطاح ترسه من يده، إلاّ أنّ الإمام عليه السلام تناول باباً كان على الحصن فانتزعه من مكانه واستخدمه ترساً يحمى نفسه حتى فرغ من القتال. وبعد ذلك حاول ثمانية من أبطال المسلمين، كان منهم أبو رافع مولى النبي صلى الله عليه وآله أن يقلبوا ذلك الباب أويحرّكوه فلم يقدروا.[٢]

ونقل الشيخ المفيد في إرشاده بسند خاص عن أمير المؤمنين علي عليه السلام بخصوص الباب، قوله: «لما عالجتُ باب خيبر جعلته مجناً لي فقاتلتهم به،فلمّا أخزاهم الله وضعتُ الباب على حصنهم طريقاً ثمّ رميتُ به في خندقهم».[٣]

وأمّا المؤرخون فقد نقلوا قضايا عجيبة حول قلع باب خيبر و عن بطولات الإمام عليه السلام في فتح الحصن، إلاّ أنّ جميعها لا تتمشى و لا تتيسر مع القدرة البشرية المتعارفة، ولا يمكن أن تصدر منها، حتى أنّ الإمام عليه السلام نفسه يرفع كلّ شك في

---

١. السيرة الحلبية: ٢/ ٣٧.

٢. تاريخ الطبري: ٢/ ٩٤؛السيرة النبوية: ٢/ ٣٤٩؛ تاريخ الخميس: ٢/ ٤٧.

٣. إرشاد المفيد: ٦٢.

هذا بقـوله: «مـا قلعتها بقـوّة بشريّة، ولكـن قلعتها بقـوّة إلهية، ونفسي بلقـاء ربّها مطمئنة رضية».[١]

وهكذا انتهـت الحرب بانتصـار المسلمين، الذي كان وراءه ثـلاثة عـوامل أساسية:

١. التخطيط العسكري والحربي الدقيق.

٢. حصولهم على معلومات وافرة عن العدو وأسراره.

٣. بطولة الإمام علي عليه السلام.

فقد تمكّن النبي صلى الله عليه وآله من تحييد قبيلـة غطفان ومنعها من إمـداد المساعدات لليهود، كما تعرف على أحوالهم وأوضاعهم في حصـون خيبر، سواء العسكرية منها أو النفسية للمقـاتلين والأفراد. بالإضـافة إلى بطولـة الإمام علي عليه السلام الذي قال: «فلم يبرز إليّ أحد منهم إلاّ قتلته، ولا يثبت لي فارس إلاّ طحنته،ثمّ شددت عليهم شدّة الليث على فريسته حتى أدخلتهم جـوف مدينتهم مسدداً عليهم، فاقتلعت باب حصنهم بيدي حتى دخلت عليهم مدينتهم وحدي أقتل من يظهر فيها من رجالها وأسبي من أجد من نسائهـا، حتى افتتحتها وحدي ولم يكن لي فيها معاون إلاّ الله وحده».[٢]

ثمّ أمر الرسول صلى الله عليه وآله بأن تجمع الغنائم كلّها في مكان واحد، وأن ينادى:

أدّوا الخيط والمخيط، فـإن الغلول عار وشنار ونار يـوم القيامة.[٣] فالإسلام يشدّد على أهميـة الأمانة، حتى اعتبر ردّ الأمـانة مهما صغرت مـن علائم الإيمان،

---

١. بحار الأنوار: ٢١/ ٤٠.

٢. الخصال: ٣٦٩ باب السبعة.

٣. وسائل الشيعة: باب جهاد النفس؛ المغازي: ٢/ ٦٨١.

والخيانة من علائم النفاق.

وفي لحظات الفرح بالانتصار على اليهود، رجعت مجموعة من مسلمي الحبشة المهاجرين إليها بقيادة جعفر بن أبي طالب، فاستقبله النبي ﷺ وقبّل ما بين عينيه وقال: ما أدري بأيّهما أُسرّ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر. ثمّ إنّه ﷺ علّمه الصلاة المعروفة بصلاة جعفر الطيّار.[١]

وبالنسبة لقتلى الجانبين، فقد بلغ عدد شهداء المسلمين ٢٠ فرداً، بينما سجّل التاريخ أسماء ٩٣ رجلاً هم قتلى اليهود.[٢]

وبعد ذلك تمّ الاتّفاق بين الطرفين على:

١. قبول النبي ﷺ لطلب اليهود بأن يسكّنهم في خيبر كما كان الوضع.

٢. ترك أراضيهم وبساتينهم لهم.

٣. حصول المسلمين على نصف محاصيلها سنوياً.

فالنبي ﷺ لم يجبرهم على شيء بل تركهم أحراراً في ممارسة شعائرهم والبقاء على ما كانوا يعتقدونه من أُصول دينهم، إذ أنّه لم يحارب أهل خيبر إلاّ عندما تحولت إلى بؤرة خطرة للمؤامرات والكيد للإسلام والمسلمين،فقد أمدّوا الكفار والمشركين بكلّ ما يحتاجون للقضاء على الحكومة الإسلامية الناشئة، ممّا اضطر معه النبي ﷺ إلى إعلان الحرب عليهم وقتالهم وتجريدهم من السلاح ليعيشوا تحت ظل الدولة الإسلامية، ويدفعوا الجزية لقاء دفاع الحكومة الإسلامية عنهم وحمايتهم من الأعداء، وهو ما يعني حماية أنفسهم وأنّ أموالهم مؤمنة لهم من قبل

---

١. فروع الكافي: ١/ ١٢٩؛ الخصال: ٢/ ٨٢؛ إمتاع الاسماع: ١/ ٣٢٥.

٢. بحار الأنوار: ٢١/ ٣٢.

المسلمين.

وعند جمع الغنائم حصل المسلمون على قطعة من التوراة طلب اليهود إعادتها، فأمر النبي ﷺ بإعادتها إليهم، ممّا يكشف عن احترام النبي ﷺ للشرائع والأديان الأُخرى.

وقد توجه النبي ﷺ بعد خيبر إلى وادي القرى التي شكلت مركزاً آخر لليهود،ففتحها وعقد صلحاً مع أهلها على غرار معاهدة خيبر. وبذا فإنّ الحجاز طهُرت من فتنة اليهود،وجرّدوا من أسلحتهم،ووضعوا تحت حماية المسلمين ومراقبتهم.[1]

إلاّ أنّ بعضهم خطّط بعد فترة من الهدوء والاستقرار، للتخلص من النبي ﷺ فقدّمت زينب بنتُ الحارث شاة مشوية سمّمت كتفها التي يحبها النبي ﷺ فأثّربه السم بعد ذلك وتوفي ﷺ من أثره. ولم ينتقم منها النبي ﷺ بل عفا عنها، فالنبي ﷺ لم يكن كبعض القادة والزعماء الذين يصبغون الأرض بدماء من ظنّ أنّهم قصدوا قتله،أو يملأون السجون بهم، أو يخضعونهم لأشد أنواع العذاب والتعذيب الجسدي والنفسي.

٣. قصة فدك

وتبعد فدك عن المدينة بما يقرب من ١٤٠ كم، و هي منطقة زراعية خصبة، اعتبرت نقطة ارتكاز هامة لليهود بعد خيبر. وقد تميّزت العلاقات بين رئيسها يوشع بن نون و القيادة الإسلامية بالسلام والأمان، حيث تعهد بأن يسلم نصف

---

١. الكامل في التاريخ:٢/ ١٥٠.

محاصيلها سنوياً إلى الرسول ﷺ ليعيشوا تحت راية الحكومة الإسلامية، على ألا يقوموا بأي أمر يعكر صفو السلام و الأمن بين الطرفين، وتتعهد الحكومة الإسلامية في مقابل ذلك بتوفير الأمن في المنطقة كلها.[1]

ومن الجدير بالذكر أنّ الأراضي التي يسيطر عليها المسلمون بالحرب والقتال، تعود ملكيتها إلى عامّة المسلمين بإدارة القائد الأعلى للأُمّة، أمّا الأراضي التي لا يستخدمون القوّة في احتلالها، فتصبح ملكاً للرسول ﷺ والإمام من بعده يتصرف فيها كما يشاء، فيهبها أو يؤجرها،وعلى هذا الأساس وهب رسول الله ﷺ فدكاً لابنته الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، حيث ابتغى من وراء ذلك تحقيق أمرين:

١. أن يستفيد منها الإمام في أداء واجباته ومتطلبات الناس عندما يدير الحكم من بعده، إذ أنّه سيكون في حاجة إلى ميزانية كبيرة.

٢. وأن تعيش أُسرة النبي ﷺ بعده بصورة تليق بمقامه ﷺ وشرفه ومكانته السامية.

وفي ذلك يذهب معظم العلماء والمفسرين والمحدّثين الشيعة وبعض علماء السنّة، أنّه عند نزول قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [2] أوصى النبي ﷺ فدكاً إلى ابنته الزهراء عليها السلام . ولذلك فقد أعاد المأمون العباسي بعد فترة من هذا الوقت، فدكاً إلى أبناء الزهراء عليها السلام بعد توضيح شأن نزول هذه الآية له، كما أنّ الإمام علياً عليه السلام قد صرّح بملكيته لفدك في إحدى رسائله إلى واليه على البصرة: «عثمان بن حنيف»:«بلى كانت في أيدينا فَدَك من كلّ ما أظلته السماء فشحّت عليها نفوسُ قوم، و سخت عنها نفوسُ قوم آخرين ونعم الحكم الله».[3]

---

١. السيرة النبوية:٢/ ٣٥٣؛ إمتاع الاسماع:١/ ٣٣١؛ فتوح البلدان:٤٢.

٢. الإسراء:٢٦.

٣. نهج البلاغة: الكتاب ٤٥.

فدك بعد النبي ﷺ

عندما حُرمت ابنة رسول الله ﷺ من ملكها الخاص بعد وفاة أبيها ﷺ عمدت إلى إثبات حقّها و استرداد ملكها من جهاز الدولة، عن طريق القانون،فأحضرت الدلائل بالرغم من أنّه لا يُطلب من فرد له يد على شيء ـ أي يكون تحت تصرفه ـ أن يقيم دليلاً على ملكيته ذلك الشيء. وكان شاهدها: الإمام علي عليه السلام و أُمّ أيمن التي شهد لها النبي ﷺ بأنّها من نساء الجنة [١]، إضافة إلى رباح الذي كان النبي ﷺ قد أعتقه حسب رواية البلاذري[٢]، إلاّ أنّ كلّ ذلك لم ينفع في إرجاع الأرض إلى صاحبتها.

وفي العصر الأموي وزع معاوية بن ابي سفيان فدكاً بين ثلاثة: مروان بن الحكم ، عمرو بن عثمان، و يزيد. وعندما حكم مروان استولى عليها تماماً ووهبها لابنه عبد العزيز الذي سلّمها لولده عمر، الذي أزال أوّل بدعة وهي إعادة فدك إلى بني فاطمة عليها السلام فقد كان الخليفة المعتدل، ولكن حكّام بني أُميّة تداولوها ثانية حتى نهاية دولتهم.

أمّا في العصر العباسي فقد ردّها السفاح أبو العباس إلى عبد الله بن الحسن ابن الحسن، ثمّ قبضها أبو جعفر المنصور من بني الحسن، ثمّ ردّها المهدي ابنه إليهم، حتى جاء المأمون فردّها على أصحابها الشرعيين بصورة رسمية.

وقد استغل الأمويون والعباسيون فدكاً استغلالاً سياسياً بجانب الاستفادة الاقتصادية و اضطرب أمرها بين السلب والردّ.

---

١. الإصابة: ٤/ ٤٣٢.

٢. فتوح البلدان: ٤٤.

٤. عمرة القضاء[١]

بعد مضي عام و احـد على توقيع معاهدة صلـح الحديبية، وعلى ضوء المادة التي تسمـح للمسلمين بأداء العمرة في العـام التالي، فقـد قرروا التوجـه إلى مكّة، وخاصّة أنّهم كانوا قـد تركوها سبعة أعوام بعدوا فيها عـن وطنهم. فاستعد ألفان للانضمام إلى النبي ﷺ في أداء العمرة، كان من ضمنهم شخصيـات بارزة ملازمة له ﷺ طوال فترة وجوده في المدينة. وكان ذلك يوم الإثنين ٦ من شهر ذي القعدة. كما أنّ النبي ﷺ تحسباً لأي طارئ أعدّ مائتين من الأفراد مسلّحين وضعهم خارج مكة على مقربة من الحرم للتدخل في أية مشكلة تصدر حيالهم.

وفي مكة خرج الأهـالي منها إلى رؤوس الجبال وقالـوا: لا ننظر إلى محمد ولا إلى أصحابه، فكانوا يراقبون المشهد من بعيد.

وقد بهرت أصـوات المسلمين مكبّرين كـلَّ سكان مكـة وسحرت قلـوبهم وجلبت عطفهـم على المسلمين،مثلما أرعب اتّحادهـم ونظامهـم والتفافهـم حول النبي ﷺ أفئدة المشركين.

وطاف الرسول ﷺ بالبيت على راحلته،وأمر عبد الله بن رواحة أن يردّد هذا الـدعاء بلحـن ونغم خـاص: «لاإلـه إلاّ الله وحده وحـده، صدق وعـده، ونصر عبده،وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده» فردّدها المسلمون وراءه. ثمّ أمر ﷺ بلالاً أن يـؤذن على ظهر الكعبـة لصلاة الظهـر، فانـزعجوا بسبـب الأذان، وأحرجتهـم مضامينه التي كانت ضدّ ما يحملونه من معتقدات باطلة موروثة.

---

١. سميت عمرة القضاء لأنّها كانت بدلاً عن العمرة التـي منع النبي والمسلمون عنها في العام السابق لها.

وبعد أداء المناسك، ذهب المهاجرون إلى منازلهم التي تركوها منذ سبعة أعوام فجدّدوا اللقاء بأقربائهم.

إلاّ أنّ تأثير أوضاع المسلمين في نفوس أهل مكة، وتخوّفهم من إحداث إنقلاب روحيّ فيهم، إذ أنّ هذه الرحلة الدينية، اعتبرت دعائية وإعلامية، أثّرت في نفوس عدد من أهل مكّة فدخلوا الإسلام، ممّا دعا إلى أن يطلب زعماء قريش من النبي ﷺ مغادرة مكة بعد انقضاء المدّة المحددة و المقررة بينهم: «إنّه قد انقضى أجلك فاخرج عنّا».

وممن تأثر بالوضع، ميمونة أُخت زوجة العباس ـ أُمّ الفضل ـ لما شهدت من مشاعر المسلمين، فطلبت الزواج من النبي ﷺ الذي وافقها، فقوى بذلك علاقاته مع قريش، إلاّ أنّهم لم يسمحوا للنبي ﷺ بالاحتفال بمناسبة الزواج في مكّة، فطلب ﷺ من أبي رافع أن يُحضِر زوجته بعد ذلك.

وبذا فقد تحقّقت رؤيا النبي ﷺ قبل عام من هذا، في أنّه دخل البيت وحلق رأسه، ونزلت آية الفتح التي تناولت تحقيق هذا الوعد:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَـهُ الرُؤيا بِالحَقِّ لَتدخُلُـنَّ المَسْجِدَ الحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنينَ مُحَلِّقينَ رءُوسكُمْ وَمُقَصِّرينَ لا تَخافُـون فَعَلمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ .[١]

١. الفتح:٢٧.

أحداث السنة الثامنة
من الهجرة

١. معركة مؤتة

بعد وقوع الأحداث السابقة، واستقرار الأمن في الحجاز بين المسلمين وقريش والأطراف المعادية الأُخرى، وضعف نفوذ اليهود وسطوتهم، فكّر النبي الأكرم ﷺ في أن يركز في دعوته على سكان مناطق الحدود عند الشام، فوجه لهذا الغرض «حارث بن عمير الأزدي» يحمل كتاباً إلى أمير الغساسنة: الحارث بن أبي شمر الغساني، الذي حكم بصرى، فقبض على سفير النبي ﷺ في مؤتة وقتله مخالفاً بذلك كلّ الأعراف الدولية التي تقضي باحترام السفراء وحصانتهم، ممّا أغضب الرسول ﷺ والمسلمين،فقرر الاقتصاص من قاتل سفيره.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ النبي ﷺ كان قد بعث في شهر ربيع الأوّل من هذه السنة ١٥ رجلاً إلى منطقة ذات أطلاح من أرض الشام خلف وادي القرى، لدعوة الناس إلى الإسلام، إلاّ أنّ الأهالي قتلوهم عن آخرهم مؤثرين عز الشهادة على ذل الأسر، إلاّ جريحاً منهم تمكن من الوصول إلى النبي ﷺ ليخبره بالحادث.

وقد أثر هذان الحادثان على الوضع السياسي بين الجانبين، فأمر النبيّ ﷺ بالخروج إلى الجهاد في شهر جمادى، ووجه جيشاً قوامه ٣ آلاف مقاتل لتأديب هؤلاء المخربين والغدرة، وعين القائد عليهم «جعفر بن أبي طالب» فإن قتل فزيد ابن حارثة، فإن أصيب، فعبد الله بن رواحة، فإن اصيب فليرتضي المسلمون بينهم رجلاً عليهم.

وقد خرج النبيّ ﷺ بنفسه مع جماعة من أصحابه مشيّعاً لهم وودّعهم

قائلاً: «دفع الله عنكم وردكم سالمين غانمين صالحين».

ومن المؤكد أنّ القائد الأوّل لهذا الجيش كان جعفراً ثمّ زيداً فعبد الله، فلا مجال لتغيير الوضع الذي ذهب إليه بعض الرواة والمحدّثين، الذين اختلقوا ترتيباً آخر، بوضع زيد كقائد ثمّ جعفر كمعاون له ثمّ ابن رواحة، إذ أنّ وضع هذا الترتيب بهذا الشكل أُقرّ لدوافع سياسية وأغراض أُخرى لا مجال لذكرها هنا،وتبعهم في ذلك كتاب السيرة دون تمحيص وتحقيق.[1]

وفي الشام أعدّ الحاكم الحارث ١٠٠ ألف فارس لإيقاف تقدّم المسلمين، كما أعدّ القيصر ١٠٠ ألف آخرين في البلقاء كقوّة احتياطيّة تتدخل عند اللزوم.[2]

ومن الواضح أنّه لم يكن هناك أيّ تكافؤ بين الجيشين الإسلامي والروماني، سواء في نوعية المعدات الحربية والأجهزة القتالية أو وسائل النقل أو عدد الجنود، والأرض وساحة المعركة الغريبة عن المسلمين، وقيامهم بدور الهجوم لا الدفاع الذي اتّخذه الروم ونفذوه في أرضهم وبلادهم.

وقد تواجه الجيشان في منطقة مشارف، ولكن المسلمين تراجعوا نحو مؤتة، فبدأت المبارزات الفردية أوّلاً، فقُتل جعفر بعد مبارزة شجاعة، ثمّ قُتل زيد بن حارثة، وأيضاً ابن رواحة، فاختار الجنود خالد بن الوليد قائداً، فعمد إلى استخدام تكتيك عسكري لم يعرف من قبل، إذ أمر بالعسكر أن يحدث بعض التغييرات في صفوفه بالليل دون صوت، ويذهب عدد منهم إلى مكان بعيد ثمّ يلتحقوا بالمسلمين عند الصباح مكبرين، فيظن العدو بوصول إمدادات عسكرية بشرية جديدة إلى جانب المسلمين. ولذا تمكن المسلمون من مواجهتهم وقتالهم،

١. السيرة النبوية:٢/ ٣٨٠.

٢. المغازي:٢/ ٧٦٠؛السيرة النبوية: ٢/ ٣٧٥.

وقتل أعداد كبيرة منهم، فهدأت الأحوال، فرجع الجيش الإسلامي مستفيداً من هذا التكتيك ونَجَوا بأنفسهم من خطر فناء ساحق وأكيد.[١]

إلاّ أنّ المسلمين في المدينة رفضوا منطق الانسحاب من المعركة وفضلوا الاستشهاد في ساحة المعارك على الانسحاب، فهم كانوا يعدون الموت والشهادة في سبيل الله أفضل من الانسحاب.

وقد تأثر النبي ﷺ لشهادة جعفر وبكى بشدة، فكان كلّما تذكر جعفراً وزيداً بكى.[٢]

٢. غزوة ذات السلاسل

إنّ الاطّلاع المبكر على أسرار العدو العسكرية، ومعرفة حجم طاقاته ومبلغ استعداداته واكتشاف خططه، يعد من العوامل الجوهرية المؤثرة في الانتصار عليه. والنبي ﷺ هو أوّل من ابتكر في تاريخ الإسلام جهازاً خاصاً بهذا العمل في صورة منظمة، وتبعه الخلفاء من بعده، حين استعانوا بجواسيس وعيون للعمل في المجالات العسكرية والإدارية.

واستطاع الرسول ﷺ في غزوة ذات السلاسل أن يطفئ نار فتنة باستخدام معلومات دقيقة علمها عن العدو، قبل أن يخسر الكثير بغير ذلك. فقد علم من عناصر المخابرات الخاصة به ﷺ أنّ أعداداً كبيرة متحالفة تجمعوا في منطقة وادي اليابس هدفوا إلى التوجّه نحو المدينة للقضاء على قوّة الإسلام والمسلمين، وقتل النبي ﷺ والإمام علي عليه السلام خاصة. فأمر الرسول بنداء «الصلاة جامعة» أي دعوة

---

١. السيرة النبوية: ٢/ ٣٨١.

٢. بحار الأنوار: ٢١/ ٥٤؛ المغازي: ٢/ ٧٦٦.

الناس إلى الاجتماع به ﷺ فقال ﷺ: «يا أيّها الناس، إنّ هذا هو عدو الله وعدوكم قد عمل على أن يبيّتكم فمن لهم؟».

فخرجت جماعة بقيادة أبي بكر ساروا مسافة حتى واجهوا قبيلة بني سليم الذين قاوموا القوّة الإسلامية، فقرر أبو بكر الانسحاب والرجوع من حيث أتى. إلاّ أنّ النبي ﷺ لم يقبل بهذا الوضع، فانزعج لعودة الجيش بهذه الصورة المهينة، فأمر عمر بن الخطاب بتولّي القيادة، ولكنّه لم يحارب أيضاً لقوة العدو فانسحب أيضاً إلى المدينة. وطلب عمرو بن العاص من النبي ﷺ أن يبعثه إلى هؤلاء الأعداء على أساس أنّه من دهاة العرب، إلاّ أنّ بني سليم قاتلوه فهزموه وقتلوا عدداً من جماعته، فلم ييأس النبي ﷺ ونظم جماعة جديدة واختار الإمام علياً عليه السلام قائدها، فاستعد الإمام عليه السلام وتعصب بعصابة كان يشدها على جبينه في اللحظات الصعبة، ولبس بردين يمانيين، وحمل رمحاً هندياً، ثمّ توجه نحو الهدف سالكاً طريقاً غير معروفة ولا مطروقة حتى يعمّي بذلك على العدو، فتمكن من الانتصار عليهم وذلك للأسباب التالية:

١. لم يشعر العدو بتحركاته، وذلك لتغييره مسيره، واستخدامه أُسلوب الكتمان في ذلك، إذ سار ليلاً وكمن نهاراً واستراح خلاله.

٢. كما أنّه فاجأ العدو حين صعد بجنوده إلى قمة الجبال ثمّ انحدر بهم بسرعة فائقة إلى الوادي مركز إقامة بني سليم، فأحاطوا بهم وهم نيام، وحاصروهم وأسروا منهم، وفرّ آخرون.

٣. ثمّ أنّ شجاعة الإمام علي عليه السلام وبسالته النادرة أرعبت العدو، وأفقدته القدرة على المواجهة والمقاومة، حيث فرّوا من أمامه تاركين الغنائم وراءهم.

وبذا فإنّ النبي ﷺ استقبله بحفاوة وقال له عندما نزل من فرسه: «إركب فإنّ الله ورسوله راضيان عنك».

وكانت تضحية الإمام عليه السلام وشجاعته من الأهمية بحيث نزلت فيها سورة العاديات كاملة: ﴿وَالعادِياتِ ضَبْحاً* فَالمُورياتِ قَدحاً* فَالمُغيراتِ صُبْحاً* فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً* فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾.[١]

وهناك عدد من المؤرّخين كالطبري، نقلوا هذه الواقعة بنحو آخر مختلف عمّا ذكرناه، فلا يبعد أن تكون ذات السلاسل اسماً لغزوتين، وقد نقل كلٌّ من الفريقين ـ السنّة والشيعة ـ واحدة منها وأعرض عن الأُخرى لأسباب خاصّة.[٢]

٣. فتح مكّة

أخلّت قريش باتفاقية الحديبية ونقضتها، حينما زودت قبيلة بني بكر بالأسلحة، وهي من كنانة المتحالفة معها، وحرضتهم على أن يبيتوا لخزاعة المتحالفين مع المسلمين فيغيروا عليهم ليلاً ، يقتلون فريقاً ويأسرون آخرين. و أُبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما حدث لخزاعة على أيدي بني بكر، فوعدهم النصرة. ولكن قريشاً ندمت على فعلتها من تأليب بني بكر على خزاعة، واشتراكهم معها في العدوان، فأرسلوا زعيمهم أبا سفيان إلى المدينة لتطييب خاطر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتسكين غضبه وتأكيد احترام قريش لمعاهدة الصلح، إلاّ أنّه عندما وصل إلى بيت ابنته أُمّ حبيبة زوجة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يجد التقدير والاحترام المطلوب لديها على أساس أنّه مشرك نجس، فتوجه إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكلّمه حول إمكانية تجديد العهد، فلم يرد عليه وهو ما يعني عدم اعتنائه به، فسار إلى بعض أصحابه يطلب منهم أن يشفعوا له عند الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و إقناعه بتجديد ميثاق الصلح، ولكن دون جدوى. فذهب إلى

---

١. العاديات: ١ ـ ٥.

٢. تاريخ الطبري: ٢/ ٣١٥؛ السيرة الحلبية: ٣/ ١٩٠؛ المغازي: ٢/ ٧٦٩.

منزل الإمام علي عليه السلام والسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام فرد عليه الإمام عليه السلام: «والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وآله على أمر ما نستطيع أن نكلّمه». فالتفت إلى السيدة الزهراء عليها السلام وهو يطلب شفاعتها أو شفاعة الحسنين لدى النبي صلى الله عليه وآله: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري و بُنَيّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ فقالت عليها السلام وهي تعلم بنواياه الشريرة:« ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وإنّهما صبيان وليس مثلهما يجير».[1] فطلب النصيحة من الإمام عليه السلام فقال له: «ما أجد لك شيئاً أمثل من أن تقوم فتجير بين الناس ـ أي تعطي الأمان للمسلمين ـ ثمّ إلحق بأرضك». فأدّى ما طلبه منه، ورجع إلى مكّة وأخبر سادة قريش بما صنع، فاجتمعوا للتشاور فيما يطفئ غضب المسلمين ويثني الرسول صلى الله عليه وآله عن عزمه.[2]

أمّا النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله فقد أعلن التعبئة العامة بهدف فتح مكة، وتحطيم أقوى قلعة من قلاع الوثنية، وإزالة حكومة قريش الظالمة، التي كانت أقوى الموانع والعقبات في طريق تقدم الدعوة الإسلامية وانتشار الإسلام.

وطلب من الله سبحانه و تعالى في دعائه أن يعمي عيون قريش وجواسيسهم كيلا يعلموا بحركة المسلمين وهدفهم: «اللّهم خُذ على قريش أبصارهم فلا يروني إلاّ بغتةً ولا يسمعون بي إلاّ فجأة».[3]

واجتمع في مطلع شهر رمضان الكثيرون، فقد شاركت قبائل وطوائف مختلفة في هذا الفتح العظيم، اشتهر منهم:

ـ المهاجرون: ٧٠٠+٣ ألوية إضافة إلى ٣٠٠ من الخيل.

---

١. إمتاع الأسماع: ١/ ٣٥٩.

٢. المغازي: ٢/ ٧٨٠؛ السيرة النبوية: ٢/ ٣٨٩؛ بحار الأنوار: ٢١/ ١٠٢.

٣. المغازي: ٢/ ٧٩٦.

ـ الأنصار: ٤٠٠٠ +ألوية كثيرة إضافة إلى ٧٠٠ من الخيل.

ـ قبيلة مزينة: ألف مع مائة فرس، ولواءان.

ـ قبيلة جهينة: ٨٠٠ مع خمسين فرساً و ٤ ألوية.

ـ قبيلة بني كعب: ٥٠٠ مع ثلاثة ألوية.

هذا بالإضافة إلى اشتراك عدد آخر من قبائل غفار وأشجع وبني سليم.[١]

ويذكر ابن هشام، أنّ جميع من شهد فتح مكّة من المسلمين بلغوا عشرة آلاف، من بني سليم ٧٠٠، ويقول بعضهم ألف، ومن بني غفار ٤٠٠، ومن أسلم ٤٠٠، ومن مزينة ألف و ٣٠٠ نفر، وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائف العرب من تميم وقيس وأسد.[٢]

إلاّ أنّ أخبار هذه الحملة الكبيرة وصلت إلى قريش، فقد أخبر جبرائيل عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله أنّ أحد المسلمين أرسل كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بتوجههم إلى مكة، وأنّ امرأة تدعى «سارة» وهي مغنية، تريد توصيل الكتاب لهم لقاء حصولها على مال. وقد ساعد النبي صلى الله عليه وآله و المسلمون هذه المغنية من قبل، عندما تركت عملها في مكة واتجهت إلى المدينة، ورغم ذلك فإنّها خانتهم بعملها جاسوسة تعمل لصالح قريش. ممّا جعل النبي صلى الله عليه وآله يطلب من الإمام علي عليه السلام والمقداد و الزبير أن يلحقوا بها ويدركوها ويصادروا منها الكتاب. وتمكّنوا من اللحاق بها عند روضة الخاخ ـ الخليقة ـ إلاّ أنّها أنكرت وجود كتاب لديها في رحلها، فهددها الإمام عليه السلام: لتخرجنّ لنا هذا الكتاب أو لنكشفنّك. فاستخرجت الكتاب.[٣]

---

١. المغازي: ٢/ ٨٠٠؛ إمتاع الإسماع: ١/ ٣٦٤.

٢. السيرة النبوية: ٤/ ٦٣.

٣. بيّن القرآن الكريم ذلك في عدّة آيات من سورة الممتحنة.

وهكذا أعد النبي ﷺ للحركة الكبرى، دون أن يعلم أحد وجهته على وجه التحديد، وكان ذلك في يوم ١٠ رمضان. وفي الطريق أفطر على الماء وأمر جنده بالاقتداء به: «إنّكم مصبحوا عدوكم،والفطر أقوى لكم». إلاّ أنّ البعض منهم أمسك عن الإفطار ظناً منهم أنّ الجهاد أفضل في حالة الصوم، فغضب النبي ﷺ لذلك و قال عنهم: «أُولئك العصاة».[١]

وفي هذا الوقت، خرج العباس بن عبد المطلب من مكة متوجهاً إلى المدينة ليلتحق بالرسول ﷺ خلال الطريق، فهو سيؤدي دوراً بارزاً هاماً في عملية الفتح العظيم. كما التحق به عدوّان له أحجما عن الإيمان برسول الله والاستجابة لدعوته و هما: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أُمية بن المغيرة، فقد كانا من أشدّ المعارضين للرسول ﷺ والمؤذين له، بالرغم من أنّ أبا سفيان هذا كان ابن عمّ الرسول ﷺ وأخاه من الرضاعة، وعبد الله هو أخو أُمّ سلمة ابنة عاتكة عمّة الرسول ﷺ. وحاولا مقابلة النبي ﷺ إلاّ أنّه لم يأذن لهما، ولم تنفع الوسائط في ذلك، إلاّ ما ذكره لهما الإمام علي عليه السلام ، بأن يقولا للنبي ﷺ: ﴿ **قالُوا تاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنّا لخاطِئِين** ﴾[٢] فسوف يعفو عنهما كما فعل يوسف عليه السلام مع إخوته.وقد حدث ما اقترحه الإمام عليه السلام فقبل إسلامهما.

وحينما وصل الجيش الإسلامي إلى مشارف مكّة، عمد النبي ﷺ إلى إرعاب أهلها وتخويفهم بإشعال النيران فوق الجبال والتلال، وزيادة في التخويف وإظهار القوة، أمر بأن يشعل كلّ فرد منهم ناراً في شريط طويل على الأرض.

وهنا اتّجه «العباس بن عبد المطلب» ليؤدّي دوره العملي لصالح الطرفين،

---

١. وسائل الشيعة: ٧/ ١٢٤؛ السيرة الحلبية:٣/ ٩٠؛ المغازي:٢/ ٨٠٢.

٢. يوسف:٩١.

فيقنع قريشاً بالتسليم وعدم المقاومة، إذ أخبرهم بقوّة المسلمين وعددهم ومحاصرتهم لمكّة المكرمة، واصطحب معه أبا سفيان حتى يطلب له الأمان و لهم كذلك من الرسول ﷺ، فأجاره عند الوصول إلى معسكر المسلمين، خاصة عندما حاول «عمر بن الخطاب» أن يقضي عليه ـ أي يقتل أبا سفيان ـ كما أنّه حاول إعادة قتله أمام النبي ﷺ على أساس أنّه عدو لله فلابدّ أن يقتل.

وتحدث النبي ﷺ في خيمته مع أبي سفيان قائلاً: «ألم يأن لك أن تعلم أنّه لاإله إلاّالله؟» فقال أبو سفيان: بأبي أنت و أُمّي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عني شيئاً بعد. فقال الرسول ﷺ: «ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول الله؟ »فقال: أما والله فإنّ في النفس منها حتى الآن شيئاً. فغضب العباس من عناده و قال: أسلم واشهد ألاّ إله إلاّالله وأنّ محمّداً رسول الله قبل أن يُضرب عنقك. فشهد شهادة الحقّ وأسلم ودخل في عداد المسلمين. فارتفع بذلك أكبر سد، وانزاح أكبر مانع من طريق الدعوة الإسلامية. ومع ذلك فقد أمر النبي ﷺ العباس بحبسه لأنّه لم يأمن جانبه بعد، قبل أن يتم فتح مكّة: «يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل ـ أي أنفه ــ حتى تمر به جنود الله فيراها». فطلب العباس من النبي ﷺ: إنّ أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. فاستجاب له النبي ﷺ وقال:

«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن،ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن طرح السلاح فهو آمن». وذلك بالرغم من أخلاق أبي سفيان المنحدرة وأعماله السيئة تجاه النبي ﷺ والمسلمين، طيلة السنوات الماضية».

وكان النبي ﷺ قد عزم على أن يفتح مكة دون إراقة دماء وإزهاق أرواح

وتسليم العدو دون شروط. وقد تم ذلك نتيجة التخطيط السليم،وتحييد موقف أبي سفيان العدائي وهـوقائد قريش،ولما كانـت القطع العسكرية الإسـلامية تمر من أمام أبي سفيـان، كان العبـاس يوضـح له اسمهـا وخصوصيـاتها، فمرت كتيبـة النبي ﷺ فقال للعبـاس: ما لأحـد بهؤلاء قبل ولا طـاقة يـا أبا الفضـل، والله لقد أصبح ملـك ابن أخيـك الغداة عظيماً. فـرد عليه العبـاس موبخـاً: ويحك يا أبـا سفيان، ليس بملك، إنّها النبوة.

وحينئذٍ أطلق النبي ﷺ أبا سفيان ليرجع إلى مكّـة فيخبرهم بما رأى من قوّة الجيش الإسلامي، ويحذرهـم من مغبة المواجهة والمقاومة، والتسليم لـلأمر الواقع بإلقاء السلاح والاستسلام دون قيد أو شرط. فصاح في أهل مكّة: يا معشر قريش، هذا محمّد قد جاءكم فيما لا قبل لكـم به، أو قال: هذا محمّد في عشرة آلاف، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمـن، و من ألقى السلاح فهو آمن، ومـن دخل المسجد فهو آمن،ومن أغلق بابه فهو آمن.

وأضاف النبي ﷺ إلى ذلك: و من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن. وهو موقع خامس عينه الرسول ﷺ للتأمين من القتل.

وأدّى كلّ ذلك إلى إضعاف نفوس أهل مكّة، حتى القياديين الأعداء، ركنوا إلى المطالبة بالتسليم دون مقاومة.

وبالرغم من أنّ النبي ﷺ قد أمر جنوده بعدم بدء القتال، فلا يقاتلوا إلاّ من قاتلهم، إلاّ أنّه أمر بقتل عشرة من الأفراد وإن وجدوا تحت أستار الكعبة وهم:

١. عكرمة بن أبي جهل

٢. هبار بن الأسود

٣.عبد الله بن أبي السرح

٤. قيس بن حبابة الكندي

٥. الحويرث بن نقيند

٦. صفوان بن أمية

٧. وحشي بن حرب، قاتل حمزة

٨. عبد الله بن الزبعرى

٩. حارث بن طلالة

١٠. عبد الله بن خطل

وأربعة نساء.[١]

وكان كلّ واحد من هؤلاء إمّا قتل أحداً، أو ارتكب جناية أو شارك في مؤامرة أوحرب ضدّ الإسلام وا لمسلمين.

وفي دخول مكّة أخذ النبي ﷺ الحيطة والحذر، ففرّق الجنود، على أن يدخلوها من أسفلها، وآخرون يتخذون طريقاً من أعلاها، وأعداداً أُخرى تدخل من جميع المداخل والطرق المؤدية إلى داخل مكّة، فدخلت الفرق كلّها مكّة دون قتال، إلاّ ما حدث مع جبهة خالد بن الوليد، الذي قابلته مقاومة صغيرة تمكن من السيطره على الوضع بعد هروب المعتدين.

أمّا النبي الأكرم ﷺ فقد دخل مكة من ناحية أذاخر وهي أعلى نقطة في مكّة، فضربت له قبة من أدم بالحجون ــ عند قبر عمّه العظيم أبي طالب ـ ليستريح فيها، فقد أبى أن ينزل في بيت من بيوتها. واغتسل بعد الاستراحة، فركب راحلته القصواء متوجهاً إلى المسجد الحرام لزيارة بيت الله المعظم والطواف به على راحلته، حيث لم يترجل،وكبّر فكبّر المسلمون، حتى ارتجت مكة لدويّ صوتهم،

١.السيرة النبوية:٢/ ٤١٠؛ تاريخ الخميس:٢/ ٩٠.

فسمعه المشركون الذين تفرّقوا في الجبال ينظرون المشهد المثير. وحينما كان يمر على أي صنم من أصنام المشركين، يقول و هو يشير بقضيب في يده: ﴿جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطِلُ إنَّ الباطِلَ كانَ زَهُوقاً﴾[1]، فيقع الصنم لوجهه، ثمّ أمر بتحطيم أكبر الأصنام على مرأى من المشركين.

وبعد أخذ استراحة، طلب من عثمان بن طلحة أن يأتيه بمفتاح الكعبة، فقد كان هو سادن الكعبة، حيث كانت السدانة تتوارث جيلاً بعد جيل. وفتح النبي ﷺ باب الكعبة و دخل البيت، و دخل بعده، أُسامة بن زيد، و بلال وعثمان. ثمّ أمر ﷺ بإغلاق الباب، الذي قام خالد بن الوليد بحراسته ومنع الناس عنه.

ولمّا كانت جدران الكعبة من الداخل مغطاة بصور الأنبياء والملائكة وغيرهم، فإنّ النبي ﷺ أمر بمحوها جميعاً وغسلها بماء زمزم.

وقد اشترك الإمام علي عليه السلام في كسر بعض الأصنام الموضوعة في الكعبة، وحاول النبي ﷺ أن يصعد على كتفيه، إلاّ أنّ ضعف الإمام عليه السلام لم يساعده في ذلك، فطلب منه النبي ﷺ أن يصعد ـ عليٌّ ـ على كتفه قائلاً: «يا عليّ اصعد على منكبي»، فصعد على منكبه، فألقى صنم قريش الأكبر وأصنام أُخرى محطمة إلى الأرض.[2] ثمّ وقف النبي ﷺ على باب الكعبة وقال: «الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده». ثمّ اتجه إلى الناس الذين يشاهدون الرسول ﷺ وهو يكسر الأصنام ويحمد الله، فسألهم:

«ماذا تقولون وماذا تظنون؟» فقالوا: نقول خيراً ونظن خيراً. أخ كريم وابن

١. الإسراء: ٨١.

٢. مسند أحمد بن حنبل: ١/ ٨٤؛ السيرة الحلبية: ٣/ ٨٦؛ تاريخ الخميس: ٢/ ٨٦.

أخ كريم، وقد قدرت. فقال ﷺ: «فإنّي أقول لكم كما قال أخي يوسف: ﴿قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَومَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمين﴾[١]».

وبهذا أعلن ﷺ العفو العام والشامل عن أهل مكة بقوله: «ألا لبئس جيران النبي كنتم، لقد كذّبتم، وطردتم وأخرجتم وآذيتم ثمّ ما رضيتم حتى جئتموني في بلادي تقاتلونني، اذهبوا فأنتم الطلقاء».[٢]

وكان الوقت ظهراً فحان وقت الصلاة، فصعد بلال سطح الكعبة ورفع نداء التوحيد و الرسالة ـ الأذان ـ وبعدها ردّ مفتاح الكعبة على عثمان بن طلحة و قال له:

«هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برّ ووفاء». فالنبي ﷺ هو أوّل من يلتزم بالتعليم الإلهي في أداء الأمانة إلى أهلها، فيعيد مثل تلك الأمانة الكبرى إلى صاحبها. ثمّ ألغى جميع مناصب الكعبة السائدة في الجاهلية، إلاّ ما كان نافعاً للناس، كالسدانة، والحجابة ـ و هي القيام بشؤون أستار الكعبة ـ و سقاية الحجيج.[٣]

وفي حديث له ﷺ إلى أقاربه، في اجتماع ضم بني هاشم و بني عبد المطلب، أوضح لهم أنّ صلة القربى التي تربطهم به ﷺ لا تبرر لأحد منهم أن يتجاهل قوانين الحكومة الإسلامية، فيتخذ من انتسابه إلى زعيمها ذريعة وغطاء لارتكاب ما لا يحل للآخرين.

وهو ﷺ بهذا قد شجب كلّ تمييز وتفضيل غير صحيح وسليم، داعياً إلى لزوم العدل ومراعاة المساواة بين جميع الطبقات: «يا بني هاشم، يا بني عبد

١. يوسف: ٩٢.
٢. بحار الأنوار: ٢١/ ١٠٦؛ السيرة الحلبية: ٢/ ٤١٢.
٣. بحار الأنوار: ٢١/ ١٣٢.

المطلب، إنّي رسول الله إليكم وإنّي شفيق عليكم، لا تقولوا أنّ محمّداً منّا، فوالله ما أوليائي منكم ولا من غيركم إلاّ المتّقون، فلا أعرفكم تأتوني يوم القيامة تحملون الدنيا على رقابكم، ويأتي الناس يحملون الآخرة. ألا وإنّي قد أعذرت فيما بيني وبينكم وفيما بين الله عزّوجلّ وبينكم، وإنّ لي عملي ولكم عملكم».[1]

ثمّ دعا إلى اجتماع تاريخي كبير عند بيت الله الحرام، حضره حشد كبير من أهالي مكة، وألقى فيهم خطاباً تاريخياً عالج الأمراض الاجتماعية الخاصة بالمجتمع العربي في ذلك العصر وحتى عصرنا الحالي، ومن أهمّ ما ورد وتناوله ﷺ في هذا الخطاب:

١. **التفاخر بالنسب**: فقد كان من الأمراض المستحكمة في البيئة العربية الجاهلية، إذ كان من أكبر أمجاد المرء أن ينتسب إلى قبيلة معروفة، أو يتفرع نسبه عن عشيرة بارزة كقريش مثلاً. فأبطل الرسول ﷺ في خطابه هذه العادة السيئة بقوله: «أيّها الناس إنّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، ألا إنّكم من آدم و آدم من طين».

وبذا فإنّه ﷺ صنّف الشخصية بالتقوى و الورع: «ألا إنّ خير عباد الله عبد اتقاه» فأعطى الفضيلة والمنزلة لأهل التقوى والورع خاصة.

٢. **التفاضل بالقومية العربية**: فقد اعتبروا الانتساب إلى العرق العربي مفخرة، فقال ﷺ: «إنّ العربية ليست بأب والد، ولكنّه لسان ناطق، فمن قصر عمله لم يبلغ به حسبه».

٣. **المساواة بين أفراد البشر**: فقد دعا إلى دعم المساواة بين الأفراد والجماعات: «إنّ الناس من آدم إلى يومنا هذا مثل أسنان المشط، لا فضل للعربي

---

١. بحار الأنوار: ٢١/ ١١١.

على العجمـي، ولا لـلأحمر على الأسـود، إلاّ بـالتقوى». وبـذلـك ألغـى التمييـز العنصري مؤسساً بذلك ميثاق حقوق الإنسان قبل أيّ جهة عالمية.

٤ . **الأحقاد والحروب الطويلة** : إذ أنّ الحروب المتلاحقة بين القبائل العربية أدت إلى نشأة الحقـد و الضغينة، فلم يجد طريقـاً للقضاء عليها إلاّ بالطلـب من الناس أن يتنازلوا عمّا لهم من دماء في أعنـاق الآخرين، سفكت في عهد الجاهلية، فتعتبر ملفات العهد القديـم باطلة. وقال في ذلك«ألا إنّ كلّ مـال ومأثرة ودم في الجاهلية تحت قدمي هاتين».

٥ . **الأُخوة الإسـلامية:** حيـث دعــا إلى اتّحاد المسلمين ووحـدة كلمتهــم وحقّ المسلم على أخيه المسلـم، فهو من أهمّ مميزات الديـن الإسلامي، وهو بهذا يرغّب غير المسلم في اعتناق الإسلام إذا سمع ورأى مثل هذه الحقوق والعلاقات المتبادلـة بين المسلمين:«المسلم أخو المسلم، و المسلمـون إخوة، وهم يـد واحدة على من سواهم، تتكافؤ دماؤهـم ليسعى بذمّتهم أدناهم».[1]

وبعد ذلك تفرّغ النبي ﷺ للحكم على بعض المجرمين والمؤذين،حيث كان هناك عـدد من المجرمين المكيّين، كـان لابدّ مـن عقابهم على ما فعلـوا من أعمال سيئة، وذلك بالرغم من إصدار العفو العام، وقد طارد الإمام علي عليه السلام اثنين منهم لجآ إلى بيت أُمّ هانئ أُخت الإمام عليه السلام التي أجارتهما،ولكن الإمام عليه السلام طلب منها أن يعلم النبي ﷺ بأمـانها ليعطي رأيه في جـوارها وأمانها كمـرأة، فقبل ﷺ ذلك وقال: «قـد أجرنا من آجـرت، وأمّنا من أمّنـت، فلا يقتلهما».[2] وهو بهذا وضـع

---

١ . روضــة الكــافي:٢٤٦؛ السيرة النبــويــة:٢/ ٤١٢؛ مغــازي الــواقــدي:٢/ ٨٣٦؛ بحــار الأنوار:٢١/ ١٠٥ .

٢ . الإرشاد: ٧٢ .

قـاعدة تقبـل جوار المرأة وأمـانها. كما أنّ عبـد الله بن أبي السرح الـذي ارتدّ عـن الإسلام وأمر النبي ﷺ بقتله،نجا من القتل بشفاعـة عثمان بن عفان له. وكذلك عكرمة بن أبي جهل الذي فرّ إلى اليمن، وتشفّعت فيه زوجته، فنجا من القتل. كما أمّن أيضاً كبير المجرمين صفوان بن أُمية حينما طلب «عمير بن وهب» من النبي ﷺأن يعفو عنه، فأمهله أربعة أشهر ليعلن إسلامه بعد التفكير.

وكذلك وضع ﷺ قاعدة مبايعة النساء له ﷺ، فقد بايعته المرأة للمرّة الأُولى في بيعة العقبة بهذه الكيفية: [حيـث أمر الرسول ﷺ بإحضار قدح ماء، ثمّ ألقى في الماء شيئاً من الطيب والعطر فأدخل يـده فيه،وتلا الآية التي وردت فيها الأُمور المذكورة، ثمّ نهض مـن مكانه و قال لهن: مـن أرادت أن تبايع فلتدخـل يدها في القدح، فإنّي لا أصـافح النساء].[١] وقد أجـرى البيعة بهذا الأسلوب، لوجـود عدد كبير من النساء الفاسدات بينهن، فكان لابدّ من ذلك حتى لا تستأنف إحداهن عملهن القبيح بعد ذلك في السرّ.

هدم بيوت الأصنام

وللقيام بهذه المهمة الضرورية، أرسل النبي ﷺ فرقاً عسكرية إلى ضواحي مكة وداخلها وفي بيوتها لهدم الأصنام المتـواجدة فيها، كما أعلن ﷺ: «من كان في بيته صنم فليكسره». و أرسـل خالد بن الوليـد إلى تهامة لدعوة قبيلة جـذيمة بن عامر وهدم أصنامهم، ونهاه النبي ﷺ عن القتل أو إراقة الدمـاء. إلاّأنّه لما كانت هذه القبيلة قـد قتلت أيّام الجاهلية عـمّ خالد ووالد عبـد الرحمن بن عوف، فـإنّه

---

١. في سورة الممتحنـة ١٢: ﴿ألاّ يشركن بـالله شيئاً ولا يسرقن ولا يـزنين ولا يقتلن أولادهنّ ولا يـأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ ولا يعصينك في معروف﴾ .

حقد عليهـم، وأمر بقتل عدد منهـم، الأمر الذي أغضـب النبي ﷺ عندما علم بذلـك، فأرسل مالاً كثيراً مـع الإمام علي عليه السلام ليدفـع دية هؤلاء المقتـولين وقال: «اللهمّ إنيّ أبرأ ممّا صنع خـالد بن الوليد».[١] وارتاح بعد ذلك لما أقـدم عليه الإمام علي عليه السلام من معاملة طيبة لأهالي المنكوبين و قال: «والله ما يسرني يا عليّ أنّ لي بما صنعت حمر النعم، أرضيتني رضي الله عنك، أنت هادي أُمّتي».[٢]

٤. معركة حنين

وبعد أن استقر النبي ﷺ في مكة مـدّة خمسة عشر يوماً، غـادرها إلى أرض قبيلة هـوازن و ثقيف، بعـد أن عيّن معاذ بـن جبل ليُعلّـم الناس القـرآن وأحكام الإسلام، وعتاب بن أسيد لإدارة الأُمور والصلاة بالناس جماعة في مكة المكرمة.

وقد بلغ الجيش الذي سار به إلى هـوازن: ١٢ ألف مسلحاً، إذ شاركه هذه المرة ألفان من شباب قريش الذيـن أسلموا بعد الفتح بقيادة أبي سفيان.[٣] إلاّ أنّ كلّ ذلـك العدد الكبير لم يساعـد في النجاح والانتصـار كما ذكر القرآن الكـريم: ﴿لَقَدْ نَصَـرَكُمُ اللهُ فِي مَـواطِنَ كَثيرَةٍ وَيَـوْمَ حُنَينٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُـمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَـمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَـتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرين﴾ [٤] وقد برز من طرف العدو: مالـك بن عوف النصري الذي عرف بالفروسيـة والشجاعة، كما أنّه أدار الاتّصالات المكثفة بين هـوازن وثقيف، لإخراج خدعـة عسكرية توجـه منها

---

١. السيرة النبوية: ٢/ ٤٢٠؛ الكامل: ١/ ١٧٣؛ إمتاع الأسماع: ١/ ٤٠٠.

٢. مجالس ابن الشيخ: ٣١٨.

٣. طبقات ابن سعد: ٢/ ١٣٩؛ مغازي الواقدي: ٣/ ٨٨٩.

٤. التوبة: ٢٥.

ضربة إلى جيش الإسلام، فقد اقترح بوضـع الأطفال والنساء والأموال وراء ظهور الرجال حتى يضطروا إلى أن يقاتلوا عنهم، كما أرسلوا الجواسيس ورجال مخابراتهم للتجسس على المسلمين، مثلما بعث النبي ﷺ رجاله إلى ديار الأعداء.

وحسـب الوضـع والموقـع، قرّر مـالـك بن عـوف أن يخفـى الجنود خلـف الصخور وفوق الجبـال ليباغتوا المسلمين في الوادي، الذي دخلتـه أوّل كتيبة، من بني سليم بقيادة خالد بن الوليد فبادرهم العدو و أخذ يرشقهم بالاحجار والنبال ويضربـونهم بالسيـوف، فوقعـوا فيهم ضربـاً وقتلاً، ممّـا أدّى إلى إصابـة المسلمين بالفوضى وبلبلـة الموقف وخلخلة الصفوف فالفرار، الأمـر الذي جعل النبي ﷺ يأمر العباس بن عبد المطلب بـأن ينادي على هؤلاء الفارّين والهاربين ويرجعهم، فبلغت صرخـاته مسامعهـم فثارت حميتهم ونادوا: لبيـك لبيك. وبذا فقـد تمكن النبي ﷺ من تنظيم صفوف جيشه من جـديد، وحملا حملة رجلٍ واحدٍ على العدو لغسـل مـا لحق بهم مـن عـار الفـرار، وتمكّنوا مـن النيـل منهـم وإجبـارهـم على الانسحاب من الموقع والفرار من أمامهم وذلك بتشجيع وحماس من الرسول ﷺ: «أنا النبي لا كذب، أنـا ابن عبد المطلب». ممّا كان الأثـر الفعال في إلقاء الهزيمة المنكرة بقبيلة هوازن، تاركين وراءهم أموالهم ونساءهـم وصبيانهم الذين كانوا قد وضعوهم خلف ظهورهم حسب أوامر وخطة قائدهم.

أمّا النتيجـة النهائية للمعـركة، فكانـت شهادة ثمانية أفـراد من المسلمين، وأسر ستة آلاف من العدو، وغنائم كثيرة من الحيوان وأربعة آلاف أوقية فضة.[١]

وأعطى النبي ﷺ أوامره بـإرسال الغنائم والأسرى إلى الجعـرانة ــ بين مكة والطـائف ـ و بلـغ مـن حنق المسلمين على المشركين في هـذه المعـركة، أن قتلـوا

١. ٤ آلاف أوقية تساوي ٨٥٢ كيلو غرام.

الرجال وذرّيتهم، فلمّا بلغ ذلك النبي ﷺ قال: «ألا لا تُقتَل الذرية». وعندما قيل له: إنّما هم أولاد مشركين. قال ﷺ: «أو ليس خياركم أولاد المشركين؟ كلّ نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها، وأبواها يهوّدانها أو ينصّرانها».[١]

٥. غزوة الطائف

سكنت قبيلة ثقيف، واشتركوا مع هوازن في قتال المسلمين، وهربوا بعد المعركة السابقة إلى الطائف متحصنين في قلاعها وحصونها، فأمر النبي ﷺ بالإعداد لمطاردتهم وملاحقتهم حتى ديارهم. فأرسل فريقاً عسكرياً بقيادة أبي موسى الأشعري لملاحقتهم في أوطاس، فأحرز انتصاراً كبيراً على العدو. وأمّا النبي ﷺ فقد توجه بجيشه إلى الطائف، حيث هدم حصن مالك بن عوف في طريقه، وسواه بالأرض، حتى لا يستغله العدو فيما بعد.

واشتهرت حصون الطائف وقلاعها بالمنعة وارتفاع الجدران، فتمكنوا من ردّ المسلمين عن طريق حذفهم ورميهم، الذي أدّى إلى تراجعهم. فاقترح سلمان الفارسي أن يرمى الحصن بالمنجنيق ـ الّذي يأخذ دور الدبابة في الحروب الحديثة ـ فبدأوا برمي الحصون وأبراجها بالحجارة طوال عشرين يوماً، ممّا أصاب عدداً من المسلمين في هذه الأعمال.[٢]

وممّا يذكر أنّ سلمان الفارسي هو الذي صنع جهاز المنجنيق، وعلّم المسلمين كيفية استخدامه، بينما يرى آخرون أنّ المسلمين حصلوا على هذا السلاح

---

١. إمتاع الاسماع: ١/ ٤٠٩.

٣. السيرة النبوية: ٤/ ١٢٦ ويرى ابن هشام أنّ النبي ﷺ هو أوّل من استخدم المنجنيق في الجزيرة العربية.

من يهود خيبر، وأنّ سلمان ربما أدخل عليه تحسينات إضافة أنّه علم المسلمين أسلوب استعماله.

كما أنّ الرسول ﷺ كان قد حصل على بعض الآليات الحربية من خلال ما ترك في حروبه لقبيلة دوس التي استخدمتها في معاركها ضدّ المسلمين، فاستفاد منها النبي ﷺ في غزو الطائف.

إلاّ أنّ نتائج تلك العمليات والآليات لم تأت بنتيجة حاسمة، فاتجه النبي ﷺ إلى جانب آخر قد يكون أكبر قوّة وأثراً من الجانب العسكري، وهو الناحية النفسية والاقتصادية. إذ أنّ أرض الطائف كانت زراعية، ذات نخل وأعناب، ممّا فكر به الرسول ﷺ لتهديدهم وتخويفهم لأنّه سيعمد إلى قطع الأعناب و إفناء المزارع، إذا استمر المعتصمون بالحصون في المقاومة. وعندما لم يرضخوا للتهديد، نفذ المسلمون عملياً أوامر النبي ﷺ بالقطع والحرق والإتلاف، ممّا أزعج الأهالي وطلبوا من النبي ﷺ أن يأمر رجاله بالكف عن ذلك، فتركوا العمل بهذا التكتيك. وقام بمحاولة أخيرة للتخلص منهم، فنادى: أي عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر. فنزل عدد منهم ملتحقاً با لمسلمين، وعرف منهم الرسول ﷺ بعض الأخبار المرتبطة بالحصن، وأنّه لا نية لهم للاستسلام، و لديهم الاستعداد للمقاومة حتى لو طال الحصار عاماً واحداً، فلن يقعوا في أزمة أو ضيق بسبب طول الحصار. ولذا فإنّ الجيش الإسلامي رأى أنّه من الأصلح الرجوع عن ساحة القتال، وذلك للأسباب التالية:

١. مقتل عدد من المسلمين، من قريش والأنصار، كما أنّ شهر شوال كان قد انتهى وبدأ شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم، وللحفاظ على هذه السُّنّة، فقد رأى النبي ﷺ أن ينهي الحصار في أقرب وقت.

٢. كما أنّ موسم الحجّ كان قد اقترب، وخاصة أنّ إدارة الموسم ومناسكه أصبحت في يد المسلمين الآن، وليس بيد المشركين كما في السابق.

ولكلّ ذلك ترك النبي ﷺ الطائف متوجهاً إلى الجعرانة حيث حفظت الغنائم والأسرى، فاستقر فيها ١٣ يوماً وزع فيها الغنائم بأسلوب جدير بالدراسة والتأمل: فقد أخلى سبيل بعض الأسرى، وخطط لإخضاع و إسلام مالك بن عوف قائد المعارك ضدّ المسلمين، وكان من بين المشركين مع هوازن، قبيلة بني سعد التي أرضعت إحدى نسائها ـ حليمة السعدية ـ النبي ﷺ وكبر بينهم وعاش معهم خمس سنوات، ولذا فإنّ جماعة مسلمة منهم قدمت إلى النبي ﷺ يطلبون سراح الأسرى من هذه القبيلة، وذكّروه بكلّ حياته بينهم في تلك السنوات. فردّ عليهم النبي ﷺ محسناً إليهم بأكثر ممّا قدموا، وتنازل عن نصيبه في الأسرى، فتبعه المهاجرون والأنصار و الآخرون، فارجعوهم إلى ذويهم. كما أنّ النبي ﷺ دعا أُخته شيماء وبسط لها رداءه ورحب بها، ودمعت عيناه، وسألها عن أُمّه وأبيه من الرضاعة، فأخبرته بموتهما، فقال: إن أحببت فأقيمي عندنا محببة مكرمة، وإن أحببت أن أُمتعك وترجعي إلى قومك فعلت. فاختارت الرجوع إلى أهلها بعد أن أسلمت طوعاً ورغبة، ومنحها ثلاثة عبيد وجارية.[١]

وقد أدّت معاملات النبي ﷺ هذه، و إطلاق الأسرى إلى رغبة هوازن في الإسلام، فأسلموا من قلوبهم، ففقدت الطائف آخر حليف لها.

أمّا بالنسبة لمالك بن عوف فقد رأى النبي ﷺ فرصة طيبة للسيطرة عليه، وهو رئيس المتمردين، فقال لوفد بني سعد: أخبروا مالكاً إنّه إن أتاني مسلماً

---

١. البداية والنهاية: ٢/ ٣٦٣؛ الإمتاع: ١/ ٤١٣.

رددت عليه أهلـه وماله وأعطيته مـائة من الإبل. وعنـدما بلغه ذلك، وعلـم بقوّة الإسلام وأخلاق النبي ﷺ وعظمته، قرر الالتحاق بالنبي ﷺ فخرج من الطائف لإدراك النبي ﷺ في مكـة أو الجعرانـة، حين ردّ عليه مـاله وأهلـه وأعطاه الإبـل، فأسلم وحسن إسلامه، وجعله قائداً على من أسلم من قومه حارب بهم ثقيف.

وأمّـا الغنائم، فقـد قسمها بين المسلمين، ووزع الخمـس الّـذي هو حقّـه الخاص، بين أشراف قريـش حديثي العهد بـالإسلام ليتألّفهم، مثـل: أبي سفيان ومعاوية ابنه، وحكيم بن حزام، والحارث بن هشام و سهيل بن عمرو، وحويطب ابن عبد العزى، والعـلاء بن جارية، وصفوان بن أمية، وغيرهم ممّـن كانوا أعداءه بالأمس القريب، لكلّ واحد منهم مائة بعير.[١] وهذا الفريق يصطلح عليه في الفقه الإسلامـي: المؤلّفة قلـوبهم. وهم يشكّلـون إحدى مصـارف الزكـاة بنص القـرآن الكريم.

إلاّ أنّ بعضهم لم يستحسن أسلوب النبي ﷺ في التوزيع، ورأى أنّه لم يعدل حين وزع خمس الغنيمة على أبناء قبيلته، ومن أشهرهم:

ـ ذو الخويصرة التميمـي، الذي رفض أُسلـوب النبي ﷺ ممّا دعا عمـر بن الخطاب أن يستـأذن النبي ﷺ لقتله. ولكـن النبي ﷺ قال: دعه فإنّـه سيكون له شيعة (أي تَبع) يتعمّقون في الـدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم مـن الرمية.[٢] وقد أصبح فعلاً زعيماً لفرقة الخوارج في عهد الإمام علي ﷺ.

كما اشتكى عدد من جـانب الأنصار، حول كيفية توزيـع الخمس، فخطب

١. المحبّر: ٤٧٣؛مغازي الواقدي: ٣/ ٩٤٤؛ السيرة النبوية:٣/ ٤٩٣.
٢. وجاء في السيرة الحلبية أنّه أصل الخوارج.

فيهم النبي ﷺ موضحاً موقفه من هذا التوزيع في تأليف القلوب:«أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم. والذي نفس محمّد بيده، لولا الهجرة لكنت إمرئً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار».[١] ثمّ ترحم عليهم قائلاً: «اللّهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار».

فأثار بهذه الكلمات مشاعرهم فبكوا بشدّة وقالوا: رضينا يا رسول الله حظاً وقسماً. ويكشف ذلك عن عمق حكمة النبي ﷺ وحنكته السياسية، وأُسلوب معالجته للمشكلات بروح الصدق واللطف.

وبعد ذلك خرج النبي ﷺ معتمراً من الجعرانة، ثمّ انصرف راجعاً إلى المدينة فوصلها في أواخر ذي القعدة أو أوائل شهر ذي الحجّة، مستخلفاً على مكّة: عتاب بن أسيد، الذي بلغ من العمر عشرين عاماً، و قُدّر له راتبٌ يوميٌّ، درهم واحد، ولما احتجّ بعضهم على هذا التعيين، قال: «لا يحتج منكم في مخالفته بصغر سنه، فليس الأكبر هو الأفضل، بل الأفضل هو الأكبر، وهو الأكبر في موالاتنا وموالاة أوليائنا، ومعاداة أعدائنا، فلذلك حعلناه الأمير عليكم والرئيس عليكم، فمن أطاعه فمرحباً به، ومن خالفه فلا يبعدُ الله غيره».[٢]

وأكد بذلك النبي ﷺ معيار الأهلية والجدارة والكفاءة في حيازة المناصب الاجتماعية والأُمور الاجتماعية الأُخرى.

ومن أحداث هذه السنة أيضاً:

---

١. السيرة النبوية: ٢/ ٤٩٨؛ مغازي الواقدي: ٣/ ٩٥٧.

٢. بحار الأنوار: ٢١/ ١٢٢؛ إمتاع الأسماع: ١/ ٤٣٢.

وفاة زينب بنت الرسول ﷺ وهي التي كان زوجها ابـن خالتها أبي العاص الـذي بقـي على شركـه بعـد أن آمنت هـي بـأبيهـا، ولكنّـه آمـن في الفترةالأخيرة وأعاد النبي ﷺ إليه زوجته.

كما أنّ النبي ﷺرزق في أواخر هذا العام ولداً سمّاه إبراهيم من زوجته مارية القبطية، فأهدى المولدة هدية ثمينة، وعق له في اليوم السابع وحلق شعره وتصدق بوزنه فضة في سبيل الله.[1]

---

١. تاريخ الخميس:٢/ ١٣١.

الفصل التاسع

١. أحداث السنة التاسعة من الهجرة

- عام الوفود
- هدم الأصنام
- غزوة تبوك
- مسجد ضرار
- وفد ثقيف
- إعلان البراءة من المشركين

٢. أحداث السنة العاشرة من الهجرة

- وفد نجران و المباهلة
- وفود القبائل على المدينة
- حجّة الوداع
- الخلافة بعد النبي (صلّى الله عليه و آله و سلّم)
- وضع أساس التعامل مع: المرتدين و الأخطار الخارجية
- مرض النبي ﷺ
- وفاة ابنه إبراهيم عليه السلام

٣. أحداث السنة الحادية عشرة من الهجرة

- الكتاب الذي لم يكتب
- اللحظات الأخيرة

أحداث السنة التاسعة

من الهجرة

١ . عام الوفود

انتهت السنـة الثامنـة بسقوط أكبر قاعـدة من قـواعد الـوثنية والشرك، في أيدي المسلمين، الـذين انتصروا على أعـدائهم تمامـاً، فأخـذت القبائل المتمـردة تتقرب إليهم تدريجياً، وتوالت وفودُها على النبي ﷺ تقدم ولاءها وتعلن إسلامها وتتقبل الرسالة المحمّدية، ممّا دعت تلك الكثرة من الأعداد الوافدة على النبي ﷺ أن يسمى بعام الوفود.[1]

إنّ دراسة الوفود وما دار بينهم و بين الرسول ﷺ تفيد بوضوح بأنّ الإسلام انتشر في الجزيرة العـربية عن طـريق الدعـوة والتبليغ. وتحدث القرآن الكـريم في سورة خاصـة عن حضور تلك الـوفود على النبي ﷺ وما حقّقه الإسـلام من فتح وانتصار: ﴿**إِذٰا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْح * وَرَأَيْتَ النّاسَ يَـدْخُلُونَ في دِينِ اللهِ أَفْواجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوّاباً**﴾ .[2]

إلاّ أنّه بالرغم من ذلك فإنّ النبي ﷺ أعدّ في هذا العام عدّة سرايا بعثها إلى

---

١ . سجل المؤرخ محمد ابن سعد في الطبقات:١/ ٢٩١ ، أسماء ٧٣ وفـداً قدموا على الرسول ﷺ طوال السنة٩هـ.

٢ . سورة النصر.

جهات معينة، من جملتها سرية الإمام علي عليه السلام إلى أرض طيء، وقد اختصت لهدم مظاهر الوثنيّة.

كما وقعت غزوة واحدة مثل غزوة تبوك، وإن لم يقاتل فيها النبي صلى الله عليه وآله أحداً، إلاّ أنّها كانت تمهيداً لفتح المناطق الحدودية.

٢. هدم الأصنام

أدرك النبي صلى الله عليه وآله في ضوء تعاليم الوحي أنّ الوثنية كجرثومة الكوليرا، تهدم فضائل الإنسان وشرفه، وتقضي على مكارم الأخلاق، وتحط من مكانة الإنسان الرفيعة، وتجعله كائناً حقيراً أمام الطين والحجر. وعلى هذا الأساس أمره الله تعالى أن يجتث جذور الشرك من كيان ذلك المجتمع الموبوء، بإزالة كلّ مظاهر الوثنية وأنواعها وأشكالها، مستخدماً القوة تجاه الجماعات المعارضة. وعلم صلى الله عليه وآله أنّ في قبيلة طيء صنماً كبيراً يقدّس حتى ذلك الوقت، فأرسل الإمام علياً عليه السلام مع ١٥٠ فارساً ليحطم هذا الصنم ويهدم بيته.

ونجح الإمام عليه السلام في مهمته، وعاد بالغنائم والأسرى إلى المدينة، وهرب رئيسها «عدي بن حاتم الطائي» إلى الشام ملتحقاً بأهل دينه، لأنّه كان نصرانياً حسب ما ذكر بنفسه، وترك أُخته في قومه. إلاّ أنّ النبي صلى الله عليه وآله أرجعها إلى أخيها بالشام، فأخذت توبخه ممّا صنع من هروبه مع أهله، وتركها وحيدة، ثمّ طلبت منه أن يذهب إلى النبي صلى الله عليه وآله ويعلن إسلامه، فاحترمه النبي صلى الله عليه وآله عندما قدم إليه في المدينة، وقدم له ما يليق به كأمير وسيد على قومه.

ولما شاهد من سيرته وأفعاله ما يدل ويؤكد على أنّه نبي الله، أسلم على

يديه ﷺ.[١]

٣. غزوة تبوك: وهي قلعة قويّة في طريق حجر والشام.

أعدّ إمبراطور الروم قوّة عسكرية لمهاجمة المسلمين الذين ازدادت قوّتهم وأعدادهم وخطرهم على الدولة الرومانية. وتألفت هذه القوّة من ٤٠ ألف فارس و كانت مجهزة بأحدث الأسلحة و المعدات، وتقدمت إلى منطقة البلقاء، فأمر النبي ﷺ عندها أصحابه بالتهيّؤ والاستعداد لغزو الروم، في موسم شديد الحرارة، وجدب وعسرة، إلاّ أنّ الدوافع المقدّسة والجهاد في سبيل الله غَلَبَ على كلّ تلك الأُمور الدنيوية، فشارك ٣٠ ألف من المسلمين في هذه الغزوة تحددت نفقاتها من الزكاة من أهل الغنى والثروة. وقد اعتبرت هذه الغزوة خيرَ مَحَكٍّ لمعرفة المجاهدين الصادقين من المنافقين والمبدعين، إذ أنّ بعضهم تخلّف بحجّة الخوف من أن يفتتن بالنساء الروميات، وهو عذر صبياني أقبح من الذنب: **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكافِرين﴾**.[٢]

وكان منهم أيضاً المنافقون الذين تظاهروا بالإسلام، فثبّطوا الناس عن النبي ﷺ وخوفوهم من قوّة الرومان، و اعتذروا بالحر الشديد: **﴿وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حرّاً لَوْ كانُوا يَفْقَهُون﴾**.[٣]

كما أنّ مجموعة من الخونة ألّفت شبكة جاسوسية في المدينة، تمكن النبي ﷺ من القضاء عليها بهدم المكان الذي اجتمعت به وحرقة، وهو بيت سويلم اليهودي.

---

١. مغازي الواقدي:٢/ ٩٨٨؛ السيرة النبوية:٣/ ٥٧٨؛ الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة الإمامية:٣٥٢.
٢. التوبة:٤٩.
٣. التوبة:٨١.

وكـذلك تخلّـف عنهم المخلّفـون الثلاثـة، الذيـن جاء ذكـرهم في القـرآن الكريـم، حينما قالـوا بأنّهم سيلحقـون بركبـه ﷺ بعد مـا يفرغـون من الحصـاد، فوبّخهم الله تعالى وعاقبهم، ليكونوا عبرةً لغيرهم. كما تخلف عن الغزوة ولكن بنية صادقة البكـاؤون، وذلك لعدم تمكّنهم مـن المشاركة في الجهاد، لفقـرهم و عدم حصولهم على دواب تحملهـم، ولم يستطع النبـي ﷺ أن يجهز ذلـك لهم فقال: لا أجد مـا أحملكم عليه. كما لم يشارك فيهـا الإمام عليّ عليه السلام فقد أبقـاه النبي ﷺ في المدينة، خوفاً من إثارة فتنة أو قيام انقلاب خلال غيابه، بمساعدة القوى المضادة للإسلام. وبالـرغم من أنّ النبي ﷺ قد استخلـف على المدينة «محمد بـن مسلمة» فإنّه قـال للإمام علي عليه السلام : «أنـت خليفتي في أهـل بيتي ودار هجـرتي و قومـي» فكـأنّه تعيّن كقـائد عسكري في المدينـة يحفظ الأمـن والاستقرار فيهـا. ولذا فـإنّ المنـافقين استغلوا ذلـك فرصـة لنشر الشائعـات والأقاويـل في عدم اصطحـاب النبي ﷺ للإمام علي عليه السلام معه في الجيش، ممّـا جعل الإمام عليه السلام يسير إلى الرسول ﷺ وهو على بعد ثلاثة أميال من المدينة ليسـأله عن هذا الأمر قائلاً: «يا نبي الله، زعم المنافقون أنّك إنّما خلّفتني أنّك استثقلتنـي وتخففت عني» فقال الرسول ﷺ حينئذٍ كلمته التاريخية الخالدة التي اعتبرت من الأدلة القاطعة على إمامته وخلافته بعده ﷺ: «كَـذِبوا ولكنّـي خلّفتُـك لما تركـتَ ورائي، فـارجـع فاخلفنـي في أهلي وأهلك، أفلا ترضـى يا عليّ أن تكون منّي بمنزلة هارون من مـوسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي».[1]

وهكذا فقد استعـرض النبي ﷺ المعسكر قبـل تحرّك الجيش، وألقـى فيهم خطاباً هاماً لتقوية معنويات المجاهـدين، وشرح فيه هدفه من هذه التعبئة العامة الشاملة.

---

١. إمتاع الأسماع: ١/ ٤٥٠.

وفي الطريـق واجه متاعـبَ ومشاق كثيرة، ولـذا سمى هذا الجيـش بجيش «العسرة»، إلاّ أنّ إيمانهم العميق، وحبّهـم للهدف المقـدس، سهّل عليهـم الأمر. وعندما مروا بأرض ثمود، غطى النبي ﷺ وجهَه بثوبه وأمر أصحابه بسرعة السير: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلاّ وأنتـم باكون خوفاً أن يصيبكم مثلما أصابهم». كما نهاهم أن يشربوا من مائها ولا يتوضأوا به للصلاة ولا يطبخ به طعام.[1] ولكنّهم شربوا عندما وصلوا إلى البئر التي كانت تشرب منها ناقة صالح عليه السلام فنزلوا عليها بأمر الرسول ﷺ.

كما أنّ النبي ﷺ أظهر في الطريـق بعض الأُمور الغيبية حتى لا يـؤثّر شكّ بعضهم في إيمان الآخرين، مثلما جـرى لناقته التي ضلت الطريـق، وبدأ المنافقون في التقليل من قـوّة النبي ﷺ واتّصاله بالله سبحانه و تعـالى، فأخبرهم بموقعها، بعلم مـن الله تعالى. وتنبأ عن أبي ذر و مـا سيجري له عنـدما تأخّر عنهـم فقال: رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده.[2]

على كلّ حال، وصل الجيش في مطلع شهر شعبان إلى أرض تبوك، دون أن يجدوا أثـراً لجيش الـروم الـذي كان قـد انسحب إلى داخـل بـلاده مفضلاً عـدم مـواجهة المسلمين، ومـؤكـدين حيـادهـم تجاه الحوادث والـوقائع التـي تجري في الجزيرة العربية. فجمع النبي ﷺ القادة و شاوَرَهم في أمـر التقدّم في أرض العدو، أو العـودة إلى العاصمـة. فقـرروا العـودة ليستعيد الجميـعُ نشـاطَـه بعد المشـاق والتعب، إضافة إلى أنّهم حقّقوا هدفهم بتخويف العدو و إلقاء الرعب في قلوبهم، فقالوا للنبي ﷺ: إن كنت أُمرت بالسير فَسِرْ، فقال ﷺ: «لو أُمرت به ما استشرتُكم

١. السيرة النبوية: ٢/ ٥٢١؛ السيرة الحلبية: ٣/ ١٣٤.

٢. السيرة النبوية: ٢/ ٥٢١؛ السيرة الحلبية: ٣/ ١٣٤.

فيه».[١] فاحترم الرسول ﷺ آراء هؤلاء وقرر العودة إلى المدينة.

ورأى النبي ﷺ أنّ الوقت مناسب للاتّصال ببعض حكّام ورؤساء المناطق الحدودية، ليعقد معهم معاهدات أمن وعدم إعتداء، ليأمن جانبهم. فاتصل شخصياً بزعماء أيلة وأذرح والجرباء. وعندما قدم يوحنا بن رؤبة زعيم أيلة، إلى النبي ﷺ قدم له فرساً أبيض وأعلن عن طاعته له ﷺ، فاحترمه ﷺ وصالحه وكساه برداً يمانياً، وقبل أن يدفع جزية قدرها ٣٠٠ دينار سنوياً على أن يبقى على دينه المسيحي، ووقع الطرفان على كتاب أمان، فضمن بذلك أمن المنطقة الإسلامية شمالاً.

وفي طريق تبوك تقع منطقة دومة الجندل ذات الخضرة والماء، وتبعد عن الشام ٥٠ فرسخاً، وعن المدينة عشرة أميال، حكمها رجلٌ مسيحي هو: أكيدر بن عبد الملك. فأرسل النبي ﷺ قوّة بقيادة خالد بن الوليد لإخضاعه، فتمكن من السيطرة عليهم وإحضار أكيدر إلى الرسول ﷺ، فأعلن خضوعه وقبل دفع الجزية والبقاء على دينه، وكتب عهداً وصالحه، وأهداه، ثمّ أوصله إلى بلده بحراسة خاصة.[٢] فانتهت بذلك الأعمال العسكرية في تبوك.

ويمكن تقييم نتائج تلك العمليات العسكرية كما يأتي:

١. إبراز مكانة وسمعة الجيش الإسلامي في المناطق الخارجية، ممّا أثر في القبائل هناك فتسارعوا بالقدوم والوفود على الرسول ﷺ بعد عودته من تبوك، لتعلن خضوعها وطاعتها، حتى سمّي ذلك العام بعام الوفود.

٢. ضمان أمن الحدود بعد توقيع المعاهدات والاتفاقيات مع حكّام تلك

---

١. مغازي الواقدي: ٣/ ١٠١٩.

٢. بحار الأنوار: ٢١/ ٢٤٦؛ طبقات ابن سعد: ٢/ ١٦٦.

المناطق.

٣. تمهيد الطريق للمسلمين لفتح الشام بعد ذلك، عندما تعلموا منه ﷺ أساليب تكوين وإعداد الجيوش الكبرى لمحاربة القوى العظمى.

٤. تمييز المؤمن عن المنافق.

وبعد أن مكث ﷺ عشرين يوماً في تبوك، توجه إلى المدينة، إلاّ أنّ اثني عشر منافقاً تآمروا لاغتيال النبي ﷺ قبل أن يصل إلى عاصمته، كان ثمانية منهم من قريش والآخرون من أهل المدينة، وذلك بتنفير ناقته في العقبة ـ بين المدينة والشام ـ ليطرحوه في الوادي، غير أنّه ﷺ علم بمؤامرتهم فأرعبهم بصياحه فيهم، فتركوا العقبة هاربين، ورفض ﷺ أن يرسل من يقضي عليهم أو اللحاق بهم. ثمّ وصل الجيش إلى المدينة فرحين مسرورين معتزين بما حقّقوه من انتصار على الأعداء، وإلقاء الرعب في قلب دولة كبيرة، ولما أرادوا التفاخر والتباهي على الذين تخلّفوا بعذر وقلوبهم مع جنود الإسلام، فإنّ النبي ﷺ منعهم من ذلك، لأنّ النيّة الصالحة والفكر الطيّب يقوم مقام العمل الصالح الطيّب.

ثمّ أقدم ﷺ على معاقبة الثلاثة الذين تخلّفوا عن الجيش بأعذار واهية وهم: هلال بن أُمية، كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، فقد أعرض بوجهه الكريم عنهم، ولم يكترث بهم حينما قدّموا التهنئة بعودتهم مظفرين، وقال فيهم: لا تكلّموا أحداً من هؤلاء الثلاثة، ممّا أثر في التعامل معهم تجارياً، فكسدت بضائعهم ، وانقطعت روابطهم مع أقربائهم، فأثر ذلك في نفسياتهم: ﴿**حَتَّىٰ إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ**﴾.[1] فقاموا بالتوبة إلى

---

١. التوبة:١١٨.

الله، فأعلن النبي ﷺ عفوه عنهم،ورفع المقاطعة عنهم.[١]

وكانت هذه آخر معركة اشترك فيها الرسول ﷺ إذ لم يشارك بعدها في أيّ قتال.

٤. مسجد ضرار

أصبح أبو عامر والد حنظلة غسيل الملائكة، الذي استشهد في أُحد، من المتعاونين مع المنافقين، الذين خططوا دائماً للتخريب و إفساد أعمال الإسلام،ولذا قرر النبي ﷺ اعتقاله فهرب إلى مكّة و منها إلى الطائف ثمّ إلى الشام، فقاد منها شبكة تجسسية لصالح المنافقين. وكتب في إحدى رسائله إلى جماعته، يطلب منهم أن يبنوا مسجداً في قباء في مقابل مسجد المسلمين ليتخذوه مركزاً لتخطيط وتنفيذ مؤامراتهم. وكان النبي ﷺ قد رفض من قبل طلبهم هذا قبل مسيره إلى تبوك، فاستغلوا غيابه فأقاموه. و لمّا عاد النبي ﷺ طلبوا منه أن يؤدي ركعتين فيه ليسبغوا عليه الصفة الشرعية، إلاّ أنّ جبرائيل عليه السلام أوحى إليه ﷺ بحقيقة الأمر والنية، وسمّاه مسجد ضرار ووصفه بأنّه مركز لإيجاد الفرقة والتآمر بين المسلمين: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ الْحُسْنىٰ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ* لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوىٰ مِنْ أَوَّلِ يَومٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.[٢]

---

١. السيرة الحلبية: ٣/ ١٦٥.

٢. التوبة:١٠٧.

ممّا دعا الرسولﷺأن يأمر فوراً بتدميره و إحراقه وتسويته بالأرض، فتحول مكانه إلى مزبلة فيها بعد.[١] وكان ذلـك ضربة قويّـة للمنافقين، إذ انتهى حزبهم الخبيث وهلك حاميها الوحيد عبد الله بن أُبي بعد شهرين من غزوة تبوك.

٥. وفد ثقيف

وهي من القبـائل العنيدة التي تصلبت في موقفها أمـام المسلمين،وخاصة عندما حـاصرهم الجيش الإسلامـي، فلم يتنازلوا أو يسلمـوا، إلاّ أنّ موقفهم تغيّر بعد غزوة تبوك التي أشهرت قوّة المسلمين،وخوفـت عدّة جهات، ممّا دفع عروة بن مسعـود الثقفي أحـد سادتهم إلى أن يقـدم إلى المدينـة ويعلن إسـلامه على يـدي الرسول ﷺثمّ يرجع إلى قومه داعياً لهم إلى الإسلام، فرشقوه بالنبال والسهام حتى استشهد.

إلاّ أنّ موقفهم المتصلب تغيّر بعد فترة حينها علموا أنّ مصالحهم التجارية وغيرها معرضة للخطر إذا لم يحسنوا علاقـاتهم بالمسلمين، فقرروا التوجه إلى النبي ﷺ وإعلان إسلامهـم، فأوفدوا عنهم عبد يـاليل مع خمسة رجـال للتفاوض مع النبي ﷺ،وهناك أمـر النبي ﷺبإكـرامهم،وعين «خالـد بن سعيد» قـائماً بشؤون ضيافتهم.

وفي المفاوضـات التي جـرت بين الطرفين، اشترط عليهـم الرسـول ﷺ أن يهدموا الأصنام فرفضـوا أوّل الأمر، ولكنّهـم أطاعوه بالتـالي على أن يقوم أشخاص غرباء ــ ليسوا من قبيلتهم ـ بهدمهـا. كما طلبوا إعفاءهم مـن الصلاة، فقال ﷺ: «لا خير في دين لا صـلاة فيه». ثـمّ وقّع الطـرفان على شروط المعـاهدة التـي تمّت

١. السيرة النبوية: ٢/ ٥٣٠؛ بحار الأنوار: ٢٠/ ٢٥٣.

بينهما، واختار ﷺ منهم عثمان بن أبي العاص[١] الذي حرص على التفقّه في الدين وتعلّم القرآن، فأمّره عليهم وجعله نائباً دينياً وسياسياً عنه في قبيلة ثقيف، وأن يصلي بالناس جماعة، مراعياً أضعفهم: «يا عثمان تجاوز في الصلاة ــ أي خفف الصلاة وأسرع فيها ــ وأقدر الناس بأضعفهم، فإنّ فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة». ثمّ كلّف ﷺ أبا سفيان و المغيرة بن شعبة، للتوجه معهم لهدم الأصنام هناك.[٢]

٦. إعلان البراءة من المشركين في منىٰ

في أواخر هذا العام ـ ٩هـ ـ نزل جبرائيل عليه السلام على النبي ﷺ مع عدّة آيات من سورة البراءة، يطلب أن يتلوها رجل يختاره الرسول ﷺ في موسم الحج. وقد تضمنت الآيات رفع الأمان عن المشركين، وإلغاء جميع العهود ـ إلّا ما التزم بها أصحابها ولم ينقضوها ــ فيبلغ ذلك إلى رؤوس المشركين ليوضحوا موقفهم تجاه الدولة الإسلامية خلال أربعة أشهر، فإذا لم يتركوا ما هم عليه من شرك ووثنية خلال الأربعة أشهر، نزعت عنهم الحصانة ورفع عنهم الأمان. أمّا الدوافع التي كانت وراء صدور هذا العهد: البراءة:

١. كان التقليد السائد عند العرب جاهلياً أن يعطي زائر الكعبة ثوبه الذي يدخل به مكة إلى فقير، ويطوف بثوب آخر، وإذا لم يكن له ثوب آخر، فإنّه يستعيره ليطوف به حول البيت، وإن لم يجد طاف عرياناً بادي السوأة، حتى لو كانت إمرأة، فإنّها تطوف عارية بالبيت على مرأى من الناس، وهو الأمر الذي انطوى

---

١. كان أحدثهم سناً.

٢. السيرة النبويّة: ٢/ ٥٣٧؛ السيرة الحلبية: ٣/ ٢١٦؛ أُسد الغابة: ١/ ٢١٦.

على نتائج سيئة.

٢. كما أنّه بعد انتشار الإسلام و إظهار قوّته في خلال عشرين عاماً، رأى النبي ﷺ أن يستخدم القوّة لضرب كلّ مظاهر الوثنية، على أنّها نوع من العدوان على الحقوق الإلهية والإنسانية، فكان لابدّ من استئصال جذور الفساد باستخدام القوّة العسكرية كآخر وسيلة.

٣. ثمّ إنّ الحجّ كان أكبر العبادات والشعائر الإسلامية، فكان على الرسول ﷺ أن يقوم بتعليم المسلمين مناسك الحجّ على الوجه الصحيح بعيداً عن تأثير أيّ نوع من الشوائب والزوائد، فكان لابدّ من اشتراك النبي ﷺ بنفسه في تعليمهم هذه العبادة بصورة عملية، ولكن بشرط أن تخلو منطقة الحرم ونواحيها من المشركين العابدين للأصنام، ليصبح الحرم الإلهي خالصاً للموحدين والعباد الواقعيين.

٤. والنبي ﷺ لم يحارب لفرض العقيدة لأنّ العقائد لا تخضع لأيّ قهر أو فرض، بل انحصر نضاله في القضاء على مظاهر الاعتقاد بالأوثان، بواسطة هدم بيوت الأصنام.

ولكلّ ذلك فإنّ النبي ﷺ اختار أبا بكر بعد أن علمه تلك الآيات من سورة البراءة، ووجه صوب مكة يرافقه أربعون رجلاً، ليتلوها على مسامع الناس يوم عيد الأضحى، إلاّ أنّ جبرائيل عليه السلام أخبره ﷺ: «إنّه لا يؤدّي عنك إلاّ أنت أو رجل منك» ممّا جعل النبي ﷺ أن يطلب من الإمام علي عليه السلام القيام بهذه المهمة: «إلحق أبا بكر فخذ براءة من يده و إمض بها إلى مكّة و انبذ بها عهد المشركين إليهم، أي إقرأ على الناس الوافدين إلى منىٰ من شتى أنحاء الجزيرة العربية براءة، بما فيها النقاط الأربع التالية:

١. لا يدخل المسجد مشرك.

٢. لا يطوف بالبيت عريان.

٣. لا يحج بعد هذا العام مشرك.

٤. من كان له عهد عند الرسول ﷺ فهو له إلى مدّته، أي يحترم ميثاقه وماله و نفسه إلى يوم انقضاء العهد، ومن لم يكن له عهد ومدّة من المشركين فإلى أربعة أشهر، فإن أخذناه بعد أربعة أشهر قتلناه، ويسري هذا ابتداء من اليوم العاشر من ذي الحجّة. ويعني هذا أنّ هذا الفريق من المشركين، عليه أن يحدد موقفه من الدولة الإسلامية، فإمّا الانضمام إليها وترك مظاهر الشرك، و إمّا القتال.[1]

وقد أدرك الإمام عليه السلام أبا بكر في الجُحفة وأبلغه أوامر النبي ﷺ فأعطاه الآيات، ورجع أبو بكر إلى المدينةمستفسراً عن سبب موقف النبي ﷺ فأخبره بما أمره جبرائيل عليه السلام.

ولم يمض على قراءتها المدّة المعلومة، حتى اعتنق أكثر المشركين الإسلام، فتم بذلك استئصال جذور الوثنية في أواسط السنة ١٠ هـ، ويؤكد هذا الموقف على نيّة النبي ﷺ بالكشف عملياً عن أهلية الإمام علي عليه السلام وصلاحيته للقيام بأمور الدولة في المستقبل.

١. فروع الكافي: ١/ ٣٢٦.

أحداث السنة العاشرة من الهجرة

١ . ورود وفد نجران، و المباهلة

تقع نجران على الحدود بين الحجاز و اليمن، واعتنق أهلها المسيحية، وكان النبي ﷺ قدكتب إلى أُسقف نجران أبو حارثة يدعوه إلى الإسلام أو دفع الجزية، أو الحرب بين الطرفين، فتشاور مع رجاله وشخصيات دينية كان من ضمنهم شرحبيل الذي عرف بالعقل والحكمة والتدبير فقال: قد علمتُ ما وعد الله إبراهيم في ذرّية إسماعيل من النبوّة. ثمّ اتّفقوا على إرسال وفد منهم إلى النبي ﷺ ضمّ ستين شخصاً من أهل العلم بقيادة ثلاثة من أساقفتهم:

ـ أبو حارثة بن علقمة: أسقف نجران الأعظم والممثل الرسمي للكنائس الرومية في الحجاز.

ـ عبد المسيح : رئيس الوفد.

ـ الأيهم: من الشخصيات المقدّرة عندهم.[1]

وحينما وصلوا المدينة ودخلوا المسجد لمقابلة النبي ﷺ في ملابسهم الخاصة من ديباج وحرير وذهب، والصلبان في أعناقهم، انزعج النبي ﷺ لذلك فأخبرهم الإمام علي عليه السلام بأن يضعوا حللهم وخواتيمهم ثمّ يعودوا إليه، فدخلوا من ثمّ

---

١ . السيرة الحلبية:٣/ ٢١١.

على النبي الأكرم ﷺ الذي احترمهم وتقبّل هداياهم، ثمّ طلبوا الإذن بالصلاة ـ أي صلاتهم ـ فأذن لهم ﷺ مدلّلاً بذلك على التسامح الـديني الذي تميز به الرسول الأكرم ﷺ والإسلام.

ثمّ جرت المفـاوضات و المناقشات الدينيـة بينهم و بين النبي ﷺ وخاصة فيما يرتبط بالسيد المسيـح، فأوضح لهم النبي ﷺ ما جاء حولـه مفصلاً في القرآن الكريم، و أنّه بشر وليس إلهاً ولكنّهم لم يرضخـوا لمنطق النبي ودلائله فدعاهم إلى المباهلة بعدما نزلت عليه الآيات: ﴿**فَمَنْ حاجَّكَ فيهِ مِنْ بَعْدِ ماجاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْنـاءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِسـاءَنا وَنِساءَكُـمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُـمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللهِ عَلى الكاذِبين**﴾.[1]

واتّفـق الطرفـان على إجراء المبـاهلة في الصحـراء خارج المدينـة، فاختـار الرسول ﷺ من أهلـه أربعة أشخاص فقط هـم: الإمام علي عليه السلام والسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام والإمامان الحسن و الحسين عليهما السلام فلم يكن غيرهم أطهر نفساً وأقوى وأعمق إيمانـاً. وفي الموعد المحـدد سار النبـي ﷺ إلى الموقع بـأسلوب مميـز، فقد احتضن الإمـام الحسين عليه السلام وأخـذ بيـد الإمـام الحسـن عليه السلام وسـارت السيـدة الزهراء عليها السلام خلفه ، والإمام علي عليه السلام خلفها، وهو يقول: إذا دعوتُ فأمِّنْوا

وكان زعماء الوفـد النجراني قد قرروا أنّـه إذا خرج النبي ﷺ بأهله فقط، لم يباهلـوه فإنّ ذلـك يدل على صـدقه وثقتـه بحالـه، فلما شاهـدوا ذلك بـأنفسهم انـدهشوا لـه، فكيـف خرج النبـي ﷺ بـابنته الـوحيدة وأفـلاذ كبده المعصـومين للمباهلة،فأدركوا أنّه ﷺ واثق مـن نفسه ومـن دعوته، إذ لـو لم يكن كـذلك لما خاطـر بأحبائه ولما عرضهـم للبلاء السماوي، ولهذا قال أُسقف نجـران: يا معشر

---

١. آل عمران: ٦١.

النصارى، إنيّ أرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة. فاتّفقوا بذلك على عدم أداء المباهلة، واستعدادهم لدفع الجزية سنوياً للنبي ﷺ في مقابل قيام الدولة الإسلامية بالدفاع عنهم.

وجاء عن السيدة عائشة: أنّ رسول الله ﷺ خرج يوم المباهلة وعليه مرط ـ كساء ـ مرجّل من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله ثمّ جاء الحسين فأدخله، ثمّ فاطمة ثمّ علي، ثمّ قال: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.[1]

ويؤكد الزمخشري، أنّ ذلك دليل قويّ على فضل أصحاب الكساء، وبرهان على صحّة نبوّة النبي ﷺ.

وأمّا عن وقت حدوث المباهلة، فقد جاء أنّه لا خلاف بين المؤرخين بأنّ كتاب الصلح كتب عام ١٠هـ وفي يوم ٢٥ من شهر ذي الحجّة. ويذكر السيد ابن طاووس أنّه كان يوم ٢٤ وهو الأصح، بينما رأى فريق آخر أنّه كان في يوم ٢١ أو ٢٧ من الشهر نفسه.[2]

وقد جاء عن السيد ابن طاووس قصة المباهلة في كتاب الإقبال بصورة مفصّلة لم ترد في أيّ كتاب آخر، مشيراً بأنّ محتوياته اقتبست من كتابين:

١. كتاب المباهلة لأبي الفضل محمّد بن عبد المطلب الشيباني.[3]

٢. كتاب عمل ذي الحجّة تصنيف الحسن بن إسماعيل بن إشناس.[4]

أما رأينا حول توقيت المباهلة، فإنّ الدراسة العلمية تثبت أنّ الواقعة لم

---

١. الأحزاب:٣٣. ٢. الإقبال:٧٤٣.

٣. يرى النجاشي أنّ له فترتين من الحياة، كان في إحداها موثوقاً به، وفي الأُخرى لم يكن موثوقاً به.

٤. من مشايخ الطائفة الإمامية، توفي ٤٦٠هـ ونقل أحاديث المباهلة.

تحدث في شهر ذي الحجّة عام ١٠هـ، أنّ الرسول ﷺ كان قد توجه إلى مكّة لتعليم مناسك الحجّ في هذه السنة، وفي اليوم ١٨ من هذا الشهر ــ و هو يوم الغدير، نصب علياً عليه السلام في غدير خم[١] خليفة على المسلمين من بعده، ولم تكن حادثة الغدير بالأمر الهيّن حتى يتابع النبي ﷺ سفره فوراً إلى المدينة، إذ أنّه نصب خيمة جلس فيها الإمام علي عليه السلام ليدخل عليه المهنّئون،واستمر ذلك حتى ليلة ١٩ من ذي الحجّة، حيث بدأت أُمّهات المؤمنين في التهنئة عند نهاية المراسيم، فلا يمكن لذلك أن يغادر الرسول ﷺ غدير خم في يوم ١٩، نظراً لوجود الكثير من الحجّاج الذين كانوا يودعون النبي ﷺ في هذه البقعة.

والشواهد التاريخية تؤكد أنّ النظرية المذكورة في توقيت المباهلة لا تحظى بالاعتبار الكافي، فلابدّ لمعرفة زمن الحادثة التي هي من مسلمات القرآن والتفسير والحديث، تحرّي المزيد من التحقيق والدراسة والتقصّي. وأمّا سبب اختيار العلماء للوقت والزمن، فذلك لأنّ الشيخ الطوسي اختاره استناداً إلى روايات نَقَلها في كتابه، مع وجود رجال غير ثقات ضمن سنده.

وتعتبر قصة مباهلة الرسول ﷺ مع وفد نجران من أحداث التاريخ الإسلامي الجميلة و المثيرة، و إن قصّر بعض المفسرين والمؤرخين في رواية تفاصيلها وتحليلها، إلاّ أنّ عدداً من العلماء كالزمخشري في الكشاف، والإمام الفخر الرازي في تفسيره، وابن الأثير في الكامل، تناولوها بدقائقها.[٢]

---

١. تبعد عن الجحفة ميلين، والجحفة على ٦ أميال من البحر الأحمر،وتقرب من رابغ الآن، و٤ أميال من مكة. أمّا بحساب المقاييس الحديثة فهي تبعد عن مكّة ٢٢٠ كم. والميل عبارة عن ٣ آلاف ذراع، والفرسخ يساوي ٩ آلاف ذراع، و قيل إنّ الميل ٤ آلاف ذراع،والفرسخ ١٢ ألف ذراع. و الميل ثلث الفرسخ،والفرسخ يعادل ٣ أميال.

٢. الكشاف: ١/ ٣٨٢؛ مفاتيح الغيب للرازي:٢/ ٤٧١؛ الكامل: ٢/ ١١٢.

كما أنّها وما نزل فيها من القرآن الكريم تعتبر أكبر فضيلة تدعم موقف الشيعة، في الكشف عن مقام ومكانة من باهل بهم رسول الله ﷺ والذين يتخذهم الشيعة أئمّة وقادة لهم، فالآية الكريمة اعتبرت الإمام الحسن والحسين عليهما السلام أبناء للرسول ﷺ والسيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام هي المرأة الوحيدة التي ترتبط بالرسول ﷺ وعبّر عن علي عليه السلام بأنفسنا، فكان بحكم هذه الآية بمنزلة نفس رسول الله ﷺ، أي من حيث الصفات النفسية والمؤهلات الروحية.

٢. وفود القبائل في المدينة

بعد إعلان البراءة من المشركين والوثنيين في موسم حج ٩هـ ارتبكت القبائل فعمدت إلى إيفاد مندوبين عنها إلى عاصمة الإسلام للحوار والتعرف على الدين الجديد والخضوع للدولة الإسلامية. وهو ما يكشف عن أنّه في عام ١٠هـ فَقَد هؤلاء كلَ حصن يمنعهم عن رسول الله ﷺ، إذ لم تنته الفترةُ المقررة لإعلان موقفهم ـ سواء بالرفض أو القبول ـ بعد أربعة أشهر، إلاّ وقد دخَلَت كلّ مناطق الحجاز تحت راية التوحيد، بالإضافة إلى سكان اليمن والبحرين واليمامة.

وقد بعث ﷺ إلى اليمن: معاذ بن جبل لينشر دين التوحيد ويشرح لهم التعاليم فأوصاه قائلاً: «يسّر ولا تعسّر، وبشّر ولا تنفّر» إلاّ أنّ النبي ﷺ رأى أن يرسل الإمام علياً عليه السلام إلى تلك الجهات ليزيل المشكلات التي تعرقل تقدّم الإسلام في تلك الديار. ولكن الإمام عليه السلام تواضَعَ في ذلك وقال: يا رسول الله تبعثُني وأنا شابٌّ أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء ــ أي ما فعلته قبل هذا ـ فضربَ الرسول ﷺ بيده على صدره و قال: «اللّهم اهد قلبه و ثبّت لسانه» ثمّ أوصاه بوصايا أربع هامة قائلاً: «يا علي أُوصيك : بالدعاء فإنّ معه الإجابة،

وبالشكر فإنّ معه المزيد، وإيّاك أن تخفر عهداً أو تعين عليه، وأنهاك عن المكر فإنّه لا يحيق المكر السيّئُ إلاّ بأهله، وأنهاك عن البغي، فإنّه من بُغي عليه لينصرنّه الله».

وفي اليمن دخلت قبيلة همدان كلّها في الإسلام في يوم واحد، حينما قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فكتب الإمام عليه السلام بذلك إلى النبي ﷺ فاستبشر وابتهجَ وخَرَّ ساجداً شكراً لله وقال: «السلام على أهل هَمْدان». وعلى أثر إسلام همدان تتابع أهل اليمن على الإسلام.[1]

وقد حاولت جماعةٌ من القبائل اغتيال النبي ﷺ فقد اتّفق ثلاثة من أفراد قبيلة بني عامر المعروفة بالشر و الطغيان أن يدخلوا المدينة على رأس وفد بني عامر متظاهرين بالتفاوض مع الرسول ﷺ واغتياله غدراً. والثلاثة هم: عامر، أربد، و جبار. وشملت خطتهم أن يتحدث عامر إلى الرسول ﷺ في الوقت الذي يعد فيه أربد لضربه بالسيف، إلاّ أنّ الوضع لم يجرِ كما خُطِّطَ له، فقد هاب أربد النبي ﷺ وانصرف عن نيّته، فغضب عامر و هدّد بمحاربة النبي ﷺ وغادر المجلس بعد أن دعا عليه النبي ﷺ وعلى صاحبه، فاستجاب الله دعاءه سريعاً حيث مات في الطريق بمرض الطاعون، واحترق أربد بصاعقة وهو في الصحراء.

٣. حجّة الوداع

في عام ١٠ هـ أمر اللهُ تعالى نبيّه الكريم ﷺ أن يشارك في مراسم الحجّ، ويعلّم مناسكه للناس، ويوقفهم على واجباتهم في هذه العبادة الكبرى عمليّاً، كما يقوم بإزالة كلّ ما ارتبط بها من زوائد طيلة السنوات الماضية، ويعيّن حدود

---

١. الكامل: ٢/ ٣٠٥؛ بحار الأنوار: ٢١/ ٣٦٠.

عرفات ومنىٰ و يوم الإفاضة منها. ولـذلك فقد تهيّأ عددٌ كبير من المسلمين لمرافقة النبي ﷺ في هذه الرحلة المباركـة، فخرج الرسول ﷺ من المدينة يـوم ٢٦ من ذي القعدة حتى بلغ ذي الحُليفة ـ قرب مسجـد الشجرة ـ فأحرم ودخل الحَرم ملبّياً: «لبيك اللّهـمّ لبيك، لبيـك لا شريك لـك لبيك، إنّ الحَمـدَ والنعمة لـك والملك لبيك، لا شريك لك لبيك» وهو نداء إبراهيم عليه السلام . وكان يكرّر التلبية كلّما شاهد راكباً أو علا مـرتفَعاً من الأرض أو هبط واديـاً، وعندما شارف مكـة قطع التلبية. فدخل مكّة في اليوم الرابع من شهر ذي الحجّة متوجّهاً نحو المسجد الحرام رأساً، ودخله مـن باب بني شيبة وهـو يحمد الله ويثني عليه ويصلّي على إبـراهيم عليه السلام ، فبدأ مـن الحَجَر الأسـود فاستلمـه أوّلاً[١]، ثـمّ طاف سبعـة أشـواط حول الكعبـة المعظمة، ثمّ صلّى ركعتين خلف مقـام إبراهيم عليه السلام ثمّ توجـه نحو الصفا والمروة للسعي بينهما، ثمّ التفت إلى حُجّاج بيت الله الحرام وقال: «من لم يسق منكم هدياً فليحلّ وليجعلهـا عمرة (أي فليقصّر فيحل له مـا حرم عليه الإحرام) ومـن ساق منكم هدياً فليقم على إحرامه».

إلاّ أنّ البعض منهم كره أن يحل إحرامه والنبي ﷺ مُحرم، فأمرهم بتنفيذ ما قال: «لو كنت استقبلت من أمري ما استدبرتُ لفعلتُ كما أمرتكم». أي أنّني لو كنت أعلـم بالمستقبل وعـرفت موقـف الناس المتردد وخـلافهم هذا مـن قبل، لما سقت الهدي، وفعلتُ ما فعلتموه، ولكن ما العمل وقد سُقتُ الهديَ فلا يمكنني الإحـلال مـن الإحرام حتـى يبلـغ الهديُ محلّـه. فمـن الواجـب عليّ أن أبقـى في

١. استلمه يعني مسح الحجر الأسـود باليدين قبل الشروع بالطواف، واستلامـه نوع من تجديد الميثاق مع الخليل إبراهيم عليه السلام والعمل على نصرة عقيـدة التوحيد على نحـو ما فعل إبـراهيم عليه السلام . وقد اعتمر النبي ﷺ في الفترة المدنية مـرّتين، واحدة في عام ٧هـ و الأُخـرى عام ٨ هـ بعد فتـح مكة، فهذه كانت ثالث عمرة له مع الحجّ.

إحرامي، أي أنحر هديي بمنى كما أمر الله سبحانه و تعالى، وأما أنتم فمن لم يسق الهدي منكم فـإنّ عليه أن يحلّ إحـرامه، واحسبوهـا عمرةً ثمّ احـرموا للحـجّ مرّة أُخرى.

وقد كره النبي ﷺ خلال فترة الحجّ أن يمكـث في دار أحد، ولذا فإنّـه كان يأمر بضرب ـ أي بإعداد ـ خيمـة له خارج مكّة. وقصد النبي ﷺ عرفات في اليوم الثامن من ذي الحجّة عن طريق منىٰ التي توقّف فيها إلى طلوع الشمس من اليوم التاسع، فركب بعيره نحو عرفات، ونـزل في خيمة أُعدَّت له في نمرة، وألقى هناك خطاباً تاريخياً هاماً وهو على ناقته، في جموع بلغت ١٠٠ ألف.

وبدأ خطابه قائلاً: «أيّها النّاس اسمعوا قولي واعقلوه، فإنّي لا أدري لعلي لا ألقاكـم بعد عامـي هذا بهذا الموقف أبـداً، أيـّها النّـاس، إنّ دماءَكم وأمـوالكم ـ وأعراضَكم ـ عليكم حرام إلى أن تلقوا ربّكم كحرمـة شهركم هذا وكحرمة بلدكم هذا، وكحرمة يومكم هذا».

وقد ألغى في هذا الخطـاب عادات الثأر الجاهلية المشؤومة بـادئاً بأقربائه، مثل الانتقام، والخيانة، أي أداء الأمانة، والربا، كما استوصى بالنساء خيراً.

«وقد تركـتُ فيكم ما إن اعتصمتم بـه فلن تضلوا أبداً، أمـراً بيناً كتاب الله وسنّة نبيّه. والمسلمُ أخو المسلم، والمسلمون إخـوة، ولا نبي بعدي ولا أُمّة بعدكـم. ألا كلّ شيء من أمر الجاهلية موضوعٌ تحت قدمي».

ثمّ سار بعد الغروب إلى المزدَلَفة، ووقف فيها من الفجر إلى طلوع الشمس، وتوجـه في اليوم العـاشر إلى منى وأدّى مناسكهـا، ثمّ توجـه نحو مكّـة لأداء بقية المناسك.

وكان الإمام علي عليه السلام يومـذاك في اليمن، فعلم بتوجّـه النبي ﷺ إلى مكّة، فخرج مع جنوده للمشاركة في الموسم واصطحب معه شيئاً من بز اليمن وحريرها

أخذها جزية من أهل نجران. وبعد أن أدّى مناسك العمرة، رجع الإمام عليه السلام إلى جنوده حسب ما أمره الرسول ﷺ فوجد أنّ نائبه الذي عينه أثناء غيابه قد وزّع على كلّ فرد منهم حلّة من البز، كان يريد تسليمها إلى النبي ﷺ، فطلب منهم ردّها مع الأشياء الأُخرى من جزية أهل نجران.

٤. الخلافة بعد النبي ﷺ

هل الخلافة منصبٌ تعييني أو انتخابي؟ يرى الشيعة أنّ القيادة منصب تعييني فيه نصٌّ،فلابدّ أن يتعيّن خليفة النبي ﷺ من جانب الله سبحانه و تعالى، بينما يرى أهلُ السنّة أنّها منصب انتخابي جمهوري، أي تقوم الأُمّة هي بعد النبي ﷺ باختيار فرد منهم يتولّى إدارة البلاد. و لكلّ من الاتّجاهين دلائل ذكرها أصحابها في الكتب العقائدية.

إنّ الظروف السائدة في تلك الفترة حتمت بأن يعيّن النبي ﷺ خليفةً له، وذلك لما كان عليه الوضع من تهديد العدو للدولة الإسلامية، فأوجب مواجهة الأخطار الخارجية بتعيين قائدٍ سياسيٍّ يمكنه السيطرة على الوضع، كما أنّ خطر حزب النفاق كان لا يزال له دوره في تقويض دعائم الكيان الإسلامي داخلياً، وقد بيّن دورهم التخريبي وخطرهم الأكيد، القرآن الكريم في عدّة سور.

ولذا فإنّه مع وجود تلك الأخطار الخارجية والداخلية، التي كانت تنتهز الفرص للقضاءعلى الدولة الإسلامية الحديثة، فإنّه كان لابدّ من تعيين قائد ديني سياسي، يمكنه القضاء على ما يظهر من اختلاف وانشقاق بعده ﷺ في المجتمع الإسلامي، ويكون بذلك ضماناً لبقائه واستمراريته.

وبالإضافة إلى تلك الأحوال الاجتماعية والسياسية للمسلمين، فإنّ هناك

روايـات وأخباراً أكـدت صحّة الموقـف والـرأي الذي ذهـب إليه علماء الشيعـة، وثبتت في المصـادر المعتبرة، أنّ النبيّ ﷺ نصّ على خليفته مـراراً، إذ لم ينص على خليفته ووصيه في أواخر حياته فحسب، بل بادر إلى ذلك في بدء الدعوة، وخاصة في الفترة التي أمره فيهـا سبحانه وتعالى بـأن ينذر عشيرته الأقربين ويـدعوهم إلى عقيدة التـوحيد، حينما وقف خطيباً في أربعين رجـلاً من زعماء بني هاشـم:«أيُّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟» فأحجم القوم و قـام علي عليه السلام وأعلن مـؤازرته لـه، فقال الـرسول ﷺ: «إنّ هذا أخـي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا».[1]

وعُرف هذا الحديث بحديث يوم الدار، وحديث بدء الدعوة.

كما أنّ حديث الغديـر يُعدّ من أهمّ الأحداث والوقائع التـي تؤكّد صراحة على خلافته عليه السلام إذ أنّه في الطـريق إلى المدينـة، بلغ مـوكب الحجّ العظيـم رابغ[2] حيث نزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله ﷺ بمنطقة تدعى غدير خم و بلغه الآية التالية: ﴿**يا أَيُّهَـا الرَّسُـول بَلِّغْ مـا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِـنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَـمْ تَفْعَلْ فَمـا بَلَّغْتَ رِسالتهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ**﴾[3] وكان ذلك الأمر هو الإعلان عن خلافة الإمام علي عليه السلام أمام ١٠٠ ألف شاهد.

وقال في خطابه: «إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً، كتابَ الله سببٌ، طرفٌ بيد الله، وطرفٌ بأيديكم، فتمسّكوا به؛ والآخر عترتي، وإن

---

١. تاريخ الطبري:٢/ ٢١٦؛ الكامل في التاريخ:٢/ ٦٢.

٢. تقع الآن على طريق مكة ـ المدينة، وتبعد عن الجحفة ثلاثة أميال، والتي هي من مواقيت الإحرام، وتتشعب منها طرق أهل المدينة ومصر والعراق.

٣. المائدة:٦٧.

اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا». ثمّ رفع يَدَ الإمام علي ﷺ قائلاً: «يا أيّها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال ﷺ: «إنّ الله مولاي و أنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه.[1] اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأحب من أحبّه، و ابغض من أبغضه، وأدر الحقّ معه حيث دار».

وفي الحقيقة إنّنا قلّما نجد حادثةً تاريخية حظيت في العالم في التاريخ الإسلامي والأُمّة الإسلامية بمثل ما حَظِيَت به واقعة الغدير. فقد استقطبت اهتمام فئاتٍ مختلفة من المحدثين والمفسرين والفلاسفة والكتاب والشعراء والأُدباء والخطباء وأرباب السير والتراجم، واعتنوا بها أشدّ الاعتناء. و من أسباب خلودها واستمراريتها، نزول آيتين حولها في القرآن الكريم.[2] كما أنّ المسلمين سابقاً والشيعة بصورة خاصة ، اتّخذوا هذا اليوم عيداً ومناسبةً مفرحةً، جعله خالداً حتّى الآن. فقد كان يوم ١٨ من شهر ذي الحجّة معروفاً بيوم عيد الغدير عندهم، حتى أنّ بعض المؤرخين أرّخوا به بعض الأحداث، كما أنّ أبا ريحان البيروني والثعالبي، اعتبراه من الأعياد الإسلامية.[3]

كما أنّ النبي ﷺ أمر المهاجرين والأنصار، ونساءه بالدخول على الإمام علي ﷺ لتقديم التهنئة له بهذه الفضيلة الكبرى، مثلما ذكر زيد بن أرقم، وأنّ أوّل من صافق النبي ﷺ وعلياً: أبو بكر وعمر و عثمان وطلحة والزبير، وباقي

١. كرر النبي ﷺ هذه العبارة ثلاث مرات دفعاً لأيّ التباس.

٢. المائدة: ٦٧و٣.

٣. وفيات الأعيان: ١/ ٦٠؛ الآثار الباقية: ٣٩٥؛ ثمار القلوب: ٥١١.

المهاجرين والأنصار والناس.

كما أنّ ١١٠ صحابياً تناولوا هذه الواقعة التاريخية الهامة بالرواية والحديث، كما رواه أيضاً ٨٩ تابعياً، و ٣٦٠ شخصاً من علماء أهل الشيعة وفضلائهم، وصحّحه جمع كبير من الآخرين. فقد رواه في القرن ٣هـ: ٩٢ عالماً، وفي القرن ٤هـ: ٤٤ عالماً، إلى القرن ١٤ هـ حيث رواه عشرون عالماً. وألّف الطبري في ذلك كتاباً أسماه:الولاية في طرق حديث الغدير روى فيه الحديث عن النبي ﷺ بـ٥٧ سنداً. كما رواه عدد من علماء الحديث أمثال: ابن حجر العسقلاني، وأبو سعيد السجستاني، والنسائي، وأبو العلاء الهمداني. وبلغ عدد من ألّف رسالة خاصة أو كتاباً مستقلاً حول الواقعة و تفاصيلها ٢٦ شخصاً. أمّا علماء الشيعة فقد تناولوا فيها كتباً و مؤلفات قيّمة، أشملُها الغدير الذي كتبه العلّامة القدير آية الله الشيخ الأميني.[١]

وبعد نزول الآية السابقة، والإجراءات التي أقدم عليها النبي ﷺ نزلت الآية: ﴿اليَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينكُمْ وَأَتْمَمتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً﴾.[٢]

فكبّر النبي ﷺبصوت عال وقال: «الحمد لله على إكمال الدّين، وإتمام النعمة، ورضى الربّ برسالتي، وولاية علي بن أبي طالب بعدي». ثمّ قام حسّان ابن ثابت الأنصاري واستأذن النبي ﷺفي أن ينشد أشعاراً بهذه المناسبة.

---

١. يشتمل على ١١ مجلد في ٦ آلاف صفحة.

٢. المائدة: ٣.

٥. المرتدّون من المتنبّئين

في نهاية عام ١٠هـ قدم نفران من اليمامة وسلّما النبي ﷺ كتاباً من مسيلمة (الكذّاب) يدّعي فيه النبوة ويُشرِك نفسَه مع رسول الإسلام في أمر الرسالة، يريد بذلك أن يعرّف الرسول الكريم ﷺ بنبوته هذه: فإنّي قد أُشركتُ في الأمر معك، وإنّ لنا نصف الأرض، ولقريش نصفُ الأرض، ولكن قريشاً قومٌ يعتدون.[١] فالتفت النبيّ ﷺ إلى رسولي المتنبئ و قال: «أما والله لولا أنّ الرسل لا تُقتل لضربت أعناقكما لأنكما أسلمتما من قبل و قبلتما برسالتي فَلِم اتبعتما هذا الأحمق وتركتما دينكما ؟».

ثمّ كتب ﷺ إليه كتاباً مقتضباً: «بسم الله الرّحمن الرّحيم، من محمّد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب السّلام على من اتّبع الهدى، أمّا بعد فإنّ الأرض لله يورثُها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتّقين».[٢]

كما ادّعى النبوة في نفس الوقت، الأسود بن كعب العنسي، في اليمن، إلاّ أنّ الخلفاء من بعد الرسول ﷺ تمكّنوا من القضاء على تلك الحركات المرتدة، إذ أنّها كانت أوّل أعمال الخلفاء الراشدين.

٦. الأخطار الخارجية

وكان خطرُ الروم أشدَّ الأخطار الخارجية، فاعتبره النبي ﷺ أمراً جدّياً لا يمكن التقليل من شأنه، ولذا فإنّه أعدّ جيشاً كبيراً في(سنة ٨هـ) لمحاربتهم، كما

١. لم يبدأ كتابه باسم الله أو مثل ما كان يفعله المشركون في العهد الجاهلي.

٢.السيرة النبوية:٢/ ٦٠٠.

سار إلى تبوك في (سنة٩هـ)لإظهار قوّة المسلمين أمامهم. ثمّ رأى بعد حجّة الوداع أن يُعدَّ جيشاً من المهاجرين والأنصار، واشترك فيه أشخاصٌ بارزون في الدولة أمثال: أبي بكر وعمر وأبي عبيدة و سعد بن أبي وقاص، وكلّ من هاجر إلى المدينة خاصّة، وأمر بقيادته: أُسامةَ بن زيد، وقال له: «سِر إلى موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيلَ، فقد وليتك هذا الجيش، فاغز صباحاً وشنّ الغارة على أهل أُنبى».[١]

وقد أرادَ النبي ﷺ بتعيين قائد صغير السنّ على هذا الجيش الكبير، أن يؤكّد أساس الكفاءة الشخصية في تولّي المناصب والمسؤوليات، فهي لا ترتبط بالسن والعمر، بل بالكفاءة والمؤهلات المطلوبة.

ولذا فإنّه لم يكن هناك مبررٌ لاعتراض البعض على تولّي قيادته من حيث السنّ وعمر الشباب.[٢]

ذلك أنّ هؤلاء غفلوا عن المصالح و الأهداف التي توخّاها الرسول ﷺ من هذا الإجراء، فقدّروا كلَّ عمل بعقولهم المحدودة، و قايسوها بمقاييسهم الشحصيه، ممّا أثر ذلك في تأخير تحرك الجيش من معسكر الجرف[٣] الذي استقر به أُسامة منتظراً من سيلحق به من المسلمين.

---

١. أنبى، من مناطق البلقاء في سوريا قرب مؤتة بين عسقلان و الرملة.

٢. ذهب بعض إلى أنّه كان في عمر ١٧ سنة، و آخرون بأنّه كان في ١٨ سنة، على أنّهم اتّفقوا على أنّه لم يتجاوز العشرين.

٣. الجرف: على بعد ٣ أميال من المدينة نحو الشام.

٧. مرض النبي ﷺ

وبعد يوم من إعداد الجيش السابق، مَرِض النبي ﷺ بصداع شديد تركه طريحَ الفراش، وهو المرض الذي قضىٰ فيه ﷺ.وقد علم الرسول ﷺ أنّ هناك من تخلّف عن الجيش، ومن يعرقل التوجه إلى موقعه، ومن يطعن في قيادة أُسامة، فغضب لذلك بشدّة وخرج معصّباً جبهته إلى مسجده، يحذرهم من عواقب أعمالهم غير السليمة وخاطبهم بقوله:

«لئن طَعنتم في إمارتي لأُسامة، فقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيمُ الله كان للإمارة خليقاً، وأنّ ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإنّه كان لمن أحبّ الناس إليّ، واستوصُوا به خيراً فإنّه من خياركم».

ونظراً لأهمية هذا الجيش، فإنّ النبي ﷺ كان يقول و هو في الفراش: «جهّزوا جيش أُسامة، لَعَنَ اللهُ من تخلّف عنه».[1]

وفي الوقت الذي استعدّ فيه أُسامة وآخرون من المهاجرين والأنصار للسير نحو الجرف، انتشر بينهم خبرُ تدهورِ صحّة النبي ﷺ ممّاجعلهم يعدلون عن قصدهم حتى يوم الإثنين، إلاّ أنّه ﷺ حثّه على الخروج قائلاً: «اغدُ على بركة الله».[2] فتهيّأ الجيشُ للتحرّك والمغادرة، إلاّ أنّ خبر احتضارالرسول ﷺ جعلهم يعودون إلى المدينة متجاهلين أوامرَ النبي ﷺ.

وقد ذكر المؤرخون أنّ النبي ﷺ خرج في الليلة التي توفّي في صبيحتها، مع الإمام علي ﷺ إلى البقيع مع عدد آخر، فقال لهم: «إنّي أمرت أن استغفر لأهل

١. الملل و النحل:١/ ٢٣؛ طبقات ابن سعد:٢/ ١٩٠.

٢. طبقات ابن سعد:٢/ ١٩٠.

البقيع»، و عندما وصل إلى المكان سلّم على أهل القبور قائلاً:

«السّلامُ عليكم أهل القبور، ليهنئكم ما أصبحتم فيه ممّا أصبح الناس فيه، أقبَلَت الفتن كقِطَع اللّيل المظلم يتبع بعضها بعضاً، يتبع آخرها أوّلها». ثمّ التفت إلى الإمام علي عليه السلام و قال:

«يا علي، إنّي خيّرت بين خزائن الدنيا والخلود فيها أو الجنة، فاخترت لقاء ربّي والجنّة. إنّ جبرائيل كان يعرض عليّ القرآن كلّ سنة مرّة، وقد عرضه عليّ العام مرّتين،ولا أراه إلاّ لحضور أجلي».[1]

٨. وفاة ابنه إبراهيم

وفي هذه السنة، و بعد ١٨ شهراً من ولادته، توفّي إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وآله فحزن عليه. و كان النبي صلى الله عليه وآله قد فَقَد خلال السنوات الماضية، ثلاثة من أولاده: القاسم و الطاهر والطيّب. وثلاثة من بناته: زينب ورقية و أُمّ كلثوم. وبقيت له بنت واحدة هي السيّدة **فاطمة الزهراء** عليها السلام من خديجة عليها السلام.

واعتبر النبيّ صلى الله عليه وآله الحزنَ على الميت رحمةً إذ قال: «إنّما هذا رحمة، ومن لا يرحم لا يُرحَم،ولكن نُهيت عن خمش الوجوه، وشقّ الجيوب، ورنّة الشيطان».[2]

---

١. بحار الأنوار: ٢٢/ ٤٦٦؛طبقات ابن سعد:٢/ ٢٠٤.

٢. السيرة الحلبية:٣/ ٣١٠.

أحداث السنة الحادية عشرة من الهجرة

١. الكتاب الذي لم يكتب

قرر الرسول ﷺ بهدف الحيلولة دون انحراف مسألة الخلافة عن محورها الأصلي، والحيلولة دون ظهور الاختلاف و الافتراق، أن يعزز مكانة علي عليه السلام ويدعم إمارته وخلافته، و أهل بيته، بإثبات ذلك في وثيقة خالدة تضمن بقاء الخلافة في خطها الصحيح.

ففي خلال زيارة بعض الصحابة له أثناء مرضه قال: «إئتوني بدواة وصحيفة، أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده». فبادر عمر قائلاً: إنّ رسول الله قد غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله.[1] فكثر اللغَط والنقاش حول إحضار ما طلبه النبي ﷺ أو عدمه، ممّا أغضب النبي ﷺ فقال. «قوموا عنّي لا ينبغي عندي التنازع»، وقال ابن عباس: الرزية كلّ الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله.[2]

وقد نَقَل هذه الواقعة فريقٌ كبيرٌ من محدّثي الشيعة والسنة ومؤرخيهم، وتُعتَبر من الروايات الصحيحة. وإذا سأل أحد عن عدم إصرار النبي ﷺ على كتابة ذلك الكتاب، فذلك لأنّه ﷺ إذا أصرّ على موقفه، لأصرّ هؤلاء في الإساءة

---

١. الملل والنحل: ١/ ٢٢.

٢. صحيح البخاري: ١/ ٢٢؛ صحيح مسلم: ٢/ ١٤؛ مسند أحمد: ١/ ٣٢٥.

إلى النبي ﷺ وخاصة أنّهم قالوا عنه، أنّه غلبه الوَجَع أو هجر، ثمّ قيامهم بعد ذلك بإشاعة الأمر بين الناس.

وقد روى ابن حجر العسقلاني، أنّ النبي ﷺ قال لأصحابه وقد امتلأت بهم الحجرة وهو في مرضه: «أيّها الناس يوشك أن أُقبضَ سريعاً فينطلق بي، وقد قدمت إليكم القولَ معذرةً إليكم، إلاّ أنّي مخلفٌ فيكم كتابَ الله ربّي عزّوجلّ وعترتي أهل بيتي».

ثمّ أخذ بيد علي عليه السلام وقال :«هذا عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ، خليفتان نصيران لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض فاسألهما ماذا خلفت فيهما».[1]

ومن الواضح أنّ النبي ﷺ لفت الأنظار إلى حديث الثقلين مرّة أُخرى، برغم ما ذكره في مواضع متعدّدة، حتّى يؤكد أهمية الثَّقلين، وتدارك ما فات من كتابة الكتاب الذي لم يوفّق لكتابته.

وفي هذه اللحظات، طلب بعضاً من الدنانير كان قد وضعها عند إحدى زوجاته، وأمر علياً عليه السلام ليتصدّق بها.

وكان النبي ﷺ قد سُقي دواءً خطأً في علاجه،فقد تخيلت «أسماء بنت عميس» أنّ مرضَه ـ ذات الجنب ـ تعلمت علاجه من عقار مركب من نبات وأعشاب من الحبشة، إلاّ أنّ النبيّ ﷺ لما عَلِمَ بالدواء، ذكر بأنّ مرضه ليس ذات الجنب.

٢. اللحظات الأخيرة

في هذه الفترة الحرجة، كانت السيدة الزهراء عليها السلام تلازم فراش والدها ﷺ لا

---

١. الصواعق المحرقة ، : ٥٧، باب ٩؛ كشف الغمّة: ٤٣.

تفارقه لحظـة، وفجأة طلب منها أن تقـرب رأسها إلى فمه ليحدّثهـا، فراح يكلّمها بصوت خفيفٍ لم يُعرَف،ولكن الزهراء عليها السلام بكت بشدّة، إلاّ أنّ النبي ﷺ أشار إليها مرّة أُخرى فحدّثها بشيء آخر، فرحت به وتبسمت مستبشرة. ولم تكشف عن ذلك إلاّ بعد وفاة النبي ﷺ بناء على إصرار عائشة: «أخبرني رسول الله ﷺ أنّه قد حضر أجلُه وأنّــه يُقبَـض في وجعــه، فبكيـت، ثــمّ أخبرني أنّي أوّل أهلـه لحوقـاً بـه فضحكت».[1]

وفي آخر لحظة من حياتـه الشريفة طلبَ الإمام عليّاً عليه السلام قائلاً: «أُدعوا لي أخي». فعرف الجميع بأنَّه يريد عليّاً عليه السلام فدعَوا له عليّاً، فقال له: «أُدن منّي فدنا منه، فاستند إليه فلم يزل مستنداً إليه يكلّمه».[2]

وسأل رجل ابن عبـاس: هل توفّي رسول الله ﷺ في حِجر أحد؟ قال: توفّي وهو مستند إلى صدر عليّ،وهو الذي غسَّله وأخي الفضلُ بن عباس.

وقيل إنّ آخر جملة نطـق بها الرسول ﷺ هي:«لا، إلى الرفيق الأعلى». فكأنّ ملك الموت خيّره عند قبـض روحه الشريفة في أن يصح من مرضـه أو يلبّي دعوة ربّه، فاختار اللحاق بربّه.

وسأل كعب الأحبار عن آخر كلمة قالها الرسول ﷺ فقال الإمام علي عليه السلام: أنّه قال: الصلاة الصلاة.

وقد ترك الـدنيا ﷺ يـوم الإثنين ٢٨ صفـر، فَسُجّــي ببرد يماني، ووُضــع في حجرتـه بعض الوقت، وارتفعــت صرخات العيال، وعلا بكـاء الأقارب، وانتشر نبأ وفاته في كلّ أنحاء المدينة التي تحولت إلى مأتم كبير.

وقام الإمام علي عليه السلام بغسل جسـده الشريـف وكفّنه، إذ أنّـه كان قـد ذكر:

---

١. طبقات ابن سعد:٢/ ٢٦٣؛ الكامل في التاريخ: ٢/ ٢١٩.

«يغسّلني أقربُ الناس إليّ». وصلّى عليه مع المسلمين، وتقرر دفنُه في حجرته المباركة. وحفر قبره أبو عبيدة بن الجراح وزيد بن سهل، ودفنه الإمام علي عليه السلام يساعده الفضل بن العباس.

و لمّا فرغ الإمام عليه السلام من غسله صلى الله عليه وآله كشف الإزار عن وجهه صلى الله عليه وآله وقال والدموع تنهمر من عينيه: بأبي أنت و أُمّي، طبتَ حيّاً وطبتَ ميّتاً، انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت أحد ممّن سواك من النبوة والأنباء. ولولا أنّك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع، لأنفدنا عليك ماءَ الشؤون، ولكان الداءُ مماطلاً، والكمَدُ محالِفاً وقلاّ لك، ولكنّه ما لا يُملَك ردّه ولا يستطاع دفعه! بأبي أنت و أُمّي أُذكرنا عند ربّك واجعلنا من بالك».[1]

وهكذا غربت شمس أعظم شخصية غيّرت مسار التاريخ البشري بتضحياته الكبرى وجهوده المضنية، وأعظم رسولٍ إلهي فتح أمام الإنسانية صفحات جديدة ومشرقة من الحضارة والمدنية.

ومن هنا فإنّنا نختم حديثنا هذا بالشكر لله تعالى على هذه النعمة الكبرى، والحمد لله ربّ العالمين.[2]

جعفر السبحاني

قم المقدّسة الحوزة العلمية

شعبان المعظم ١٣٩٠هـ

---

١. نهج البلاغة: خطبة رقم ٢٣٥.

٢. تمّ تدوين هذه المحاضرات وتوثيقها وتحقيقها في شهر شعبان المعظم عام ١٤٠٩هـ في مدينة قم. جعفر الهادي.

الفصل العاشر

حكايات وروايات مؤثرة

جاء ذكرها في الكتاب

العادات و التقاليد

في جزيرة العرب قبل الإسلام

وأد البنات

متى بدأت عادة وأد البنـات؟ وقد تأكّد أنّ بني تميم هـي أوّل قبيلة أقدمت على هذه الجريمة النكراء، حينما امتنعوا عن دفع الضرائب لمَلِكِ الحيرة النعمان بن المنذر، فحاربهم واستولى على أموالهم ونسائهم، فكلّموه في إرجاع نسائهم،فقرر أن تختـار المرأةُ نفسهـا العودة أو البقـاء، فـاختـار بعضهـن البقاء وعـدم العـودة إلى أهاليهن،وخاصة بنـت قيس بن عاصم الذي نذر أن يدسّ كلَّ بنـت تُولد له منذ ذلك الوقت. فسنّ بذلك لقومه وأد البنات، وأخذتها بقية القبائل.

وقد سأل النبيّ ﷺ قيساً عن عدد البنات اللائي وأدهن في الجاهلية فقال: اثنتا عشرة بنتاً له، بل قيل أكثر من ذلك!!

وروى عن ابن عباس، أنّ الحامل إذا قربت ولادتها حفرت حفرةً فمخضت رأسها فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة، و إذا كان ولداً حبسته!!

موقف النبي ﷺ من الخرافات التي سادت الجزيرة العربية

كافَح الرسول ﷺ الخرافات والأساطير والأفكار الفاسدة الباطلة، فلمّا مات

إبراهيم ابنه ﷺحزن عليه و بكى بشدّة، في الوقت الذي حدث كسوف للشمس، فذهب المولعون بالخرافات على عادتهم إلى ربط هذه الظاهرة بموت إبراهيم، على أنّه دليل على عظمة المصاب، فقالوا: انكسَفَت الشمس لموت إبراهيم ابنِ رسول الله ﷺ، إلاّ أنّه ﷺصعد المنبر فقال: «أيّها النّاس إنّ الشمسَ والقمر آيتان من آيات الله يَجريان بأمره ومطيعان له لا ينكسفان لموتِ أحد ولا لحياته، فإذا انكسفا أو أحدهما صلّوا».

ثمّ نزل فصلّى صلاة الكسوف وهي صلاة الآيات.[1]

الحالة الاجتماعية في إيران الساسانية

يذكر الشاعر الفارسي: الفردوسي قصة وقعت في العهد الذهبي للدولة الساسانية، تتناول التعليم، وخاصّة ما يتعلّق بتعليم الفقراء و حرمانهم من اكتساب الثقافة، فقد وصل الحال السيّء للدولة أن رغبت في أموال كثيرة تكفي نفقات الحروب المستمرة، لإعداد ٣٠٠ ألف مقاتل، فاستدعى الملك أنوشروان وزيره بزرجمهر يطلب مساعدته في توفير المال اللازم، فاقترح عليه بتحصيلها عن طريق القروض الشعبية، فأرسل مندوبيه إلى المدن الإيرانية لتحصيل المال اللازم من التجار وأصحاب الثروة، وظهر من بينهم رجل حذّاء أبدى استعداده لتحمّل نفقات الجيش بمفرده، بشرط السماح لولده بتحصيل العلم، إلاّ أنّ الملك غضب على الوزير ونهره قائلاً: دع هذا، ما أسوأ ما تطلبه، إنّ هذا لا يكون، لأنّ ابن الحذّاء بخروجه من وضعه الطبقي يهدم التقليد الطبقي المتّبع فينفرط عقد الدولة، ويكون ضررُ هذا المال علينا أكثر من نفعه، وشرّه أكثر من خيره.

١. بحار الأنوار: ٩١/ ١٥٥.

ويستمر الفردوسي في شرحه لهذا الوضع عن لسان أنوشروان: إذا أصبح ابن الحذّاء عالماً وكاتباً، فإنّه عندما يجلس ولدُنا في الحكم واحتاج إلى كاتب فإنّه سيضطر إلى تعيين ذلك الولد، وهو من عامة الشعب ومن أبناء الطبقة الدنيا، في حين جرت العادة أن نستعين بأبناء الأشراف والنبلاء. وإذا حصل هذا الحذّاء على العلم والمعرفة حصل على عيون بصيرة، وآذان سميعة، فيرى ما يجب ألاّ يراه،ويسمع ما يجب ألاّ يسمعه، فتحدث الحسرة والأسف لأبناء الملوك بعدئذ!!

وبذا فإنّ الملك رفَضَ طلبه وأعاد ماله إليه. وهذا الملك هو ما يصفه البعض بالعدل «أنوشروان العادل» مع أنّه لم يحل المشكلة الثقافية في مجتمعه، كما ذكر عنه، أنّه دفن في القبور أحياء ما يقرب من ٨٠ ألفاً ومائة ألف فرد، خلال فتنة مزدك، التي اندلعت بسبب الظلم الاجتماعي والتمايز الطبقي واحتكار الثروات والمناصب، وحرمان أكثرية الشعب من حقوقها الأوّلية.

ومن هنا يظهر بطلان الحديث المروي عن النبي ﷺ:«وُلدتُ في زمن الملك العادل أنو شروان».

وقد ذُكر الكثير عن البذخ والترف في البلاط الساساني، من كثرة المجوهرات والأشياء الثمينة والرسوم، سَحرت العيون وخلبت الألباب. وممّا اشتهر منها، سجادة بيضاء كبيرة فرشت في إحدى الصالات، واسمها: بهارستان كسرى، إذاجلسوا عليها وقت الشراب وتعاطي الخمر، فكأنّهم كانوا جالسين في حدائق ورياض. صنعت أرضيتها من الذهب و وشيها بفصوص وجواهر وحرير، وكانت ٦٠×٦٠ ذراعاً، وقيل ١٥٠×٧٠ ذراعاً، ومنسوجة من خيوط الذهب والمجوهرات الغالية!!

وممّا قيل عن كسرى خسرو برويز، أنّه جمع الأموال مالم يجمع مثله من

الملوك، إذ كان أرغب الناس في اقتناء الجواهر واللآلئ و الأواني.

حفر زمزم

نَزَلت عندها قبيلة جُرهم التي رأست مكّة لسنين طويلة، وتستفيد من مياه العين. إلاّ أنّه بعـد تفشي المفاسد والشهوات فقـد جفّت العين. وعندمـا هددت خزاعة جرهـم، أمر زعيمهم بإلقاء الغزالين الذهبين والسيـوف الغالية المهداة إلى الكعبة، في مقر زمزم و ملئهـا بالتراب، حتى لا يستولي عليها خصومُـه، ومتى عاد إلى مكّة استخـرج الكنز واستفاد منه. إلاّ أنّ قتـالاً نشب بين الطرفين، فـاضطرت جرهم وأبناء إسماعيل مغادرة مكة إلى اليمن دون الـرجوع إليها ثانية، فتزعم مكة: خزاعة، ثـمّ سيطر عليها قصيّ بن كلاب، حتـى عبد المطلب الذي تـرأسها وقرر حفر بئر زمزم، التي لم يُعرَف موقعها إلاّ بعـد بحث طويل، كما أنّ الآخرين رَفَضوا انفراده بالحفـر، طالبين الاشتراك معه في ذلك، ليحصلوا على الفَخر مثلـه فقالوا: إنّها بئر أبينا إسماعيـل، وإنّ لنا فيها حقّاً فأشركنا معـك، إلاّ أنّ عبد المطلب أصر على أن ينفرد في ذلك، حتـى يمكنه بعد ذلك أن يسبّـل ماءها فيسقي منهـا جميع الحجاج دون أن يتاجر بها.

ولما طال النـزاع بينهم قرروا التحـاكم إلى كاهـن من العرب سكـن ما بين الحجاز والشـام. وفي الطريـق أصابهم عطـشٌ شديـدٌ وأيقنوا بـالهلاك، ففكروا في كيفية دفنهـم إذا هَلكوا وماتـوا، فاقترح عبد المطلـب أن يحفر كلّ واحـد حفيرته، فإذا مـات دفنهُ الآخرون، فـلا تبقى أجسادُهـم طعمة للـوحوش والطيور. فقـاموا بذلك وانتظروا الموت. إلاّ أنّ عبد المطلب صاح فجأة يحثهم على البحث عن الماء في الصحراء بصـورة جماعية، ممّـا كان له الأثـر في ظهور عين عـذبة أنقـذتهم من الموت المحقق، فعادوا من حيث جاءوا وقالوا لعبد المطلب:

«والله قضى لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً، إنّ الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً».

وخلال الحفر عثر على الغزالين والسيوف المرصّعة، ممّا سبّب نزاعاً آخر بينه و بين قريش، التي اعتبرت نفسها شريكةً في هذا الكنز. فتقرر اللجوءُ إلى القرعة لحلّ المشكلة، فخرجت القرعةُ باسم عبد المطلب، فأصبَحت الأشياء إليه، فصنع من السيوف باباً للكعبة، وعلّق الغزالين فيها.

الوفاء بالعهد والنذر[١]

نذر عبد المطلب إذا رزقه الله عشرة أولاد، أن يقدّم أحدهم قرباناً للكعبة دون أن يخبر أحداً بذلك، وقد حصل ما أراد، فكان لابدّ من الوفاء بالنذر، فشاور أبناءَه بالأمر فوافَقوا على أن يختار أحدَهم للذبح عن طريق القرعة. وتمت القرعة فأصابت عبد الله والد الرسول الأكرم ﷺ فأخذه إلى مكان الذبح. و حينما علمت قريش بذلك، حَزِنوا وبكوا وخاصة الشباب منهم، فاقترحوا أن يفدى عبدالله، وأظهروا استعدادهم لدفع الفدية إذا جاز لك. وبعد أن تحيّر في هذا الموقف الصعب، اقترح عليه أحدُهم: لا تفعل وانطلق إلى أحد كهنة العرب عسى أن يجد لك حلاً. فوافقوا على ذلك. فتوجهوا نحو يثرب لملاقاة الكاهن الذي سألهم: كم ديةُ المرء عندكم؟ قالوا: عشرة من الإبل. فقال: ارجعوا إلى بلادكم وقرّبوا عشراً من الإبل واضربوا عليها وعلى صاحبكم ــ أي عبد الله ـ القداح، فإن خرجتِ

١. القصة جديرة بالاهتمام، في أنّها تجسد مدى إيمان عبد المطلب وقوة عزمه وصلابة إرادته و إصراره على الوفاء بعهده والالتزام به.

القرعة على صاحبكم فزيدوا عشراً حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل، فانحروها فقد رضى ربّكم ونجا صاحبكم وكانت عنه فداءً.

فأجروا القرعةَ في مكّة في جماعة من الناس،وزادوا عشراً عشراًحتى إذا بَلَغَ عدد الإبل مائة خرجت القِداح على الإبل ونجا عبد الله من الذبح، ففرحوا ونحرت الإبل.[١]

قضايا عجيبة في فترة طفولة النبي ﷺ

أرادت حليمة السعدية أن ترضع النبي ﷺ في حضور أُمّه، ففتحت جيبها وأخرجت ثديها الأيسر، ووضعت الرسول ﷺ في حجرها لترضعه، فترك النبي ﷺ ثديها الأيسر ومال إلى الثدي الأيمن الذي كان جهاماً ـ أي خالياً من اللبن و لم يكن يدرّ به ـ فغيّرت الثدي إلى فمه، خوفاً من ألا يجد فيه النبي ﷺ شيئاً فلا يأخذ بعده الأيسر، ولكن النبي ﷺ أصرّ على مصّ الثدي الأيمن، ولما استلمه امتلأ وانفتح، فأدهش الجميع.

وتذكر حليمة أيضاً تلك البركة التي لحقتها وقومها بسبب النبي ﷺ قائلة: إنّ البوادي أجدبت وحملنا الجهد على دخول البلد، فدخلتُ مكّة مع نساء بني سعد، فأخذتُ رسول الله ﷺ فعرفنا به البركة والزيادة في معاشنا حتى أثرينا وكثرت مواشينا وأموالنا.

وقد احترمها النبي ﷺ وأجلّها بعد سنوات عندما كبر، وحينما قدمت إليه في سنوات الجدب والقحط تزوره، احترمها وأكرمها وفَرَش رداءه تحت قدميها،

---

١. نقل عن النبي ﷺ قوله:« أنا ابن الذبيحين». الأوّل: إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، والثاني: أبوه. بحار الأنوار: ١٢/ ١٢٣.

واصغى لها.

ولما شكت حالها وهلاك مواشيها، طلب ﷺ من السيدة خديجة عليها السلام أن تعطيها بعيراً و ٤٠ شاة، فانصرفت مسرورةً.

وقيل، أنّها جاءته مرّة فلما دخلت عليه قال ﷺ: «أُمّي أُمّي».[١]

رأي قريش في القرآن

كان القرآن من أكبر وأقوى أسلحة النبي ﷺ في إخضاع أساتذة الفصاحة والبلاغة أمام حلاوة كلماته وعباراته القوية، فاعترفوا بأنّ حديثه لم يعرفه البشرُ من قبل ولم يعهد له التاريخ الإنساني نظيراً. وربما أدت جاذبيته وتأثير حديثه إلى انهيار قوّة الأعداء. ومن تلك النماذج:

الوليد بن المغيرة، الذي كانت العرب ترجع إليه في حلّ مشكلاتهم، فطلبوا رأيه في حلّ مشكلة قوّة انتشار الإسلام، والقرآن، هل هو سحرٌ أم كهانةٌ أم حديث إنسان؟ فجاء إلى النبي ﷺ وقال: أنشدني شعرك. فقال ﷺ: «ما هو بشعرٍ ولكنّه كلام الله الذي بعث أنبياءه ورسله». وقرأ عليه سورة «الرحمن» فاستهزأ وقال: ندعو إلى رجل باليمامه يسمى الرحمان. قال ﷺ: «لا ولكنّي أدعوا إلى الله وحده الرحمن الرحيم». ثمّ افتتح سورة حم السجدة وبلغ إلى قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود**﴾ فاقشعر جلدُه ، وقامت كلّ شعرة في رأسه ولحيته، فمضى إلى بيته ولم يرجع إلى قريش.

فقالت قريش: يا أبا الحكم صبا أبو عبد شمس إلى دين محمّد، أما تراه لم يرجع إلينا و قبل قوله ومضى إلى منزله. فاغتمت قريش وسار إليه أبوجهل قائلاً:

---

١. وتنسب حليمة إلى سعد بن بكر بن هوازن. وهي ابنة أبي ذؤيب،وزوجها الحارث بن عبد العزى.

يا عمّ نكسّت رؤسَنا وفضحتنا، صبوتَ إلى دين محمّد؟ فقال: ما صبوتُ وإنّي على دين قومي وآبائي، ولكنّي سمعت كلاماً صعباً تقشعرّ منه الجلود. فقال أبو جهل: أشعرٌ هو؟

ـ ما هو بشعر.

ـ فخطب هي؟

ـ لا و إن الخُطَب كلام متصل. وهذا الكـلام منثورٌ لا يشبه بعضه بعضاً... له حلاوة.

ـ فما هو؟ قال: قولوا، هوسحر فإنّه آخذ بقلوب الناس.

فأنزل الله سبحانه و تعالى فيه: ﴿**ذَرْني وَمَنْ خَلقت وَحيداً ...**﴾ .[1]

كما حاول عتبة بـن ربيعة وهو من كبراء قريش وأشرافهـا أن يثني النبي ﷺ عن الجهر بدينه، فكلّمـه وطمّعه في المال و الجاه والشرف، فأسمعه ﷺآياتٍ من سورة فصّلت: ﴿**بِسمِ الله الـرَّحمن الرّحيـم: حٰم* تَنْزِيلٌ مِـنَ الرَّحْمٰنِ الـرَّحيمِ* كِتابٌ فُصِّلَت آياتُهُ قُـرآناً عَربيّاً لِقَومٍ يَعْلَمُونَ* بَشيراً وَنَذِيراً فَـأَعرَضَ أَكْثَرهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُون* وَقالُوا قُلُوبُنا في أَكِنَّةٍ مِمّا تَدْعُونا إليه**﴾[2]. فسمع وبقي صامتاًحتى انتهى النبي ﷺ ،فقام إلى أصحابه وقد تغيّرت ملامحه، فقال بعضهم: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

فقالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثله قط. والله ما هو بالشعـر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريـش أطيعوني واجعلوها بي وخلوّا بين هذا الرجل و بين ما هو فيه فاعتـزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله هذا الذي

---

١. المدثر:١١ـ٣٠.

٢. فصّلت:١ـ٥.

سمعت نبأ عظيم. فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم. و إن يَظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزّكم وكنتم أسعد الناس به.

فانزعجوا وقالوا: سَحَرَكَ والله بلسانه. فقال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.

لماذا عارضت قريش النبي ﷺ وعاندته؟

١. حسدهم للنبي ﷺ، فقد تمنّوا أن يكونوا هم أصحاب هذا المنصب والمنزلة، إذ جاء في تفسير قوله تعالى: **﴿وقالُوا لَولا نُزِّلَ هذا القُرآنُ علىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتيْنِ عَظِيمٍ﴾**[1] أنّه: الوليد بن المغيرة، الذي قال: أينزلُ على محمّد وأترك وأنا كبير قريش و سيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين.

وكذلك أُمّية بن أبي الصلت قال نفس الشيء وتمنّى أن ينال هذا المقام، فلم يتبع النبيّ ﷺ إلى آخر حياته.

٢. انغماسهم وحبّهم للشهوات، حيث كانوا أصحاب لَعْب ولهوٍ وفسق ومُجون، دون أن يقيّدهم في ذلك أيّ أمر، ممّا جعل دعوة النبي ﷺ مخالفةَ لعاداتهم القديمة.

٣. الخوف من عقوبات اليوم الآخر، إذ كانت تحدث ضجةٌ كبرى في أوساطهم، فيهدم مجالسَ لهوهم وأنسهم، فحاربوه حتى لا يسمعوا تهديده ووعيده، كالآيات:

﴿فَإِذا جاءَتِ الصّاخَّةُ* يوم يَفِرُّ المَرءُ مِنْ أَخِيهِ* وَأُمّهِ وَأَبيه* وصاحِبَتِه

---

١. الزخرف: ٣١.

وَبَنِيه* لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه﴾ .[١]

٤. الخوف من القبائل المشركة، فقد ذكر «الحارث بن نوفل بن عبد مناف» للرسول ﷺ إنّا لنعلم أنّ قولك حق، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا، إن تركنا الوثنية التي تدين بها، ويعتبروننا سدنة لأوثانها، ولا طاقة لنا بها.

عبس و تولّى

رأى النبي ﷺ أنّ إسلام أحد الزعماء وكبار القوم يحل الكثير من المشاكل، ممّا جعله يصرّ على أن يجر الوليد بن المغيرة والد خالد، إلى الإسلام، إذ كان أكبر سناً في قريش، وأكثرهم نفوذاً وشخصية، حيث دُعي حكيم العرب. فكلّمه النبي ﷺ ذات يوم طامعاً في إسلامه، وفي الأثناء جاء ابنُ أُمّ مكتوم وهو رجل من المسلمين وكان أعمى يكلّم الرسول ﷺ ويستقرئه القرآن، فشقّ ذلك منه على رسول الله ﷺ حتى أضجره، لأنّه شغله عمّا كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه، فنزل قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى* أَنْ جاءَهُ الأَعْمى ... ﴾ .

إلاّ أنّ علماء الشيعة فنّدوا هذه الرواية التاريخية واستبعدوا صدور مثل هذا السلوك عن الرسول ﷺ الذي امتدحه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، وأنّه ليس فيه ما يدل أنّ الذي عبس و تولّى هو الرسول ﷺ. وقد روى الإمام الصادق عليه السلام أنّ المراد به رجل من بني أُميّة عبس و تولّى، عندما حضر ابن أُمّ

---

١. عبس: ٣٣ـ ٣٧.

مكتوم الأعمى، عند النبي ﷺ فنزلت الآيات توبيخاً له.

أُسطورة الغرانيق

قيل إنّ الأسود بـن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأُميّة بـن خلف، والعاص ابن وائل، قالوا للرسول ﷺ: يا محمّد هلـمّ فلنعبد ما تعبد وتعبـد ما نعبد فنشترك نحن و أنت في الأمر. فأنزل الله تعالى: ﴿لاٰ أَعْبُدُ ما تَعْبُدُون* وَلاٰ أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُد﴾.[١]

ومع ذلك فإنّ النبي ﷺ رغب في أن يساوم قريشاً ويجاريهم، فقال في نفسه: ليت نزل في ذلك أمرٌ يقرّبنا من قريش. وبينما كان ﷺ يتلوا القرآن في الكعبة، فبلغ قوله تعالى مـن سورة النجم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الـلاّتَ وَالعُزّى* وَمَناةَ الثّالثَـةَ الأُخرىٰ﴾ [٢] أجرى الشيطان على لسانه الجملتين الآتيتين: «تلك الغـرانيق العُلى منها الشفاعة تُرتَجى». فقرأهما من دون اختيار، ثمّ قرأ بعـدها من الآيات. ولما بلغ آية السجدة، سَجَد هـو و من حضر مـن المسلمين و المشركين أمام الأصنـام، إلاّ الوليـد الذي عاقه كِبـَرُ سنّه عن السجود، ففـرح المشركون وارتفعت صيحاتهم: لقد ذَكَر محمّد آلهتنا بخير. فانتشر الخبر بالتقـارب والمصالحة بين الرسول ﷺ والمشركين، ولكنّهم عرفوا بأنّ الأمـر تغيّر ثانية، حيث نزل مَلَكُ الـوحي على النبي ﷺ وأمره بمخالفة الأصنام ومجاهدة الكفّار، وأنّ الشيطان هو الذي أجرى تلك الكلمات على لسانه، فهي ليس مـن الوحي في شيء أبداً. فنـزلت الآيات في ذلك مـن سورة الحجّ ٥٢ـ ٥٤: ﴿وَما أَرْسَلْنـا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رَسُـولٍ وَلاٰ نَبِيٍّ إِلاّ إِذا تَمنّـىٰ أَلْقَى الشَّيْطـانُ في أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ وَاللهُ عَليمٌ حَكيمٌ ... ﴾.

---

١. الكافرون: ٢ ـ ٣.   ٢. النجم: ١٩ ـ ٢٠.

هذه الأُسطـورة نقلها الطبري في تاريخه، وردّدهـا المستشرقون، وهي بـاطلة تماماً، فالعقـل يحكم بأنّ المرشدين الـذين يبعثهم الله تعالى إلى البشريـة، مصونون مـن أي خطأ وزلـل، حتى لا تـزول ثقة النـاس بهم وبـأفكارهـم. والقرآن شهـد ببطلانها أيضاً فكيف تمكّن الشيطانُ من الانتصار على النبيّ ﷺ وسرّب إلى القرآن شيئاً باطـلاً؟ فيصبح القـرآن الذي يعـادي الوثنيـة ويحاربها، داعياً إلى عبـادتها. والقرآن يؤكّد: ﴿ **إنّ عِبادِي لَيْسَ لَـكَ عَلَيْهِمْ سُلْطان**﴾[1]، ﴿**إِنَّه لَيْسَ لَـهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾.[2]

ولذا فإنّ الحديث باطل لم ينطق به النبي ﷺ.

لمحات من تضحيات وحبّ أبي طالب للنبيﷺ

اجتمـع أسيادُ قـريش وأشرافهـا في بيت أبي طـالب للتحـدّث عن رسـول الله ﷺ الذي كان متواجداً معهم، وعن دينه والمشكلات السائدة في مكة، ومحاولة إبعاد النبي ﷺ عن دعـوته، ولكنّهـم يئسوا في الحصـول على أيّة نتيجـة مرضيـة، فتركوا بيت أبي طـالـب غاضبين مهدديـن، وقال عقبة بن أبي معيـط: لا نعود إليه أبداً، وما خير من أن نغتال محمّداً.

فَغَضِبَ أبو طالب دون أن يرد عليهم بشيء لأنّهم كانوا في بيته. وحدث أنّ النبي ﷺ خرج من بيته في نفـس اليوم ولم يعد، فجمع أبو طالـب الفتيان من بني هاشـم و بني المطلـب، وطلب منهـم أن يتبعوه إلى المسجـد، ويجلس كـلُّ واحد منهم إلى عظيـم من عظمائهم. فجـاء زيد بـن حارثة وسـأله أبو طـالـب: يـا زيد

١. الحجر:٤٢.
٢. النحل:٩٩.

أحسستَ ابن أخي؟ قال: نعم كنت معه آنفاً. فقال أبو طالب :لا أدخلُ بيتي أبداً حتى أراه. فخرج زيد سريعاً إلى بيت عند الصفا فيه النبي ﷺ مع أصحابه وأخبره، فجاء النبي ﷺ إلى أبي طالب، فقال له: أين كنت؟ أكنتَ في خير؟ قال: «نعم». قال: أدخل بيتك.

وفي الغد خرج أبو طالب ومعه النبي ﷺ إلى أندية قريش و قال: يا معشر قريش هل تدرون ما هممت به؟ قالوا: لا. فقال للفتيان من بني هاشم و بني المطلب: إكشفوا عمّا في أيديكم. فكشفوا فإذا كلُّ رجل منهم معه حديدة صارمة. فقال: والله لو قتلتموه ما بقّيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن و أنتم. فانكسر القوم، و كان أبو جهل أشدّهم انكساراً وخيبة.

تخطيط النبي ﷺ العسكري يوم بدر

يُعتبر الحصول على المعلومات حول العدو، ومعرفة أسراره العسكرية ومدى استعدادته، ومبلغ قوته، ودرجة معنويات أفراده، على أمر من الأهمية و القيمة، عسكرياً، منذ القدم وحتى اليوم. ولذا فإنّ الجيش الإسلامي استقر في منطقة لاءمت مبادئ التستر ومنع أي عمل من شأنه كشف أسراره، كما أنه ﷺ كلف فرقاً مختلفة بتحصيل وجمع المعلومات عن قريش وأفراد جيشها، حتى توفر لدى القيادة الإسلامية من المعلومات، كان أهمها:

ـ معرفة نقطة تواجد قريش ومكان قاعدتهم. فقد سأل النبي ﷺ بنفسه، وأحد قواده، شيخاً من العرب عن قريش و محمّد وأصحابه، فقال: إنّ محمّداً وأصحابه خرجوا يوم كذا، فهم الآن بمكان كذا، وكذلك بالنسبة لقريش.

ـ معلومات عن أعدادهم وعتادهم، فقد أرسل ﷺ الإمام علياً عليه السلام والزبير

ابن العوام و سعد بن أبي وقاص إلى ماء بدر لالتماس الأخبار، فقبضوا على غلامين وأحضروهما إلى النبي ﷺ الذي سألهما عن قريش، فقالا: هم و الله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى.

فقال النبي ﷺ «كم القوم وعدّتهم؟» فقالا: لا ندري، هم كثير. فقال ﷺ: كم ينحرون كلّ يوم من الإبل؟ قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. فقال ﷺ: « القوم فيما بين التسعمائة والألف. فمن فيهم من أشراف قريش؟» قالا: عتبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأُميّة بن خلف. فقال ﷺ لأصحابه: «هذه مكّة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

ـ معلومات حول القافلة، حيث كلّف ﷺ شخصين بالتوجه إلى قرية بدر لتقصّي الحقائق عن قافلة قريش. فسمعا عند الماء جاريتين تقول إحداهما للأُخرى: إنّما تأتي القافلة غداً أو بعد غد، فأعملُ لهم ثمّ أقضيك الذي لك. فقال لها مجدي بن عمرو الجهني: صدقت. ثمّ خلص بينهما.

فعاد الاثنان إلى النبي ﷺ وأخبراه بما سمعا. فعرف ﷺ بذلك وقت ورود القافلة ومكان تواجدهم، ممّا مكّنه من الإعداد والترتيب لملاقاتهم.

وعندما وصل أبو سفيان إلى بدر وسأل مجدي بن عمرو عن محمد ورجاله، أجابه: ما رأيت أحداً أُنكرُه، إلاّ أنّي قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ثمّ استقيا ثمّ انطلقا. فأخذ أبو سفيان من أبعار بعيريهما ففتّه فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، هذه عيون محمّد وأصحابه، ما أرى القوم إلاّ قريباً.

فرجع إلى أصحابه، واتّخذ جهة ساحل البحر الأحمر، مبتعداً عن بدر.

من أحداث معركة أُحد

١ . نفقات الحرب

تحمّل أسياد قريش نفقات المعركة، من اقتراح قدمه «صفوان بن أُميّة» و «عكرمة بن أبي جهل» إلى أبي سفيان بأن يدفع كلّ واحد منهم مبلغاً من المال قائلين: يا معشر قريش، إنّ محمّداً قد وَتَرَكم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منّا.

وقد أوضح القرآن الكريم موقفهم هذا بقوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾** .[١]

٢ . مشاركة النساء في الحرب

فقد شاركت نساء مكّة الوثنيات مع الرجال في هذه المعركة على خلاف عادة العرب، وذلك حتى يحرّضن الرجال على القتال و الصمود، ويمنعن المقاتلين من الفرار و الهروب، لأنّ الفرار يعني أسرهن، ويشعلن الحماس في النفوس بدق الدفوف، و إنشاد الأشعار المثيرة الداعية إلى الثار.

٣ . إثارتهم للنبي ﷺ

حاول عدد من أفراد قريش، القيام بنبش قبر أُمّ محمّد ﷺ: آمنة بنت وهب، قائلاً :فإنّ النساء عورة، فإن يصب من نسائكم أحد قلتم هذه رمّة أُمّك، فإن كان

---

١ . الأنفال: ٣٦.

براً بـأُمّه كما يزعم فلعمـري ليفادينكم بـرّمة أُمّه، وإن لم يظفـر بأحد من نسـائكم فلعمري فليفدين رمة أُمّه بمال كثير إن كان بها براً.

إلاّ أنّ أهل الـرأي منهم رفض الاقتراح وقـالوا: لـو فَعَلنا ذلك، نبشـت بنو بكر وخزاعة ـ و هـم أعداء قريش ـ موتانا.

٤ . إطلاق الشعارات

تصبح مسـألة بث الـدعاية السيئـة وزرعها في النفوس واستثمارهـا، سهلة ومؤثرة في الإنسان عند الهزائم وإصابة النكبات، فتصبح أكثر تقبلاً وأيسر تأثيراً.

ولذا فإنّ أبا سفيـان أمر برفع الأصنام والمناداة بأعلى الأصـوات، بعد معركة أُحد: أُعـلُ هبل، أُعل هبل. فـأدرك النبي ﷺ عمق الخطـورة من هـذا الأسلوب المؤثر في النفوس، فـأمر المسلمين بالإجابـة على ذلك بشعار مضاد قـوي، فقال: «قولوا: الله أعلى وأجـل، الله أعلى وأجل». فاستمر أبو سفيان في إطـلاق شعاراته المزيفة: نحن لنا العزى ولا عُزى لكم. فردّ النبي ﷺ عليهم: «الله مولانا ولا مولى لكم». فنادى المشركون: يومٌ بيوم بدر. فأجاب المسلمون: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

٥ . عن أُميّة النبي ﷺ

روى العلاّمة المجلسي عـن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قـال: كان ممّـا منّ الله عزّ وجلّ على رسوله ﷺ أنّه كان لا يقرأ ولا يكتب، إلاّ انّه عنـدما توجه أبو سفيان إلى أُحد، كتب العباس بن عبد المطلب إلى النبي ﷺ يخبره بذلك، فوصله الكتاب

وهو في بعض حيطان المدينـة، فقرأه ولم يخبر أصحابه، وأمرهم أن يـدخلوا المدينة فأخبرهـم عندئذ.[١]

٦. التضحية والفداء في سبيل الله

وخير من مثلها في معركة أُحد:

***عمرو بن الجموح**: كان شيخـاً أعرجاً أصيـب في رجله، ولـه من الأولاد أربعة يشهدون المشاهد مع النبي ﷺ فأراد الاشتراك في أُحد، ولكنّهم منعوه، فأتى الرسول ﷺ وقال لـه: إنّ بنيّ يريدون أن يحبسـوني عن هذا الوجـه والخروج معك فيه، فوالله إنيّ لأرجو أن أطأ بعرجتـي هذه في الجنة. فقال النبي ﷺ: «أمّا أنت فقد عَذَرك الله ولا جهاد عليك». ثمّ توجّه إلى أبنائه وقومه: «لا عليكم ألا تمنعوه، لعلّ الله يرزقه الشهـادة». فخرج وهو يقول: اللّهم ارزقنـي الشهادة ولا تردّني إلى أهلي. وقد حمل على الأعداء وهو يقول: أنا والله مشتاق إلى الجنّة. فاستشهد في المعركة.

* الشاب **حنظلة بن أبي عامر**: كان له من العمـر ٢٤ عاماً، واشترك أبوه في أُحد إلى جـانب قريـش، حيث كان عـدواً للنبي ﷺ يحرّض على قتالـه، ومعاداة الإسلام، فهـو السبب لما حـدث في مسجد ضرار. فكـان على الباطـل، إلاّ أنّ ابنه حنظلة اتّخذ جانب الحقّ مع النبي ﷺ. وفي يوم المعركة، كان قد أعدّ للزواج بابنة عبد الله بـن أبي سلول و يقيم مـراسيم الـزفاف والعرس في ليلـة الخروج إلى أُحد، ولكنّه سمع نداء الجهاد فاستأذن الرسول ﷺ ليتوقف في المدينة ليلة واحدة حتى يجري مراسيـم العرس و يقيـم عند عروستـه، ثمّ يلتحق بـا لمعسكر الإسـلامي في الصباح. وقد نزل في ذلـك قوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِـاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا**

١. بحار الأنوار:٢٠/ ١١١.

كانُوا مَعَهُ عَلىٰ أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتّى يَسْتأذنُوه إِنَّ الّذينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإذا استَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لمن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾.[١]

وخلال المعارك، استشهد وهو يطارد أبا سفيان، فقال النبي ﷺ: رأيت الملائكة تغسل حنظلة بين السماء والأرض بماء المزن في صحائف من ذهب. فكان يسمّى غسيل الملائكة أو حنظلة الغسيل، ذلك أنّه خرج إلى الحرب وهو جنب.

وكانت الأوس تعتبره من مفاخرها فتقول: ومنّا حنظلة غسيل الملائكة.

أمّا أبو سفيان فقال: حنظلة بحنظلة. ويقصد حنظلة الغسيل بحنظلة ابنه الذي قتل يوم بدر.

والأمر الغريب هنا، إنّ العروسين كانا مؤمنين متفانيين في سبيل الحقّ، في مقابل والدين من أعداء الرسول ﷺ فعبد الله بن أبي سلول والد العروس كان على رأس المنافقين، وأبو عامر الفاسق والد العريس، سمّي في الجاهلية بالراهب لعدائه الشديد للنبي ﷺ والتحق بالمشركين في مكّة، وحرض هرقل على ضرب الحكومة الإسلامية، وقتل الكثير من المسلمين في أُحد. إلاّ أنّه عندما التقى المعسكران نادى أبو عامر: يا معشر الأوس أنا أبو عامر، فقد تخيل أنّهم سيتركون نصرة النبي ﷺ إذا شاهدوه، ولكنّهم ردّوا عليه: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق. فتركهم واعتزل الحرب بعد حين.

* أُمّ عمارة

تحدّثت النساء إلى الرسول الكريم ﷺ بشأن اشتراكهن في الجهاد: يا

---

١. النور:٦٢.

رسول الله نحن نقـوم بكلّ ما يحتاج إليه الـرجال في حياتهم ليجاهـدوا ببال فارغ، فلم حُرِمنـا نحن من هذه الفضيلـة؟ فأجاب ﷺ: إنّ حُسْنَ التبعّل يعـدل ذلك كلّه.مشيراً إلى الأسبـاب الطبيعية والعضوية للمـرأة. إلاّ أنّ بعضهن خرجـن من المدينـة لمسـاعدة جنـود الإسـلام، في السقـي وغسـل ثيابهم وتضميـد الجرحـى. واشتهـرت منهـن في أُحـد: أُمّ عمارة نسيبـة المازنيـة: التـي قـاتلـت دفـاعـاً عـن الرسول ﷺ فجرحت، وقالـت تشرح موقفها: أقبل ابن قميئة وقـد ولّى الناس عن الرسول ﷺ يصيح: دلّـوني على محمّد لانجوت إن نجـا. فاعترض له مصعـب بن عمير وآخرون، وكنـت فيهم فضربنـي هذه الضربة. ولقـد ضربته على ذلـك عدّة ضربات، ولكنّه احتمى بدرعين كانا عليه. و كان النبي ﷺ ينظر إليّ، فرأى جرحاً على عاتقي، فصاح بأحد أولادي: «أُمّك أُمّك إعصب جرحها»، فعاونني عليه.

وعندمـا رأت ابنها وقد جـرح أقبلت إليـه ومعها عصائب أعـدّتها للجراح فربطت جرحه،والنبي ﷺ ينظر، فقالت لولدهـا: انهض يا بني فضارب القوم. ممّا أعجب رسول الله ﷺ باستقامتها وثباتها و إيمانها فقال: «ومن يطيق ما تطيقين يا أُمّ عمارة».

وفي هذه الأثناء أقبل الرجل الذي ضرب ولدها فقال النبي ﷺ هذا ضارب ابنك. فحملت عليه كالأسد وضربت ساقه فبرك. ممّا ازداد من إعجاب النبي ﷺ بشجاعتها وبسـالتها فتبسم وقال: «استقدت يا أُمّ عمارة، الحمـد لله الذي ظفّرك وأقرّ عينك من عدوك».

وبعـدَ المعركـة طلبـت الانضمام إلى جيـش المسلمين الذي سـار إلى حمراء الأسد، ولكن جراحها منعتها من تـأدية الغرض، وبعد رجوع النبي ﷺ سأل عنها فسرّ لسلامتها.

من أحداث غزوة تبوك

١. قصّة مالك بن قيس

أبو خيثمة: رجع إلى أهله في يوم حار فوجد أنّ المسلمين قد غادروا مع الرسول ﷺ إلى تبوك، فدخل عريشاً له،وجد أنّ زوجتيه قد جهّزتا كلّ ما يحتاج إليه من طعام وماء، فنظر إليهما وفكّر ما فيه الرسول ﷺ وأصحابه من حال سيّء، في أشدّ الحرارة وهم قاصدون جهاد العدو، فقال: رسول الله ﷺ في الشمس و الحر والريح، و أبو خيثمة في ظلّ بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم؟ ما هذا بالنصف. لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق بالرسول ﷺ والمجاهدين. فخرج طالباً الرسول ﷺ فأدركه حين نزل تبوك.

٢. تنبؤات الرسول الكريم ﷺ

عندما وصل جيش الإسلام إلى أرض ثمود وهم في الطريق إلى تبوك، غطى النبي ﷺ وجهه بثوبه واستحثّ راحلته، ليسرع في المرور على بيوتهم وأطلالهم، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلاّ وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم». كما أنّه نهى عن شرب مائها أو التوضّؤ به للصلاة أو الطبخ. حتى شربوا من البئر التي شربت منها ناقة صالح النبي عليه السلام.

وفي تلك الليلة أمر النبي ﷺ أصحابه بأن يعقلوا آبالهم، ولا يخرج منهم أحد لوحده بل يخرج مع صاحبه، وذلك لمعرفة النبي ﷺ بأسرار الجو في تلك البقاع. ولما خرج أحدهم فريداً فاختنق لشدة الرياح، واحتملت رجلاً آخر فضربت به الجبل، انزعج ﷺ وقال: «ألم أنهكم أن لايخرج منكم أحد إلاّ و معه

صاحبه».

وأصبح النـاس دون ماء فعطشـوا حتى كاد أن يقطـع رقابهم، لـدرجة أنّهم شربوا الماء مـن كروش إبلهـم بعد نحـرها. فـأرسل الله سبحـانه وتعـالى سحابـة أمطرت فارتوى الناس.

وحدث أن ضلّت ناقة النبي ﷺ ببعض الطريق، فخرج أصحابه في طلبها، فقال أحد المنـافقين: أليس محمّد يزعـم أنّه نبيّ ويخبركم عـن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقتـه؟ فقال الرسول ﷺ: «إنّ رجلاً قـال: هذا محمّـد يخبركم أنّـه نبي ويزعم أنّـه يخبركم بأمر السماء وهو لا يـدري أين ناقته؟ وإنّي والله مـا أعلم إلاّ ما علمني الله، وقد دلّني الله عليها،وهي في هـذا الوادي في شعب كذا، وقد حبَستْها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني بها». فذهب بعض الصحابةوأحضروها.

كما تنبأ ﷺ بحياة أبي ذر و كيفية موته فقـال: «رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده». وقد تحقّقت نبوءته ﷺ بعد ٢٣ عاماً حينما نفي إلى الربذة في الشام، وتوفي هناك وحيداً إلاّ من أهله.

مأساة الدعاة والمبلّغين

كان النبي ﷺ يبعث بمجموعات من المبلغين والدعاة إلى القبائل داعياً لهم إلى التوحيـد و إلى الديـن الإسلامـي، وقد تـألّف هـؤلاء من قـرّاء القرآن الكـريم والعارفين بالأحكام الإسلامية والتعاليم النبوية، أبدوا استعداداً تاماً لأداء مهامهم الصعبة حتى لو كلّفت حياتهم.

ومن القبائل التي تقدمت إلى النبي ﷺ تطلب إرسال عدد من هؤلاء الدعاة

: قبيلتا عضــل والقارة: «إنّ فينــا إسلاماً فـاشياً، فـابعث معنا نفـراً من أصحــابنا يُقْرِئوننا القرآن ويفقهوننا في الإسلام»، فتكونــت جماعة منهم بقيادة: مرثد بن أبي مرثـد الغَنوي، ســاروا حتى وصلوا مـاء الرجيـع التي تقطن عنـده قبيلة هـذيل، فكشفوا عن نواياهـم الشريرة بقتلهم والغدر بهم، إلاّ أنّ المبلغين استعدوا للقتال، فقال العدو: مـا نريد قتالكـم وما نريد إلاّ أن نصيــب منكم من أهل مكـة ثمناً، ولكم عهد الله وميثاقـه لا نقتلكم. فردّ عليه أحدهم: إنّي نــذرت أن لا أقبل جوار مشرك. أو قالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً. ولذا فقد قاتلوا القوم قتال الأبطال فاستشهــدوا إلاّ ثلاثة منهم: زيد بن دثنّة، خبيــب بن عدي، وعبد الله بن طـارق البلوي، إذ أنّهم استسلموا فأوثقـوهم،ولكن عبد الله نــدم على فعله فقاتلهم ثانية حتى قتل فدفن بمـر الظهران. أمّا الآخران فباعوهما في مكّة، حيث اشترى صفوان بن أُميّــة، زيد بن دثنّة وقتله ثأراً لأبيــه. فقام أوّل شيء بحبسه في الحديد، وكان يتهجـد بالليل و يصوم النهــار، ثمّ أخرجه إلى التنعيـم ليصلبه على مرأى من الناس، فطلب أن يصلي ركعتين، ثمّ حملوه على الخشبـة وقالوا له: يا زيد إرجع عن دينك المحدث واتّبع ديننا ونرسلك، فيقول: والله لا أفارق ديني أبداً.

فقال له أبو سفيــان: أنشدك بالله يا زيد أيسرّك أنّ محمّداً في أيــدينا مكانك وأنت في بيتــك؟ فقال زيد بشجــاعة: مـا يسرني أنّ محمّداً أُشيك بشـوكة وإنّي في بيتــي وجــالس في أهلي. فـأثّـرت كلماتــه في نفـس«أبي سفيــان» فقال: مـا رأينـا أصحاب رجل قـطّ أشدّ حبّاً في أصحاب محمّــد بمحمد. فصلبوه شهيداً دفــاعاً عن العقيدة وحياض الدين.

أمّا خبيب فقد حبسوه فترة من الوقت ثمّ قرروا قتله صلباً أيضاً. فخرجوا به إلى التنعيم، وخرجت جماعــة من النساء والصبيان و العبيد ومن أهــل مكّة، فقال

لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا. فسمحوا له، ثمّ قال لهم: أما والله لولا أن تظنّوا أنّي إنّما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة. فرفعوه على خشبة و قالوا: إرجع عن الإسلام نخلّ سبيلك. فقال: لا والله ما أحبّ إنّي رجعت عن الإسلام وأنّ لي ما في الأرض جميعاً. فقالوا له: أما واللات والعزى لئن لم تفعل لنقتلنك. فقال: إنّ قتلي في الله لقليل. ثمّ صرفوا وجهه عن القبلة ووجهوه نحو المدينة فقال: أمّا صرفكم وجهي عن القبلة فإنّ الله يقول: ﴿**فَأَيْنما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ**﴾ [1] اللّهم إنّي لا أرى إلاّ وجه عدو، اللّهم إنّه ليس هاهنا أحد يبلغ رسولك السلام عنّي فبلغه أنت عنّي السلام. ثمّ دعا على القوم: اللّهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً. ثمّ دعوا أبناء من قتل ببدر فكانوا أربعين غلاماً، أعطوا كلّ واحد منهم رمحاً، وقالوا لهم: هذا الذي قتل آباءكم. فطعنوه برماحهم،فتحرك على الخشبة وصار وجهه نحو الكعبة فقال: الحمد لله الذي جعل وجهي نحو قبلته التي رضي لنفسه ولنبيّه وللمؤمنين. فغضب أحد المشركين: عقبة بن الحارث لتمسكه بالإسلام و إخلاصه له، فطعنه طعنة قاتلة وهو يوحّد الله ويشهد أنّ محمّداً رسول الله. وبقي جثمانه فترة على الخشبة بحراسة الكفّار حتى أنزله اثنان من المسلمين الأشدّاء ودفناه كما أمر الرسول ﷺ.

وقد أحزن هذا الحادث الأليم رسول الله ﷺ وجميع المسلمين، وأنشد فيهم حسّان بن ثابت أبياتاً ذكرها «ابن هشام» في سيرته.

إسلام كعب بن زهير بن أبي سلمى

كان زهير بن أبي سلمى من شعراء العرب البارزين في العهد الجاهلي،

١. البقرة: ١١٥.

وصاحب إحدى المعلّقات السبع التي نصبت في الكعبة وتفتخر بها العرب. وتوفي قبل عصر الرسالة. وكان له ولدين: بجير و كعب. أمّا بجير فقد آمن بالإسلام ولازم النبي ﷺ وأحبه، بينما عادى كعب النبي ﷺ فكان يهجوه في قصائده وأشعاره ويؤلّب الناس على الإسلام. أمّا النبي ﷺ فكان قد هدد بالقتل بعض الشعراء الذين كانوا يهجونه ﷺ وأهدر دماءهم. فكتب بجير إلى كعب ينصحه: إن كانت لك في نفسك حاجة فَطِر إلى رسول الله ﷺ فإنّه لا يقتل أحداً جاءه تائباً. فاطمأنّ لكلام أخيه وتوجه إلى المدينة وقابل النبي ﷺ في المسجد وقت صلاة الصبح، فصلّى معه لأوّل مرّة و جلس إليه و وضع يده في يده والنبي ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله انّ كعب بن زهير جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ فقال ﷺ: «نعم». فقال: أنا يا رسول الله كعب ابن زهير. ثمّ أخرج قصيدته اللامية التي مدح فيها رسول الله ﷺ وأنشدها بين يديه في المسجد ليتلافى بها ما سبق أن بدر منه من هجاء و طعن في سيد المرسلين ﷺ

وقيل أنّ أحد الأنصار وثب عليه: يا رسول الله دعني وعدو الله أن أضرب عنقه. فقال ﷺ: «دعه عنك فإنّه قد جاء تائباً نازعاً ـ عما كان عليه ـ» .

وهذه القصيدة هي من أفضل قصائد كعب، اعتنى المسلمون بحفظها ونشرها منذ ذلك الوقت، كما شرحها علماء الإسلام كثيراً، وهي تضم ٥٨ بيتاً تنتهي قوافيها باللام المضمومة، و يبدأ مطلعها:

بانَتْ سعادٌ فقَلْبي اليومَ متبولُ   متيّمٌ إثرها لم يُفدَ مَكْبُولُ

و سعاد هي زوجته وابنة عمّه، بدأ بها كعادة شعراء العهد الجاهلي، إلى أن قال:

إِنَّ الرسول لسيف يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

فأبدله النبي ﷺ: إنّ النبي لنور يستضاء به....

وقيل إنّ النبي ﷺ كساه بردة كانت عليه، طلبها معاوية في زمنه، فقال كعب: ما كنت لأُوثر بثوب رسول الله أحداً. فلمّا مات كعب اشتراها معاوية من أولاده بعشرين ألف درهم. ثمّ تداولها حكّام بني أُميّة والعباس بعد ذلك.

إسلام عدي بن حاتم

بعث النبي ﷺ ١٥٠ فارساً على رأسهم الإمام علي عليه السلام إلى أرض طيء ليحطم صنم طيء و يهدم بيته، فنجح في مهمته، وفرّ عدي بن حاتم الطائي رئيس القبيلة إلى الشام، ويقول هو في ذلك: «فكنت إمرءاً شريفاً، وكنت نصرانياً، وأسير في قومي بالمرباع ـ أخذ الربع من الغنائم لأنّه سيدهم ـ وكنت ملكاً في قومي لما كان يُصنع بي. فلمّا سمعت برسول الله ﷺ كرهته فقلت لغلام راعياً لإبلي: إذا سمعت بجيش محمد قد وطئ هذه البلاد فآذنّي. ففعل و قال: فإنّي قد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا: هذه جيوش محمّد. فاحتملت بأهلي وولدي وقلت: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام،وتركت أُختي في قومي».

وقد ظفر المسلمون بأُخته في سبايا طيء إلى النبي ﷺ الذي أبلغوه عن هروبه إلى الشام. فوضعوها في مكان بباب المسجد، فكانت تقول للنبي ﷺ عندما تراه: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد، فامنُن عليّ منّ الله عليك. قال ﷺ: «ومن وافدك؟» قالت: عدي بن حاتم. فقال ﷺ:« الفار من الله ورسوله». وكررت عليه ﷺ قولها ثلاث مرّات، فقال لها الرسول ﷺ: «قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثمّ آذنيني». ولمّا قررت السفر مع جماعة من قومها قالت: فكساني

رسول الله ﷺ وحملني وأعطاني نفقة فخرجت معهم حتى قدمت الشام. ولما وصلت عند أخيها، أخذت تلومه: القاطع الظالم، احتملت أهلك وولدك، وتركت بقية والدك، عورتك. فقال لها: لا تقولي إلآ خيراً فوالله مالي من عذر. ثمّ سألها: ماذا ترين عن أمر هذا الرجل ـ أي النبي ﷺ فقالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تذلّ في عزّ اليمن وأنت أنت. فقال: والله إنّ هذا هو الرأي.

وعندما قدم إلى المدينة، اصطحبه النبي ﷺ إلى بيته، وأجلسه على وسادة طيّبة، وجلس هو على الأرض. فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك. ثمّ قال ﷺ «إيه يا عدي بن حاتم، ألم تكن ركوسياً ـ وهو دين بين النصارى و الصابئين ـ؟» قلت: بلى. فقال:« أو لم تكن تسير في قومك با لمرباع؟» قلت: بلى. فعرفت أنّه نبيّ مرسل يعلم ما يُجهل.

فقد تنبأ أمامه بالرخاء وسعة المال للمسلمين،وازدياد عددهم، ومساحة الأرض التي يحصلون عليها، وسيطرتهم على الملك، و العيش بالقصور البيض من أرض بابل. فأسلم عدي بن حاتم. ورأى بعينيه بعد فترة، القصور البيض في بابل و قد فتحت، والمرأة تخرج من القادسية على بعيرها لتحجّ البيت الحرام دون خوف.

و كان عدي يقول: قد مضت اثنتان و بقيت الثالثة... وأيم الله لتكونن الثالثة، ليفيضنّ المال حتى لا يوجد من يأخذه.

المصادر و المراجع

١. ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة.

٢. ابن الأثير، عزّ الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري: الكامل في التاريخ.

٣. ابن الأثير، عزّ الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري: أُسد الغابة.

٤. الأحمدي، المحقّق الشيخ علي: مكاتيب الرسولﷺ.

٥. أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن. بيروت دار النفائس ١٩٧٧م.

٦. الإصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين: مقاتل الطالبيين.

٧. الإربلي، علي بن عيسى: كشف الغمّة في معرفة الأئمّة.

٨. الأميني، الشيخ عبد الحسين: الغدير.

٩. ابن حبيب، أبو جعفر محمّد: المحبّر.

١٠. ابن حجر العسقلاني، الحافظ أحمد بن علي بن محمد: الإصابة في تمييز الصحابة.

١١. ابن حجر، أحمد الهيتمي: الصواعق المحرقة.

١٢. ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني: مسند أحمد.

١٣. ابن خلّكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.

١٤. ابن سعد، محمد بن سعد : الطبقات الكبرى.

١٥. ابن طاووس، السيد عبد الكريم: إقبال الأعمال.

١٦. ابن عبد البرّ الحافظ المالكي الأندلسي: الإستيعاب في معرفة الأصحاب.

١٧. ابن كثير، الحافظ عماد الدين: البداية و النهاية.

١٨. ابن هشام، محمد بن عبد الملك: السيرة النبوية.

١٩. ابن القيم، العلاّمة شمس الدين الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد.

٢٠. ابن معد، السيد شمس الدين فخار: حجّة الذاهب إلى إيمان أبي طالب.

٢١. ابن واضح، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب: تاريخ اليعقوبي.

٢٢. أبو نعيم، الاصفهاني: حلية الأولياء.

٢٣. البحراني، السيدهاشم: تفسير البرهان.

٢٤. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: الصحيح.

٢٥. البرهان فوري، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي: كنز العمال.

٢٦. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: فتوح البلدان.

٢٧. البيروني، أبو الريحان محمد أحمد الخوارزمي: الآثار الباقية عن القرون الخالية.

٢٨. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك: ثمار القلوب.

٢٩. الحاكم النيسابوري، الحافظ أبي عبد الله بن محمد بن عبد الله: المستدرك.

٣٠. الحسيني، السيد علي خان المدني: الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة الإمامية.

٣١. الحرّالعاملي، محمد بن الحسن: وسائل الشيعة.

٣٢. الحلبي، الشيخ علي بن برهان الدين الشافعي: السيرة الحلبية.

٣٣. الحيدر آبادي، محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة.

٣٤. الديار بكري، القاضي حسين بن محمد بن الحسن المالكي: تاريخ الخميس.

٣٥. الرازي، فخر الدين: مفاتيح الغيب.

٣٦. الزمخشري، محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل.
٣٧. السبحاني، الشيخ جعفر: مفاهيم القرآن.
٣٨. السبحاني، الشيخ جعفر: معالم التوحيد في القرآن الكريم.
٣٩. السيوطي، الحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين: الدرّ المنثور.
٤٠. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم: الملل و النحل.
٤١. الصدوق، محمد بن علي القمي: الخصال.
٤٢. الصدوق، محمد بن علي القمي: علل الشرائع.
٤٣. الطباطبائي، السيد محمّد حسين: تفسير الميزان.
٤٤. الطبرسي، أحمد بن علي : مجمع البيان في تفسير القرآن.
٤٥. الطبرسي، فضل بن الحسن: إعلام الورى بأعلام الهدى.
٤٦. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأُمم والملوك.
٤٧. الطوسي، محمد بن الحسن: الأمالي.
٤٨. القمي، الشيخ عباس: سفينة البحار.
٤٩. كحالة، عمر رضا: أعلام النساء.
٥٠. الكراجكي، أبو الفتح محمد بن علي: كنز الفوائد.
٥١. الكليني، محمد بن يعقوب: فروع الكافي.
٥٢. الكليني، محمد بن يعقوب: روضة الكافي.
٥٣. الكوفي، أبو القاسم: الاستغاثة.
٥٤. المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار.
٥٥. الشريف الرضي: نهج البلاغة، شرح محمد عبده.
٥٦. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابوري: الصحيح.

٥٧ . المفيد، الشيخ محمد بن محمد بن النعمان: الإرشاد.

٥٨ . المقريزي، تقي الدين أبو محمّد: إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأحوال والحفدة والمتاع.

٥٩ . النسائي، القاضي أحمد بن شعيب بن علي: سنن النسائي.

٦٠ . الواقدي، محمد بن عمرو: المغازي.

فهرس محتويات الكتاب

القسم الثاني: يثرب ـ المدينة المنورة

الفصل الخامس:

الفصل السادس:



By: Ayatollah Jafar Sobhani

AL-SIRAH AL-MOHAMADIAH



مرکز پخش: انتشارات توحید
۷۷۴۵۴۵۷ - ۰۹۱۲ ۱۵۱ ۹۲۷۱

Tel: +98 251 292 51 52
Fax: +98 251 292 23 31
http://www.ImamSadeq.org
E-Mail: pub@ImamSadeq.org

* انّ أعظم صفحات التاريخ قيمة، هي تلك التي تعكس لنا حياة العظماء، و سيرة الرجال الخالدين، و التي تبحث عنهم بصدق و أمانة و موضوعية.

* يتميّز هذا الكتاب بميزتين هامتين:

أولاهما: انّنا عمدنا فيه الى تناول الحوادث و الوقائع المهمة، ذات الفائدة الكبرى و العبر، بالبحث و التحليل مع ابعاد الاحداث الجزئية الصغرى..

و ثانيتهما: انّنا أشرنا خلال الدراسة، الى الاعتراضات والاشكالات، و الى مواطن الإساءة التي قدّمها المستشرقون المغرضون، و تناولناها بالاجابة على كل تلك الانتقادات غير الصحيحة بأجوبة مقنعة وقاطعة.

* كما بادرنا الى ذكر رأى المولّفين الشيعة في المسائل التي اختلف عليها مورّخو السنّه و الشيعة، مع ذكر المصادر و الشواهد التاريخية الواضحة المبرهنة.

من المقدمة

طراح/مهدی طلاییان

